موجز أحكام شهر رجب

بقلم : محمد عبد الحكيم القاضى

لقد قامت حول كثير من أشهر المسلمين طائفة من المسائل يتحدث فيها الخاصة والعامة ، بعضها صواب وحق ، وبعضها خطأ وبدعة ، فاذا كان من واجب المشتغل بالعلم أن ينصح ، فمن أوجب الواجب أن يتخير وقت الموعظة ، ونحن — فى هذا الميقات الذى نحسبه مناسبا — نلقى الضوء على أهم الأحكام الشرعية لشهر رجب ، ليميز الله الخبيث من الطيب ، ويعرف المسلمون الصواب من الخطأ فى معتقداتهم وعباداتهم — قاصدين وجه الله تعالى ، وعليه التوكل :

شهر حرام :

يقول الله تعالى : « ان عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا فى كتاب الله يوم خلق السموات والأرض ، منها أربعة حرم .. » .

(التوبة / ٣٦)

وقد فسر النبى ﷺ هذه الأشهر فى خطبته يوم حجة الوداع بقوله : « .. السنة اثنا عشر شهرا ، منها أربعة حرم ، ثلاثة متواليات : ذو القعدة ، وذو الحجة ، والمحرم ، ورجب مضر : الذى بين جمادى وشعبان » .

(وهو مخرج فى الصحيحين)

والأشهر الحرم كان القتال فيها حراما فى الجاهلية ، ثم استمر حراما فى الاسلام .

رجب مضر :

لكن الذى يلفت النظر هو أن النبى ﷺ سماه « رجب مضر » ،

وحدد موقعه من السنة فقال : « الذى بين جمادى وشعبان » . وهذا يشير الى أمر مهم ، وهو أن مضر وربيعة ـ كلتيهما ـ كانتا تحرمان شهر رجب ، ولكن اختلفوا فى موضعه ، فأما ربيعة فكانت تعد (رمضان) هذا الشهر وتحرمه ، واما مضر فكانت تحرم (رجب) ـ الذى نعرفه . وتأتى دقة التشريع الاسلامى الشريف ، واحتراز النبى ﷺ لأمته ، فيحدد حين تشتبه الأمور . فلولا صنع مثل ذلك أقوام من علماء أمته فى هذه الأيام ؟ أن يحددوا حين الاشتباه ، وأن يضعوا « النقط فوق الحروف » حين الايهام ؟

الصيام فى رجب :

الصيام ـ بعامة ـ أمر مستحب فى الشريعة ، لقول النبى ﷺ : « الصوم جنة » (رواه الترمذى وغيره) .

وخصوصا للشباب لقوله : « ومن لم يستطع فعليه بالصوم . فانه له وجاء » .

ولكن لهذا الاستحباب شروطا ، منها ألا يعزم صوم الدهر ، فقد حرم ذلك ، ومن ظن فيه قربة فقد أخطأ . ومنها أن يستثنى أياما بأعيانها لا يختصها بصيام مثل يوم الجمعة ـ الا أن يوافق عادته . ومنها أن يفطر فى العيدين وأيام التشريق ـ وجوبا .

ولا يستحب صيام شهر بأكمله غير رمضان ، لأنه أشبه بصيام الدهر ، ولأنه ليس من هدى النبى ﷺ ، فمن حديث عائشة :

« ما رأيت النبى ﷺ أكمل صيام شهر قط الا رمضان » .

وعلى هذا يجرى الحكم فى شهر رجب ، فهو يصام منه ويترك ـ مثل بقية الأشهر ، **وليس فى رجب يوم واحد منصوص على صيامه بحديث صحيح** ، وقد قطع بذلك كثير من الأئمة ، منهم الحافظ بن رجب الحنبلى الذى قال : « ولم يصح فى فضل صوم رجب بخصوصه شىء عن النبى ﷺ ولا عن الصحابة » (لطائف

المعـارف ص ١٢٣) ، وهذا هـو المفهوم من كلام ابن حجـر فى « تبيين العجب » وغيره من الأئمة • ومن ثم فقد كره أكثر السلف صيام رجب مجتمعا ، منهم ابن عباس وابن عمر وسعيد بن جبير ويحيى بن سعيد الأنصـارى والامام أحمـد ، وكان أبو بكرة — رضى الله عنه — رأى أهلـه يتأهبون لصيام رجب ، فقال لهـم : « أجعلتم رجب كرمضان » ؟ وألقى السلال وكسر الكيزان •

وأما الأحاديث التى يرددها العامة فى فضائل الصيام فى رجب فهى ما بين شديد الضعف وموضوع ، وليس لواحد منهـا نصيب من الصحة ، ولولا مقام التلخيص لسودنا الصفحات فى أسانيدها ، ولكن أغنانا عن كثير من ذلك الامام ابن حجر العسقلانى فى كتابه « تبيين العجب » وهو كتاب نفيس لمن يعلم •

صلاة الرغائب :

وكذلك يشيع بين (علماء العامة) — وكثير من وعاظ المساجد — الحث على صلاة مخصوصة يسمونها « صلاة الرغائب » ، ويحددون لها ميقاتا هو الجمعة الأولى من شهر رجب ، وهى صلاة مبتدعة ، ليس لها فى الشريعة أصل ، وانمـا اخترعت بعد أربعة قرون مـن الهجرة النبوية ، ولذلك لا يوجد لها ذكر فى كتب المتقدمين وفقههم • وللأسف فقد اجترأ المبتدعون على مقام النبى ﷺ — وكذبوا عليه ، فوضعوا أحاديث اخترعوها فى فضل هـذه الصلاة • وأهل العـلم بالحديث يحكمون بكذب هذه الأحاديث وبطلانها ، فليتأمل ذلك من كان له قلب •

العمرة فى رجب :

وأما العمرة فيه فهى مستحبة عند كثير من أهل العلم ، وقـد روى ذلك عن عمر بن الخطاب وكثير من السلف • وفيه حديث عـن ابن عمر رضى الله عنهمـا أن النبى ﷺ اعتمر فى رجب • وكانت عائشة تفعل ذلك •

وأما الزكاة :

لكن العجب أن بعض عوام المسلمين وبعض الوعاظ يتحـاثون على اخراج زكاة أموالهم فى هذا الشهر بالذات ، ويظنون أنه مـن البركة • وليس فى ذلك أثر صالح للحجة ، وانما زكاة الأموال تجب حين يحول الحول منذ ملكية النصاب ، فاذا كان هناك امام يبعث السـعاة فليس هناك تحديد لوقت بعثهم ، وانما اختلفـوا فى أى الأشهر أجب : أهو المحرم لأنه أول الحول ، أم هو رمضان لفضله ــ وليس فى اختلافهم شىء ، وانما هو على الأفضلية لا على التعيين •

فلنتق الله ولنتعلم :

فلنتق الله فى ديننا ولا نجعله موضعـا لأوهام الواهمين ، وبدع المبتدعين ، ولنطلب علم هـذا الشرع الشريف ، فانه الحصن الحصين ، والله من وراء القصد ، وهو المستعان •

محمد عبد الحكيم القاضى

المفتى ... وتزيين البدع

بقلم : محمد عبد الحكيم القاضى

الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى ، وبعد :

فان المعادلة الصعبة فى الواقع الذى يظلل المسلمين اليوم تتمثل فى الانفصام القائم بين الرجال والتراث ، وكأنها « رجال بلا تراث ، وتراث بلا رجال » ، فالمحاولات التى حاولها الأعداء ليحجزوا هذه الأمة عن تاريخها ، ويفصلوا حاضرها عن ماضيها قد عمدت الى ذلك وأعدت له .

ولسنا مسرورين حينما نعلن أن بعض هؤلاء الأعداء قد نجحوا فى بعض ما انتدبوا أنفسهم له ، ولكننا نلمس جانبا خطيرا من هذه الجوانب اليوم فى حديثنا عن « المفتى وتزيين البدع » ، وذلك أن انتقاض عرى الاستمساك بحبل الله تعالى — وقع كثير منه على يد طائفة من أهل الافتاء زينت لهم الحياة الدنيا بمباهجها ووجدوا أنفسهم فى المناصب الزائفة ، وثمة مالوا بهواهم مع البدع فأفتوا بجوازها وربما باستحبابها .

أهمية الفتيا :

ولو علم المفتى مكانه من الناس ما شرع فى قول الا بعد روية وبذل مجهود ، لأن شرف الاجتهاد — الذى هو كل مؤهلات المفتى — شرف لا ينال بالادعاء ، ولا بقليل السعى ، فقد عرف ابن الأثير الاجتهاد بقوله : « بذل الوسع فى طلب الأمر ، وهو افتعال من الجهد : الطاقة » ، وهذا التعريف يعطى دلالة أهمية بذل الاجتهاد وافراغ الوسع قبل الافتاء .

فالمفتى مخبر عن الله تعالى — بل هو فى تعريف الامام ابن القيم « موقع عن الله ، واذا كان منصب التوقيع عن الملوك بالمحل الذى

لا ينكر فضله ، ولا يجهل قدره ... فكيف بمنصب التوقيع عن رب الأرض والسموات ؟

فحقيق بمن أقيم فى هذا المنصب أن يعد له عدته ، وأن يتأهب له أهبته ، وأن يعلم قدر المقام الذى أقيم فيه ، ولا يكون فى صدره حرج من قول الحق ، والصدع به ، فان الله ناصره وهاديه » .

ضلال الهوى :

وفى تقديمى لكتاب « الفتوى فى الاسلام » للقاسمى طرقت فنونا متعددة من الضلال الذى يتعرض له المفتى ، ومن هذه الألوان هذا اللون الذى يهمنا فى حديثنا عن البدع ، وهو ضلال الهوى ، فان وظيفة « ابليس » الرئيسية — لعنة الله عليه — هى تزيين الباطل ، وتحبيب الشهوات ، وصرف الناس عن المكاره الى الأهواء ، ولقد تظهر لك هذه المهمة حين تقرأ قوله تعالى :

« ولقد أضل منكم جبلا كثيرا ، أفلم تكونوا تعقلون »

وهذا اللون من الضلال يعرض للمفتى حين يميل بهواه الى المستفتى ، وقد حذر منه الأصوليون من قديم ، قال ابن حمدان فى كتابه « صفة الفتوى » : « .. وليحذر أن يميل فى فتواه مع المستفتى أو خصمه ، ووجوه الميل كثيرة لا تخفى ، ومنها أن يكتب فى جوابه ما هو له ويترك ما هو عليه » .

طبيعى — اذن — أن يقود الهوى صاحبه الى مزالق ، خصوصا اذا امتزج به حب الشهرة ، والتشبث بأذيال الرياسة والشرف ، فان هذا هو أفسد الفساد ، ألا ترى أن النبى ﷺ يؤكد على ذلك فيقول :

« ما ذئبان جائعان أرسلا فى غنم بأفسد لها من حرص أحدكم على المال والشرف لدينه » .

وهل تجد أفسد للغنم من الذئاب ؟

فكيف اذا كانت جائعة ؟

وكيف اذا أرسلت ارسالا ولم تمسك ؟

وكيف اذا كانت غنما بلا راع ؟

فكذلك ــ بل أشد ــ اذا تمكن من الرجل الحرص على المال والمكانة !

تزيين البدع :

من أجل ذلك فان خطورة أن يتمسك مثل هذا الرجل الذى وصفنا بتلابيب أمر الفتوى ــ خطورة لا تندفع ، اذ أنه قد يصنع للباطل قانونا ، وللبدعة شريعة ، وقد أدرك جانبا من هذه الخطورة جماعة من السلف رضوان الله عليهم ، يقول ابن الحاج المالكى فى « المدخل » « وليحذر أن يغتر العالم أو يميل الى بدعة لدليل قام عنده على اباحتها من أجل استئناس النفوس بالعوائد أو بفتوى مفت قد وهم أو نسى أو جرى عليه من الأعذار ما يجرى على البشر ، وهو كثير » .

وهذه العبارة تسجل عاملين من عوامل انتشار الفتوى بتزيين البدع ، هما :

١ ــ اغترار العالم بدليله أو دليل غيره من غير تمحيص .

٢ ــ استمالة الناس بالرضا عن عوائدهم وابتداعاتهم .

واغترار الناس بفتوى العلماء فى موضوع البدع يجعلهم كثيرا ما يصمون آذانهم عن الدليل الصحيح متذرعين بأن هذه فتوى فلان ، وقد تفطن الى ذلك الامام أبو شامة المقدسى ، اذ قال :

« وأكثر ما يؤتى الناس فى البدع بهذا السبب ، يكون الرجل مرموقا بالأعين فيتبعون أقواله فتفسد أمورهم مع تقادم العهد ونسيان أول الأمر كيف كان » .

بل قد يتصدر لأمر الفتوى أجهل القوم ، فهذا الى البدع أميل ، وعلى الفتيا أجرأ ، فلعله أن يزين بدع الاعتقاد ، متنكبا سبيل الرشاد ، ومن أضل ما قيل فى ذلك فتوى بعضهم فى دعاء غير الله قائلا :

« أرأيت ان أردت أن تدخل على أحد الرؤســـاء فى بعض حاجتك : أتدخل عليه وحدك أم من الخـــير أن تصحب انســـانا قريبا الى قلبـــه أثيرا عنده ؟ فهكذا أنت تقول : ياحسين •• ياسيدة •• توسطى لى عند ربك » ! فانظر كيف ضربوا لله مثل السوء فضلوا وأضلوا ••

العرف الفاسد وتزيينه :

وفى أحشاء الكلام السابق من الفساد ما يغنينا ظهوره عـــن تكلف مناقشته ، ولكن بغيتنا الآن أن نسوق مثالين سمعنا الفتـــوى فيهما من (رجال) انتسبوا الى العلم ، وتصدروا للافتاء فى بلادنا ، لا نستطيع تفسيرهما أو غيرهما مما كان على شاكلتهما الا بتفســـير واحـــد ، وهو : أن الذى يقود هؤلاء الى هـــذه الفتاوى ليس هـــو خطأ الاجتهاد ، لأن الخطأ أو الصواب انما هو ناتج عـــن الاجتهاد فى نصوص الشريعة الغراء ، ونحن فى هذه الفتاوى لا نرى نصوصا ساقها المفتى ، ولا نعرف اجتهادا له فى فهم هـــذه النصـــوص ، واليك المثالين :

١ ــ سئل بعض من يتصـــدر لأمر افتاء الناس فى بلادنا ــ على مرأى ومسمع من « المشاهدين » ــ عن الفتاة ليلة الزفاف : هل تخلع بعض ملابسها الشرعية وتتخفف من حجابها ، ويطلع عليهـــا النـــــاس ؟

فأجاب : لا بأس بذلك ، على أن تلبسها فيما بعد ••

٢ ــ سئل أحد (الدكاترة) ــ الذين ينتسبون الى العلم عن حكم الاســـلام فى حلق اللحية • فأجاب أمام « المشاهدين » بقوله :

« انما هى شعيرات ، ان شئت أطلقتها ، وان شئت حلقتهـــا » !! فياحسرة على العلماء !

ما أجرأهـــم على الكذب ! وما أقدرهـــم على السخرية بشـــعائر الاســـلام :

« ومن يعظم شعائر الله فانها من تقوى القلوب » •

البقية صفحة (٤٦)

نعـــم :

يطوف ذهنك فى المصادر التى عسى أن يكون هذان (العالمان) رجعا اليها ، من كتاب أو سنة أو تقليد صحـــابى أو قول تابعى أو مذهب صحيح أو ضعيف أو قياس صحيح أو سقيم ، تقلب فى ذلك كله فلا تجد ... وانما تجـــد فهما منكوســـا للشريعة ومقاصدها ، وحماية للأعراف الفاسدة ، ومن وراء ذلك كله دنيا مؤثرة ، وشهرة مطلوبة ، ورئاسة متطاول اليها .

ثم نعـــم :

ان المفتى الصالح ضرورة ملحة ، ذلك المفتى الذى يفرغ قلبه من الدنيا ، ويتطلع بكيانه جميعـــا الى الآخرة ، ويدعـــو اللـــه أن يهديه الى ما اختلف فيه من الحق ، وهو أمر آخر غير الذى كنـــا نتحدث فيه ، فليعنا الله الى دراسته واللقـــاء حوله مرة أخـــرى ان شاء الله تعالى ،

محمد عبد الحكيم القاضى

هذا بلاغ للنـــاس :

معنى كلمة شعائر

بقلم : محمد عبد الحكيم القاضى

الحمد لله الذى حرم شعائره فى كتابه فقال :

« يأيها الذين آمنوا لا تحلوا شعائر الله ... » (المائدة/٢) .

وأمر بتعظيمها فقال :

« ذلك ومن يعظم شعائر الله فانها من تقوى القلوب »
(الحج/٣٢)

وبعـــــد

فهذه العجالة المركزة دعانا اليها تلاعب الناس بكلمة (شعائر) ووضعها فى غير موضعها . ولو أن الأمر وقف عند عوام الناس أو حتى عامة المثقفين لكان شيئا خطيرا ، وشرا مستطيرا ، فكيف وقـد تعداهم الى أهل الاعلام ، الذين ينقلون للناس (شعائر الاسلام) ؟

واذاعة القرآن الكريم أيضا :

حتى هذا الركن من الشبكة الاذاعية ــ الذى يسمى باذاعة القرآن الكريم ــ أصبح وكرا لاذاعة هـذا اللغو فى آيات الله والتحـريف لشعائره ، فما أيسر على المذيع أن يهدج صوته بقوله :

« والآن .. ينتقل (الميكرفون) الى اذاعة خارجية لاذاعة شعائر صلاة الجمعة » .

وتبحث عن هذه الشعائر التى قصدها الرجل فلا تجد أكثرهـا الا بدعا محدثات ، ومفاسد موبقات ، بدءا من قراءة المقرىء ــ التى

هى بدعة أصلا ، فضلا عن طريقة الكثير من القراء فى التطريب غير المضبوط بالقواعد الشرعية للترتيل ، ومرورا بهذه الحالات « الهستيرية » من عدم الخشوع ــ التى تنتاب الجهلاء فى أثناء استماعهم للقرآن ــ متمثلة فى ترديد كلمات تدل على بعدهم عن تدبر آيات الكتاب الحكيم ، ثم انتهاء الى الأذانين ــ اللذين يتحديان السنة ، وهذه التمطيطات فى الصوت ــ التى ما أنزل الله بها من سلطان ، ثم هذا الدمت غير الشرعى فى ما يسمونه (ختم الصلاة) .. وغير ذلك مما يحسب زورا على شعائر الله .

الشعيرة والمشعر والشعائر :

والمدقق فى هذه المشتقات الثلاث يجد أنها قد وردت فى كتاب الله تعالى فى سياق تشريع مسائل (الحج) ، ولذلك تداول أهل العلم استخدامها فى هذا الباب خاصة . حتى قال ابن عباس فى تفسيره لقوله تعالى : « لا تحلوا شعائر الله » : (يعنى بذلك مناسك الحج) . « ابن كثير (دار الأندلس) ٢/٤٧٣ » والى هذا المعنى وجه الراغب الأصفهانى ــ فى المفردات (ص ٢٦٢) ــ كل هذه المشتقات ، حين قال : « ومشاعر الحج معالمه الظاهرة للحواس ، والواحد مشعر . ويقال شعائر الحج ، الواحد : شعيرة ... وسمى بذلك لأنها تشعر ــ أى تعلم(١) : بأن تدمى بشعيرة ، أى : هديدة يشعر بها » ــ هكذا قال ــ وهو امتداد لفهم ابن عباس ، وابن عباس هو الذى يقول فى الآية (ومن يعظم شعائر الله ..) : « تعظيمها استسمانها واستحسانها » (ابن كثير ٤/٦٣٨) . وهو يعنى بذلك البدن والهدايا .

وشعائر الله أوامره الواضحة :

لكن المعنى لم يتحجر عند مجرد ارادة مناسك الحج ، فقد صرح

---

(١) « تشعر » بضم التاء وفتح العين مبنى للمجهول وكذلك « تعلم » بضم التاء وفتح اللام المشددة .

المفسرون بأن شعائر الله أوامره • وقيل : شعـائر الله محارمـه • وكلاهما صواب ، وامتداد للمعنى اللغوى العام الذى ذكره اللغويون ، لأن الشعائر هى المعالم الظاهرة • ويقـول صاحب « روائـع البيان ص ١٣٣ » :

« والشعائر تطلق على كل معـالم الدين التى تعبدنا الله تعـالى بها : كالطواف ، والسعى ، والأذان الخ » •

قلت : يفهم من ذلك جميعا أن كلمة (شعـائر) آكد من كلمـة (أوامر) ، لأنها تحمل معنى الوضـوح والبروز والعلمية(١) ، فهى معالم الشريعة ومواقف العبادة وواضحات التكاليف ، ومن ثم كان تعظيمها دليل التقوى المتعمقة فى النفوس الضاربة بجذورها فى حنايا القـلوب •

وعلى النقيض من ذلك من أهدرهـا ولعب بها فهو دليل رقـة فى ايمانه ، ودياثة فى دينـه •

« أنا لست من ماء ولا من طين » ! :

فالى أى معالم الاسلام نعزو ما صنعه أحد المنشدين فى المسجـد المنسوب للحسين رضى الله عنه ، حين قال فى (شعائر) صلاة الفجـر لليوم الخامس من رمضان : (أنا ــ يا اله الكون ــ نور بالتقى : أنـا لست من ماء ولا من طين) ! أفلم يستحى (مذيع الشعائر) أن يجعل من شعائر صلاة الفجر وعلاماتها الواضحة ، ومن تكاليف ربنا الصريحة هذا الكفر الناطق والجحود السافر لمقررات الله الثابتـة فى الخـلق وسننه المستقرة فى التكوين •

هذا المنشد دفعه جهله الى تحدى كلمات الله عز وجل ، فحـين يقرر الخالق البارىء المصور فى غير آية من الكتاب هـذا المعنى الذى

---

(١) العلمية : تقرأ بفتح العين واللام وكسر الميم •

أودعه سورة السجدة : « الذى أحسن كل شىء خلقه ، وبدأ خلق الانسان من طين • ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين » السجدة/٧ ، ٨ •

نقول : يقرر الخالق البارىء المصور أنه قد خلق الانسان — أولا — من طين ، وهو آدم عليه السلام • ثم جعل كل الناس بعده من ماء مصطفى على الهيئة التى أرادها ربنا تعالى • ومع ذلك فان صاحبنا لا ترضيه هذه الطريقة الحكيمة من الخلق ، فيتمرد عليها قائلا : انه ليس من ماء ولا من طين • ثم يسمى هذا (شعائر) !

أى هذه الموبقات شعائر :

ونختم هذه المقالة بسؤال لمن يهمه أمر هذه الاذاعات :

أى هذه البدع المفسدات شعائر واضحة ومعالم ثابتة فى الاسلام :

١ — بدعة التواشيح الغريبة عن الاسلام ، التى استبدلها المخنثون بصلاة الليل ؟

٢ — أم هذا الهراء الفاسد والضلال الطافح الذى يكون فى كلماتها ؟

٣ — وأين رقابة العلماء ؟ بل قل : أين العلماء المخلصون والولاة الصالحون ؟ والقادة الأمناء ؟ الذين يقفون عند قوله تعالى (ادعوا ربكم تضرعا وخفية ، انه لا يحب المعتدين • ولا تفسدوا فى الأرض بعد اصلاحها ، وادعوه خوفا وطمعا • ان رحمة الله قريب من المحسنين) (الأعراف/٥٥ ، ٥٦) •

نعم ، والله :

« ان رحمة الله قريب من المحسنين » •

محمد عبد الحكيم القاضى

الإنكار .. على مفتى الديار

بقلم : محمد عبد الحكيم القاضى

كلمات محسوبة

ان كلمات المرء محسوبة عليه ، ومقيدة اما فى دفاتر حسناته أو فى دفاتر سيئاته : (ما يلفظ من قول الا لديه رقيب عتيد) ومن ثم وجب ألا يقول الرجل الا طيبا : (لا خير فى كثير من نجواهم الا من أمر بصدقة أو معروف أو اصلاح بين الناس) .

ولما علم الله ما للكلمة من أثر فى نفوس الناس جعل عليها قيما من الملائكة من أجل حساب يوم المحشر ، ثم جعل عليها قيما من المؤمنين من أجل مصلحة الأمة ، واستقرار الهدى الربانى فى النفوس . فأمر تعالى المؤمنين أن يراقبوا أنفسهم ، وأن يراقب بعضهم بعضا فى هذا الميدان حتى لا يطغى أحد أو يضل ، فكان مما قال فى ذلك : « واذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به ، ولو أنهم ردوه الى الرسول والى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم » .

وكانت أمانة الفتوى هى من أعلى أمانات الكلمة فى الاسلام ، وقد تحدثنا فى مقالتين سابقتين عن هذا الأمر على صفحات مجلة «التوحيد» ثم ها نحن اليوم نلتقى مع مفتى مصر ، وقد تابعناه فى لقاءاته وفتاويه . لا نكتم الله ولا نكتم المسلمين أننا ننكر عليه ذلك ، لأن الأمر خرج عن نطاق المسائل الخلافية التى لا انكار فيها الى نطاق الخلط الذى يجب فيه الانكار ، ولا يصح عليه السكوت . وانما سنبتغى فى انكارنا سبيل الايجاز ، وندع التفصيل لموضع آخر ان شاء الله .

موضوع الانكار على المفتى :

أول ما يلفت النظر من كلام المفتى فى طوافه فى أقاليم مصر هذه الحقائق التى لازمته ، وهى محور حديثنا :

الأولى : أن فتاويه ملفقة من المذاهب على خلاف شرط من أجاز التلفيق .

الثانية : أنه يتعقب رخص الفقهاء وزلات الآراء ويفتى بها •
الثالثة : أنه متعصب لرأيه لدرجة عدم سماع مناقشة المخالف ، بل لدرجة انتهاره وزجره •
الرابعة : أنه يظهر السخرية من علماء المسلمين الذين بلغت شهرتهم الآفاق •
وهذه الأربعة قواصم ، لا يصلح مفت فيه بعضها ، فكيف بها جميعها ؟!

شروط التلفيق عند مجيزيه :

فأما التلفيق ففى جوازه لمجتهد المذهب خلاف عند المتأخرين ، وقد حكى الاجماع على عدم جوازه مطلقا ، لكنه اجماع غير قطعى ، فقد نقل اجازته بشروط ، وهو ما اختاره جماعة لا نتهم علمهم منهم من الحنابلة الشيخ مرعى ، وقطع به من الحنفية جماعة منهم ابن نجيم ، ونقل خلاف المالكية فيه العلامة الدسوقى ، ورجح الجواز •

والحق أن التلفيق مذهب مبتدع ما عرفه السلف ، ومعناه : الاتيان بكيفية فى الفتوى لا يقول بها مجتهد • وذلك بأن يلفق فى المسألة الواحدة بين قولين أو أكثر فيتولد منها قول لا ينتمى الى أحد جميعه •

والذين أجازوه انما أجازوه بشروط ثلاثة :

١ ــ ألا يتتبع المفتى رخص العلماء فيمزج بينها فى فتوى واحدة : وقد أنكر العلامة السفارينى على من أجازه بهذه الصورة ،فقال: « والذى أراه وأقول به معتمدا على ما قرره الأشياخ ، والعقل والنقل يساعده ، بطلان ذلك كله ، لأن فيه مفاسد كثيرة ، وموبقات غزيرة ، وهذا باب لو فتح لأفسد الشريعة الغراء ولأباح جل المحرمات » •

وقد جزموا بأن تتبع الرخص ومجاراة الأهواء على هذا النحو فسق

٢ ــ ألا يكون فيه (يعنى التلفيق) رجوع عما عمل فيه تقليدا •

٣ ــ ألا يكون مخالفا للازم اجماعى •

ومدى علمنا أن المفتى قد وقع فى هذه الثلاثة فى فتاويه الملفقة •

مذهب متطرف فى الغناء :

فلقد اشتهر عنه تتبع الترخصات فى الشريعة بل جاوزها الى الفتوى بالمذاهب الضعيفة المخالفة للاجماع ــ التى أنكرها العلماء ــ

والتشدد لها ، والنكير على مخالفه فيها ، وهم علماء هذه الأمـــة الذين نشروا دين محمد ﷺ • والمثال على هذا : مسألة الغناء •

بمنتهى الاختصار اعلم أن اجماع من يعتد بقوله من أهل العـــلم على حرمة الغناء المصحوب بالشبابة والدفء ، أو آلات اللهو المختلفة ، وهو اجماع على نص أحاديث النبى ﷺ ، وتفسير الصحابة لعمـــوم القرآن • وأكد أهل العلم النكير على خارق اجماع الأئمة — وهو ابن حزم الأندلسى — فلا تجد مصنفا فى هذا الموضوع الا أنكر عليه هـــذا المذهب البارد الباطل فى اباحة الغناء الملهى • وقد جمعت قدرا صالحا من هذا ان شاء الله فى كتابى « الروضة الغناء حول رسالة ابن حـــزم فى الغناء » ثم راجع بعضه ان شئت فى كتاب العلامة ابن القيم « اغاثة اللهفـــان من مصـــائد الشـــيطان » •

ومذهب الشافعى — الذى يدعى المفتى تقليده — هو التحريم ، وقال : « من استكثر منه فهو سفيه ترد شهادته » ، وزعـــم بعـــض الشافعية أن الشافعى لم يحرم الغناء كأبى الطيب الطبرى ، لكن رده أكابر أصحابه العارفين بمذهبه كما حققه ابن القيم ، وكما هو الظاهر من تصرف ابن الصلاح — وهو شافعى — فقد صرح بحكاية الاجماع على تحـــريم الغنـــاء •

فها أنت تراه فى فتواه بحل الغناء والمعازف ما اتبع مذهب أئمته الشافعية ، ولا مذهب علماء الأمة قاطبة ، ولا سمعنا له استدلالا على مذهبه حين المخالفة على عادة العلماء •

حلال غصب عنك !

وأما عن تعصبه لرأيه وتجهمه لمخالفه فحدث ولا حرج ، ناقشه أحد طلاب العلم فى فتياه المتطرفة باباحة الغناء فتهجم له ، وقال : « حلال غصب عنك » •

واذا كان لين الجانب مطالبا به كافة المسلمين ، فهو بالعالم أولى ، وهذا نقلنا من النووى فى مقدمة المجموع وابن حمدان فى صفة المفتى والقاسمى فى الفتوى فى الاسلام ، قال :

« اذا كان المستفتى بعيد الفهم فليرفق به ، ويصبر عـــلى تفهـــم سؤاله ، وتفهيم جوابه » •

وغضب المفتى يوقعه فى الزلل ، فحينما ذكر له حديث : « ليكونن من أمتى قوم يستحلون الحر والحرير ... » الخ الحديث . صاح قائلا : « هذا ليس بحديث » !

وهذا كلام لا يقوله عالم أبدا حتى فى حالة ضعف الحديث ـ كما بينه الأئمة ، وانظر ان شئت « غنية الألمعى » لشمس الحق العظيم آبادى أو أى مصنف متخصص فى مصطلحات العلماء المحدثين . والحديث صحيح فى البخارى ـ غير منقطع ولا معلول ، رواه الامام البخارى عن شيخه هشام بن عمار فى صلب صحيحه ، وزعم ابن حزم أنه منقطع فوهم وأفحش ، ورد عليه أهل العلم كافة من بعده منهم : الآجرى ، وابن الصلاح ، والنووى ، وابن القيم ، وابن تيمية ، وابن عبد البر ، وأحسن فى ذلك شيخ الاسلام الحافظ ابن حجر العسقلانى . وراجع ان شئت « تغليق التعليق » له . أو « الروضة الغناء » لنا .

ثم نقول : ليت هذا الغضب لله !

واذا أمتك مذمتى :

وأما الرابعة : فهو لم يكتف بتساهله فى الفتوى ، ومسخه لعلوم السلف ، بل تعدى ذلك الى النيل من أهل العلم المشهورين كالشيخ عبد العزيز بن باز رئيس الافتاء بالعربية السعودية ، المشهور بالعلم والفضل ، فقد ذكر أمامه فقال : « لا ابن باز ولا ابن غراب » ، وهذا جريا على منهج الذين يقعون فى أعراض العلماء .

هؤلاء الذين ضيعوا الحق ، لم يكفهم أنهم حرضوا على رذيلة الاختلاط بكل الوسائل ، وحالوا بفتاويهم بين الطالبات المسلمات ولبس رداء الاسلام ، وتابعوا المضلين وأهل الأهواء على ضلالتهم وهواهم ، وجعلوا من أنفسهم أبواقا لما يريدون ، واذا خالفهم أهل العلم سبوهم وسخروا منهم .

والحمد لله وصلى الله على محمد وآله وسلم .

محمد بن عبد الحكيم القاضى

بعض المراجع :

* صفة الفتوى لابن الصلاح (ونظائره) ـ * الفقيه والمتفقه للبغدادى * بداية المجتهد ونهاية المقتصد لابن رشد * عمدة التحقيق لمحمد سعيد ألبانى * تلبيس ابليس لابن الجوزى ـ * المغنى لابن قدامة

الثقة : ضوابطها ونواقضها عند علماء الحديث

بقلم : محمد عبد الحكيم القاضي

(١) الضوابط

نحمد الله تعالى الى علمائنا ، اذ وفقهم لحماية السنة الشريفة والذب عنها وتنقيتها وتوثيقها • وعلى مدى القرون المتطاولة التى عاشتها سنة نبينا ﷺ قيض الله للأمة من يحقق الصحيح الثابت من الحديث ويوثق رجاله ، وينفى خبثه ، ويطرح غثه •

وقد اتجهت جهود العلماء رضوان الله عليهم الى قضية « الثقة فى الرواة » فوضعوا لها الضوابط ، وناقشوا صفات الراوى التى تؤهله للثقة ، وتقدمه فى ميدان الرواية ، ولم يفتهم أن يحددوا نواقض الثقة ، حتى صارت الينا نظرية متكاملة فى توثيق الرواة ، لا تكاد تظفر بمثلها عند غيرهم •

مفهوم الثقة :

تحتل الثقة الدرجة الرفيعة فى تقويم العلماء للحديث ، فيقول ابن الصلاح « معرفة الثقات والضعفاء من رواة الحديث ، من أجل نوع وأفخمه ، فانه المرقاة الى معرفة صحة الحديث وسقمه » فقد حدد العلماء المحدثون مفهوم الثقة ، بأوجز عبارة وهى « العدالة والضبط » وقد قال الشافعى « ولا تقوم الحجة بخبر الخاصة حتى يجمع أمورا ، منها أن يكون من حدث به ثقة فى دينه ، معروفا بالصدق فى حديثه عاقلا لما يحدث به » • والحديث الصحيح فى تعريف المحدثين ، هو الذى يتصل سنده بنقل العدل الضابط الى منتهاه ، ولا يكون شاذا ولا معللا » •

١ ـ العـــدالة :

والعدالة : هى حسن الاسلام عامة ، وقد عبر عنها علمـاء الحديث بعبارات متقاربة فى المعنى ، لعل من أوضـحها عبارة ابن حجـر بأنهـا « ملكة تحمله على ملازمة التقوى والمروءة » ، واذا كان المحدثون يقررون ضوابط محددة للعدالة مثل «السلامة من أسباب الفسق وخوارم المروءة»، فان هذا يدلنا على مدى حرصهم على تحديد كل مصطلح ، وبيان المـراد بكل تعبير ، ويدلنا على أن الفاسق المجاهر ، والغاش المخادع ، والدنىء الخلق الوضيع المروءة كل أولئك لا ميزان لهم فى ميدان الثقـة ، ويدلنا أيضا على ان حديث النبى ﷺ قد وجد من يدافع عنه .

وتثبت عدالة الراوى بطريق من اثنين :

اما الشهرة والذيوع ، أو التزكية والتعديل .

فقد اشتهر فى تاريخ المسلمين خلق من أكـرم من حملت الأرض صدقا ودينا وفضلا حتى أصبحوا فى غير حاجة الى من يوثقهم ، نذكـر منهم الامام محمد بن ادريس الشافعى ، فقد قال عنه أحمـد بن حنبـل رضى الله عنهما : « كان الشافعى كالشمس للدنيا ، وكالعافية للناس » ، فمثل هذا الرجل لا يحتاج ـ فى شهرته ـ الى رجل يوثقه ، وانمـا هو الذى يوثق الناس . وكذلك الامام أحمد بن حنبل ، ما من رجل يعقـل الا وعرف من هو ، حتى قال قتيبة « أحمد بن حنبل امام الدنيـا » وقال الشافعى « رأيت ببغداد رجلا اذا قال « حدثنا » قـال الناس كلهـم : صدق . قلت من هو ؟ قال : « احمد بن حنبل » فهذا الرجل اذا قـال : « حدثنا » ، قال كل الناس : « صدق » هل يحتاج الى من يوثقه ويعرفنا بـــه ؟

غير أن هناك رجالا لم تشتهر عدالتهم ، فاحتاجوا الى تزكية العلماء المعروفين المأمونين ، كأن يقول يحيى بن معين أو أحمد بن حنبل عن رجل انه ثقة أو صدق ، فهذه تزكية منهما له .

٢ ـ الضـــبط :

وهو دقة الرجل فى حفظ ما سمع أو عقل منذ وقت التحمل (الأخذ)

حتى وقت الأداء (التحديث به) • وقد قسموا الضبط الى نوعين :

(أ) ضبط صدر : وهو أن يثبت ما سمعه فى صدره •

(ب) وضبط كتاب : وهو أن يستعين بكتابة ما سمعه •

والأول مقدم على الثانى ، وهو الذى دعا النبى ﷺ بنضارة الوجه لصاحبه ، قال : « نضر الله امرأ سمع مقالتى فوعاها ثم أداها كما سمعها ، فرب حامل فقه ليس بفقيه ورب حامل فقه الى من هو أفقه منه »

وأما الثانى فقد رده أبو حنيفة ومالك • ولعل أهم أسباب المنع من قبول ضبط الكتاب هو خشية التصحيف الذى منى به كثير من العلماء ، حتى كان أئمة الحديث يقولون : « لا تأخذوا العلم عن الصحفيين » وقد كثرت تصحيفات المحدثين وأوهامهم حتى ألف فيها أبو سعيد العسكرى كتابا هو : « تصحيفات المحدثين » • ولذلك اشترط الجمهور لقبول (ضبط الكتاب) شروطا هى :

١ ــ صيانة الكتاب والمحافظة عليه •

٢ ــ عدم اعارته لغير من يوثق به لضمان سلامته من التحريف •

٣ ــ أن يبقى معه الكتاب ، فلو ضاع الكتاب أو حرق لم تقبل روايته بعد ذلك • ومن هؤلاء الدين ردت روايتهم بهذا السبب ابن لهيعة المصرى : فقد كان يحدث من كتب فاحترقت كتبه فردوا حديثه بعد احتراق كتبه •

ويظن بعض المتأخرين ان اعارة الكتاب فى هذا الزمان لا قيد عليها « لأن الكتب انضبطت تماما » وهذا خطأ ، فالكتب المخطوطة بالذات ما يزال يشملها قيد هؤلاء العظماء من علماء الحديث ، وقد لاحظنا على بعض المترددين على دار الكتب ــ خصوصا الأجانب المستشرقين ــ محاولات للتحريف فى النسخ التى يقرأونها ، ومن اجل ذلك نهيب بالمسئولين فى دار الكتب أن يراجعوا ما اشترط علماء الحديث ، وأن يعيدوا النظر فى هذه النظرة المشرقة المتفائلة للمستشرقين ، فلا يعيروهم الا صورا من المخطوطة ، فاذا عبثوا فيها لم يكن وبالهم علينا •

ويضيف بعض الباحثين نوعا ثالثا من الضبط يسميه « ضبط المعنى » ويعنى به العلم بمدلولات الألفاظ ومقاصدها والخبرة بمقادير التفاوت بينها فى حالة رواية الحديث بالمعنى وهو مبحث فى النفس منه شىء ، ولكنا لا نقوى على استيفائه فى هذا المقال ، وانما نتحدث عن كيفية معرفة الضبط .

كيف يعرف الضبط ؟

شأنه شأن العدالة يثبت بأحد طريقين :

١ ـ الشهرة والذيوع .

٢ ـ موافقة الاثبات .

فلقد شهد الزمان لقوم من سلفنا الصالح ـ حملة الحديث ـ بالسبق فى مجال الضبط والاتقان ، فقد كان وكيع من أشد الناس حفظا ، ويروى أن الشافعى ـ وهو من هو فى الحفظ ـ شكا اليه سوء حفظه ، قال ابن سعيد « كان وكيع ثقة مأمونا عالما رفيعا كثير الحديث حجة » . وعبد الله بن المبارك ـ الذى ينير اسمه الكتب ـ « كان ثقة مأمونا اماما حجة كثير الحديث » وقد اجتمع طائفة من أصحابه ليعدوا خصاله ، فقالوا : « جمع العلم والفقه والأدب والنحو واللغة والزهد والشجاعة والشعر والفصاحة ، وقيام الليل والعبادة والحج والغزو والفروسية وترك الكلام فيما لا يعنيه ، والانصراف ، وقلة الخلاف على أصحابه » . أخبرونى بربكم من يكون مثل ذلك الرجل ! .

وأما الزهرى ، فلعله فاتحة الحفاظ المتقنين ، حدث عن الصحابه ، وحفظ القرآن فى ثمانين ليلة ، وقال هو نفسه « ما استعدت حديثا قط ، وما شككت فى حديث الا حديثا واحدا ، فسألت صاحبى فاذا هو كما حفظت » ! ومن أجل ذلك نصدق مكحولا ونطمئن الى تعبيره حين سئل : ومن أعلم من لقيت ؟

قال : ابن شهاب . قيل : ثم من ؟ قال : ابن شهاب .

فمثل هؤلاء هم موازين الضبط والتثبت ، اليهم ينسب ضبط الرجال ، من ثمة كان الميزان الثانى لمعرفة الضابط هو «موافقته للاثبات»

أمثال الزهرى وابن المبارك والثورى وغيرهم • ومن ثمة ضعف الراوى اذا خالف الاثبات ــ على نحو ما سنرى فيما بعد ان شاء الله •

ملاحظات على العدالة والضبط :

١ ــ لا يصح الاستغناء عن واحد منهما فى تقويم الراوى ، وان كانت العدالة مقدمة على الضبط ، لأن بعض الضبط ينجبر ضعفه بكثرة الرواة ، وهو ما يسمونه « اجتماع طرق الحديث يقوى بعضه بعضا » أما زوال العدالة فلا ينجبر • فماذا نصنع بخبر أخبر به عشرة من الكذابين ؟

٢ ــ التوثيق درجات متفاوتة ، وقد استخدم المحدثون تعبيرات دقيقة لهذا الأمر • فهناك من يقال عنه « ثقة ثبت » أو « ثقة ثقة » أو « ثقة متقن » وهو الضابط الجيد الضبط كقول ابن مهدى فى رجل :

« ثقة ثقة مأمون حجة صاحب حديث » فهذه مرتبة عليا فى التوثيق ومثل هذا الرجل يطمأن الى الأخذ عنه • وفى هذه المرتبة من يقال عنه : أوثق الناس « اليه المنتهى فى التثبت » • ثم درجة من التوثيق أقل من هذه ، وهو قولهم عن الرجل « ثقة » او «حجة» أو «عدل ضابط» وهؤلاء حديثهم صحيح • ثم مرتبة أدنى حين يقال فى الرجل انه « مأمون » أو « خيار » ومن ذلك قول أبى داود حين سئل عن سليمان بن بنت شرحبيل قال : « ثقة يخطىء كما يخطىء الناس » وهؤلاء حديثهم مقبول أيضا الا اذا خالفت روايتهم رواية من هو أثبت منهم • ثم تأتى درجة من الثقات متواضعة عن هذه الدرجات ، وغالبا ما تدل على صدق الموصوف بها دون ضبطه ، كقولهم «صدوق» أو «محله الصدق» ، « ليس به بأس » ، « صالح » ، « صويلح » ثم « صدوق يخطىء » ، « صدوق يهم » ، وهذه أدنى درجات التوثيق • وقد عد حديث هذه المرتبة من « الحديث الحسن » •

وأكثر ما نشعر به هنا هو اجلال علماء الحديث الذين وفقهم الله لهذه النظرات الثاقبة المميزة البصيرة ــ جزاهم الله عنا خيرا •

٣ ــ لا تثبت عدالة الرجل الا بالشهرة أو التزكية كما ذكرنا آنفا ــ أما رواية الثقة عن أحد الشيوخ فلا دليل فيها على أن هذا الشيخ عدل ــ سواء كان هذا الشيخ (المروى عنه ! مجروحا أو مجهولا ، فأما اذا كان مجروحا ، فهو أمر ظاهر ، فكم من رجل ثقة صاحب سنة روى عن ضعفاء ولكن ذلك لم يقو أمرهم شيئا ، ومن ذلك رواية الثورى (الثقة الحجة الامام) عن ابن السائب الكلبى ، وهو ضعيف ، فلم ينفعه ذلك شيئا ، وأما اذا كان هذا الشيخ مجهولا فسنناقش ذلك فى حديثنا عن المجهول ان شاء الله .

يتبع ان شاء الله

محمد عبد الحكيم القاضى

الثقة: ضوابطها ونواقضها
عند علماء الحديث
بقلم: محمد عبد الحكيم القاضي

(٢) نواقض الثقة

هذه ضوابط الثقة ـ مرت بنا ـ تعطينا دلالة كافية على دقة أهل الحديث واخلاصهم فى وضع قواعد الثقة حفاظا على سنة رسول الله ﷺ وفيما يلى نلخص نواقض هذه الثقة ومن أولئك الذين طرح أهل الحديث ثقتهم منهم وما موقعهم من الاحتجاج بهم أو قبول روايتهم ؟

يقول الامام أحمد بن حنبل : ـ

« يكتب الحديث عن الناس كلهم الا ثلاثة : صاحب هوى يدعو اليه ، أو كذاب ، أو رجل يغلط فى الحديث فيرد عليه فلا يقبل » .

وهذا النص من الامام أحمد ـ رحمه الله ـ يرشد الى رد رواية ثلاثة اصناف من الرواه هم ـ

١ ـ صاحب البدعة اذا كان داعيا اليها .

٢ ـ المشتهر بالكذب .

٣ ـ غير الضابط اذا أصر على غلطه ولم يرجع .

وسنفصل ـ ان شاء الله ـ القول فى هؤلاء بدافع الاطلاع على كلام طائفة من علماء الحديث فى الأصناف التى ردوا حديثها ونستطيع أن نلخص القول فى المردودة روايتهم ونقسمهم الى الأنواع التالية : ـ

(أ) الفاسق :

وهو الذى يظهر منه الفسق ويجاهر به ، وقد كان ابن كثير رحمه

الله يتوسع فى رد أهل الفسق متابعا فى ذلك ابن الصلاح • وكان شعبة ابن الحجاج رحمه الله من المتشددين فى الجرح ، وفى رد رواية أهل المعاصى حتى لقد أفرد الامام الحافظ ابن أبى حاتم السجستانى جزءا خالصا فى كتابه (الجرح والتعديل) له ولرأيه فى الرجال ، ويبدو لى من مطالعة آرائه أنه ربما رد رواية الرجل لأنه رآه على المعصية ولو مرة فى حياته ، فقد رد رواية رجل لأنه رآه يطفف وهو الذى سئل فى المنام : أم الأعمال وجدت أشد عليك ؟ قال : التجوز فى الرجال ! يعنى (التساهل فى قبول روايتهم) ولكن ربما بدا لنا أيضا أن هذا المنهج لم يرق لكثير من أهل هذه الصناعة ، لأن الرجل يخطىء ويصيب • (ومن منا لم يظلم نفسه) وانما ردوا نوعين من أهل المعاصى :

١ ــ من كثر فسقه وفشا •

٢ ــ الكذاب •

قال الخطيب : (لما كان كل مكلف من البشر لا يكاد يسلم من أن يشوب طاعته بمعصية لم يكن سبيل ألا يقبل الا طائع محض الطاعة ، لأن ذلك يوجب ألا يقبل أحد ، وهكذا لا سبيل الى قبول كل عاص لأنه يوجب ألا يرد أحد) •

وأكثر المحدثين عن قبول رواية التائب من فسقه ، الا الكذب على رسول الله ﷺ ، فقد ردوا حديثه حتى لو تاب من ذلك • قال ابن كثير : التائب من الكذب فى حديث الناس تقبل روايته ، خلافا لأبى بكر الصيرفى • ويوهم كلام ابن كثير أن أبا بكر الصيرفى قد رد حديث التائب من الكذب فى كلام الناس ، وهكذا فهم ابن الصلاح قبله ، غير أن الشيخ العراقى تفطن الى أن الصيرفى لم يقصد ذلك ، وانما قصد الكاذب على النبى ﷺ خاصة ، فعبارة الصيرفى هى : (كل من أسقطنا خبره من أهل النقل بكذب وجدناه عليه لم نعد لقبوله بتوبة تظهر) فقوله (من أهل النقل) يدل على أن الكاذب من المحدثين ، وأن الكذب هو الكذب على النبى خاصة • وقد أطبق العلماء على رد حديث الكاذب على النبى ﷺ وقالوا : (لا تقبل روايته أبدا) • وقال السمعانى : (من كذب فى خبر

واحد وجب اسقاط ما تقدم من حديثه) الا أن النووى خالف واختار قبول روايته وشهادته) .

والراجح قول جمهور العلماء فى ذلك ، فان الكذب على النبى ﷺ ليس كالكذب على غيره ، كما قال ﷺ (ان كذبا على ليس كالكذب على أحد) ، ومن العلماء من كفر متعمد الكذب على النبى ﷺ ، وهو بها أولى .

(ب) المعيب فى حفظه عيبا شديدا :

فالصدوق الذى عنده أوهام أو فى حفظه شىء من الخطأ هذا مقبول الرواية – كما قلنا فى حديثنا عن (درجات التوفيق) خصوصا فى المتابعات أما الذى يتعدى أمره مجرد وجود بعض الأوهام الى عيب قادح فى حفظه فهو مردود الرواية فى حالة انفراده بالحديث ومن هذه العيوب التى تقدح فى الحفظ :

١ – سوء الحفظ وكثرة الأوهام :

هو قدح فى حفظ الرجل لا فى صدقه فقد يشغل المرء شواغل عن تجويد الحفظ فيكون صالحا فى دينه ولكن مردود الحديث لسوء حفظه وقد رد العلماء رواية قوم كثيرين من صالحى الأمة لسوء حفظهم مثل أبى حنيفة : فقد اتفقوا على صلاحه وورعه فيما نعلم حتى وثقه ابن معين ولكن ضعفه العلماء لأنه (سىء الحفظ) وقد قال النسائى (ليس بالقوى فى الحديث) وكذلك قولهم فى شهر بن حوشب : (صدوق كثير الارسال والأوهام) .

٢ – مخالفة الأثبات :

والراوى الحافظ مقبول الحديث الا أنه حين يخالف من هو أثبت منه فى حديث بعينه أو أحاديث بعينها ترد هذه الأحاديث وأما اذا كثر منه ذلك عد سبة فى حفظه وقد تفطن علماء الحديث الى هذه العلة الدقيقة فى بعض الرواة مثل محمد بن ثابت العبيدى ويحيى بن عثمان ويزيد

ابن عبد الملك العدوى . وعبارة تضعيف هؤلاء أن يقول أهل الحديث فى أحدهم « لا يتابع على حديثه » ، « عنده مناكير » ، « يكثر من مخالفة الأثبات » ، وغير ذلك .

٣ ـ الاختلاط :

وهو آفة تصيب الراوى فتقلب موازين ضبطه ويكون ذلك بأحد سببين : كبر السن أو ضياع الكتب التى كان يحدث منها .

فالحافظ يكبر سنه أحيانا فيذهب غير قليل من عقله ، فيضطرب ضبطه ، ويختلط حفظه . وممن اختلط فى آخر عمره عطاء بن السائب التابعى ، قال ابن الصلاح : « عطاء بن السائب اختلط فى آخر عمره ، فاحتج أهل العلم برواية الأكابر عنه مثل سفيان وشعبة ، لأن سماعهم منه كان فى الصحة ، وتركوا الاحتجاج بمن سمع منه آخرا » والحق أن سفيان وشعبة من الأكابر فقط هما من سمع منه قبل الاختلاط ثم انظر الى هذه الدقة المتناهية فى التفريق بين من سمع قبل الاختلاط وبعده .

والى جانب كبر السن هناك سبب آخر للاختلاط هو ضياع الكتب بالنسبة لمن كان يحدث منها ، ومن هؤلاء ابن لهيعة المصرى كان يحدث من كتب فاحترقت فصار يحدث من حفظه فلا عبرة بحديث من سمع منه بعد ضياع كتبه .

جـ ـ المبتدع (صاحب البدعة)

والبدعة فى تعريف ابن حجر « هى اعتقاد ما أحدث على خلاف المعروف من النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ لا بمعاندة بل بنوع شبهة »

وقد نقل النووى اتفاقهم على رد رواية صاحب البدعة المكفرة ولكن يبدو أن النووى رحمه الله كعادته لم يكن دقيقا فى نقل الاجماع . كعادته فقد خالف الجمهور علماء كابن دقيق العيد ـ الذى لا يعرف شيئا اسمه بدعة مكفرة فيقول « انه لا نعتبر المذاهب فى الرواية ، اذ لا نكفر أحدا من أهل القبلة الا بانكار قطعى من الشريعة .... وهذا مذهب الشافعى حيث يقبل شهادة أهل الأهواء » ويصرح ابن حجر رحمه

الله بقوله « والتحقيق أنه لا يرد كل مكفر ببدعته ، لأن كل طائفة تدعى أن مخالفيها مبتدعة ، وقد تبالغ فتكفر مخالفيها » ثم يقول « والمعتمد أن الذى ترد روايته من أنكر أمرا متواترا من الشرع معلوما من الدين بالضرورة » وكلام ابن حجر هذا جيد فى موضعه ، فلا فرق بين ما يسمى البدعة أو غيره ، ولا فرق بين الداعى لبدعة وغير الداعى لها ، مادام مسلما صدوقا لم يتهم بكذب ولا استباح الكذب ، ومن ثمة رأينا كتب الصحاح لا تتحرج أن تروى عن مبتدعين بدعا مكفرة على مذهب النووى — ودعاة اليها فالبخارى يروى عن عمران بن حطان داعية من الخوارج له شعر فى مدح قاتل على رضى الله عنه ، ونرى الحافظ الذهبى يقول فى ترجمة (ابان بن تغلب) وكانوا ردوا روايته لتشيعه ، قال « شيعى جلد ، لكنه صدوق ، فلنا صدقه ، وعليه بدعته » وقد احتج مسلم بأبان بن تغلب ، وقد أورد صاحب « المراجعات » أسماء مائة رجل من الشيعة احتج بهم أصحاب الكتب الستة ، على أن من أهل البدع من ربما استجاز الكذب على غيره واستحله ، فان كان فيهم هذا فلا نعلم خلافا يصح فى ترك حديثه ، لأن مدار الرواية على الصدق والكذب ، لا فرق بين الداعية فى ذلك وبين غيره :

د — المدلس ::

والتدليس فى اللغة : اخفاء البائع عيب السلعة من المشترى ، وهو من الدلسة : الخديعة ، ولعله من الدلس — بالتحريك — وهو اختلاط الظلام ، وهو فى الحديث الغش فى الاسناد لاخفاء عيبه .

والتدليس أنواع متعددة ربما جمعها ثلاثة أنواع كبيرة ذكر ابن الصلاح اثنين منها وهى : —

١ — تدليس الاسناد :

وهو أن يروى الراوى عمن سمع منه بعض ما لم يسمع منه ، أو عمن عاصره ولم يلقه أو يسمع منه حديثا يلفظ يوهم أنه سمع منه هذا الحديث ، كأن يقول (عن فلان) أو (قال فلان) ونحو ذلك ، فهى ألفاظ ليست صريحة فى أنه حدثه أو سمع منه ، وانما توهم ذلك ايهاما ، ومن

ذلك ما يروى عن سفيان بن عيينة أنه قال فى مجلس : (قال الزهـرى) فقيل له : أسمعت منه هذا ؟ قال : حدثنى به عبد الرزاق عن معمـر عنه » وقد اتهم بتدليس الاسناد قوم عفى عن بعضهم لامامته وعدم قصـده التمويه كابن عيينة والزهرى وسعيد بن أبى عروبة ، وكانوا يقـولون : هؤلاء تدليسهم لا خطر فيه .

٢ ـ تدليس الشـيوخ :

وهو أن يأتى الراوى باسم الشيخ أو كنيته على خلاف ما اشتهر به « تعمية لأمره ، وتوعيرا للوقوف على حاله » ، وقد اشتهر به رجال منهم ابن مجاهد صاحب السبعة فى القراءات ، فيروى عن أبى بكر محمـد بن حسن النقاش المفسر ـ وكان ضعيفا فيقول (حدثنا محمد بن سـند) نسبة الى جد له .

وأما الثالث : وهو شر أنواع التدليس وآفتها فهو تدليس التسوية وهو أن يسمع الحديث من شيخ ضعيف أو متهم فيسـقطه من الاسـناد فيصير الحديث عن ثقة ، فيحكم له بالصحة . وهو تغرير وغـش فى الدين ولكن هيهات فقد فضح أهل الحديث أقطاب هذا اللون الدنىء من التدليس وشهروا بهم ، ومنهم (الوليد بن مسلم) و (أبو الزبـير محمـد بـن تدرس) . وقد ذم العلماء هذا التدليس وبينوا جريمة مرتكبه ، فقـال الشافعى « التدليس أخو الكذب » وقال شعبة « لأن أزنى أحب الى من أن أدلس » وقد فرق أكثر العلماء بين رواية المدلـس التى يصرح فيهـا بالسـماع وروايته التى يعنعنها فيرهـم السـماع ، فقـالوا : اذا قال المدلس (حدثنا) قبلنا حديثه ، وان قال « عن فلان » أو « قال فلان » رددناه ، وأكثر ما يمكن قوله تعليقا على ذلك هو أن تدليـس التسـوية لا نستطيع قبول أقطابه حتى اذا صرحوا بالتحديث ، لأنه غش ، والغش فسق وخارم للمروءة .

هـ ـ المجهـول :

ولكن من رواة الحديث رجالا لم يشتهروا بتوثـيق ولا تجريـح ،

فهناك من لم يعرف سوى اسمهم بل هناك من لم يعرف حتى اسمه وهؤلاء هم المجاهيل ، والواحد مجهول . والمجهول نوعان : مجهول عين ، ومجهول حال .

الأول من لم نعرف من هو ؟ أو لم نعرف شيئا عنه يعرفنا من هو بالتحديد .

والثانى : من عرفنا اسمه وبعض أخباره ، لكن لم ينقل من أهل الحديث عنه جرح أو تعديل فهو مجهول (الحال) .

وعلماء الحديث على أن حديث المجهول لا يعتد به ، ما دمنا لا نعرف حال رواية من الثقة . وهذا هو الصواب ان شاء الله تعالى — وخالف ابن عبد البر وابن حبان فوثقا المجهول حتى يثبت جرحه معتمدين فى ذلك على حديث (يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله) . وهذا عندهما توثيق من النبى ﷺ لحملة الحديث ورواته بعلمة . ولكن علماء الحديث يضعفون هذا الحديث لأن فى اسناده معان بن رفاعة وقد تركوه ، ثم ابراهيم بن عبد الرحمن وهو مجهول ثم انه ليس صحابيا ، فوجب أن يكون الحديث منقطعا فالحديث ثلاث علل : ١ - ضعف معان ٢ — جهالة ابراهيم ٣ — الانقطاع .

ومن أجل ذلك تواتر المنع من قبول رواية المجهول وقد استثنى ابن كثير « اذا كان فى عصر التابعين والقرون المشهود لهم بالخير ، فانه يستأنس بروايته » وانما الذى نختاره أقسط وأقصد هو رد الرواية عن المجهول بعامة لأن المعرفة هى أساس الثقة ، تمشيا مع الضوابط العظيمة التى ألهم الله علماء الحديث تلك التى ألمحنا اليها والتى توحى بمدى تسديد الله لعلماء هذه الأمة وحفظه لدينه ، ولله الحمد من قبل ومن بعد .

اللهم اغفر زللنا وسوء قولنا وغفلة قلبنا ونفع بهذا العلم المخلصين من عبادك .

محمد عبد الحكيم القاضى

مصر — المنيا — مدرسة المنيا الثانوية للبنات

الاحتساب على هؤلاء الكتاب

محمد عبد الحكيم القاضي

الحمد لله واهب الفضل، وصاحب الأمر وصلى الله على سيدنا محمد مخرس ألسنة اللجاج، وعلى آله العلماء العاملين.

وبعد:

فقد كنا التقينا على صفحات مجلة التوحيد فى مقالات عن بعض قضايا الفتوى فى أيامنا هذه، ورجونا أن ييسر الله تعالى من فضله موعدا نلتقى فيه على قضية "الاحتساب على المفتين".

وبينما أعد جملة من المسائل التى أنكرتها على بعض علماء هذا الزمان، والتى ينكرها كل فقيه ذى علم، أو رشيد ذى لب - مريدا تضمينها مقالة بعنوان: "الإنكار على علماء الأمصار".

أقول: بينما أعد ذلك الأمر ثارت الضجة حول البلية التى ابتلينا بها - والتى عرفت باسم "جائزة نوبل"، وحصول نجيب محفوظ - القصاص المصرى عليها.

وبدأ المصفقون وأصحاب المكاء والتصدية يزفون البشرى للشعب المصرى والأدباء والنقاد - الخ بهذا "الحدث العالمى الضخم" - بدلا من طلب الاحتساب عليه لجرأته على دين الله، ومشاركته فى شيوع الفحشاء والمنكر.. فكان هذا الأمر حافزا لى أن ألم بهذه الزاوية الماما غير متوغل، وأرجو ألا يكون مقصرا.

وظيفة الحسبة :

مهمة الحسبة : هى مهمة شرعية ومهنة رسمية اسلامية عرفتها الدولة، وهى فى جوهرها تمثل الجانب التطبيقى للأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فى أسمى صوره، لأن القائمين بها هم أهل الولايات من المسلمين، الممكنين بالسلطان، وذلك "أن أصل الولايات فى الإسلام مقصودها أن يكون الدين كله لله، وأن تكون كلمة الله هى العليا" (الحسبة - لابن تيمية (عزام) ص ٧).

وفى كتاب "ابن الاخوة" الموسوم "معالم القربة فى أحكام الحسبة" تجد أنه ليس هناك مهنة من المهن الاجتماعية والاقتصادية والأدبية الا وتدخل فى نطاق الحسبة الإسلامية، تحق ما فيها من حق وتزهق ما فيها من باطل: "فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض".

الأدب ومسئولية الكلمة :

والواقع أن مهنة الأدب - أو قل مهنة الكتابة عامة - هى من أخطر المهن فى المجتمع اليوم - خصوصا بعد أن خرج المكتوب إلى العام والخاص، وأضحى يخاطب الأمى والجاهل والطفل والمرأة... من خلال المذياع والتلفاز ووسائل النقل المرئى المتطور، والكلمة فى حقيقتها سلاح خطير إن لم يوجد التوجيه الصالح أفسد وأهلك الحرث والنسل. والله لا يحب الفساد. من ثم فان القنبلة التى انفجرت بفوز نجيب محفوظ بجائزة نوبل اليهودى أضاءت نيرانها جملة من الحقائق ربما من أهمها أن نجيب محفوظ ليس وحده الرجل الذى اجترأ على محارم الله، وسخر من شرائع الإسلام بالتلميح أو التصريح، وإنما هو الذى رشح للأضواء من أجل فتح الباب على مصراعيه لمزيد من الافساد فى الأرض تحت شعار "الأدب" و"الفن" وهذه الأسماء التى سموها هم وآباؤهم ثم جاءوا بها يجادلون!

ليس نجيب محفوظ وحده :

والحق الواضح أن غير نجيب محفوظ - على الساحة العربية والمصرية خاصة - كان أجرأ على الله منه، وأشد انتهاكا لحرمات الإسلام وتعديا على حدوده.

والا فأين نضع المدعو زكى نجيب محمود - صاحب - أو قل النصير الوحيد فى مصر للوضعية المنطقية - التى لا تؤمن الا بالحس، ولا تعرف الا الجماد المتطور أو المسموع - صاحب الصولات فى حرب الشريعة الإسلامية وإعلان الكفر بالغيب صراحة ولمزا. وسننقل لك جملة واحدة من كلامه فى السخرية بالحجاب، نشرتها جريدة "الأهالى!!" فى ١٩٨٦/٦/٢٥ يقول:

"ان ظاهرة الحجاب دليل على أننا نمر بمرحلة مزرية من التخلف"!

ومع ذلك فليست الأهالى وحدها هى التى تنشر له سخافاته ووثنياته، فالأهرام تفسح صدرها لهجومه الشرس على شريعة الله واتهام حماتها بما توحى له شياطين الضلالة من تهم.

ويتساءل الغيور: من الذى يحتسب على هذه الأفكار الفاسدة فى بلد ينتسب الى الإسلام شعبا وحكومة؟

وقريب من هذا الإفساد الذى يترك بلا أحتساب إفساد آخر تراه فى مكتوبات تسمى "أدونيس" واسمه الحقيقى على أحمد سعيد، تجد أمثلة من هذا الإفساد فى شعره الذى يعمد فيه إلى نقل المفاهيم المسيحية والباطنية. ثم يظهر هذا الفكر الغث صارخا فى رسالته التى أعدها للدكتوراة وجعل عنوانها: "الثابت والمتحول فى الشعر العربى" وبحسبك أن تعرف أن الرسالة نالت درجة دكتوراة الشرف الأولى - وأن الذين منحوها هذه الدرجة هم: -

الأب بولس نويا - المشرف على الرسالة.

د . سعيد البستانى.

د . أنطوان غطاس كرم.

وقد أحسن الأستاذ أنور الجندى فى كشف هذه الدراسة فى بحثه عن أدونيس (كتاب الشعوبية فى الأدب العربى ص ١٨٦ فما بعدها) فليراجع هناك.

الا أن الذى نحرص على تسجيله هنا هو أن المطابع - وأصحابها مسلمون - أو منسوبون إلى الإسلام - تطبع كتب زكى نجيب وأدونيس وسعيد عقل وغيرهم من أصحاب الأقلام الحاقدة المسمومة.. فهل هو ابتغاء الكسب المادى الرخيص وبيع الآخرة بالدنيا؟ أم هو غياب الأداة الحقيقية للأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وهى السلطان المسلم وولاته المخلصون: "الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة، وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر"؟.

والصليبيون أيضا :

واذا كان السابقون الذين أشرنا اليهم جماعة من أدعياء الإسلام والمنتسبين اليه، فها نحن نقرأ لأدباء ونقاد كتابيين

صليبيين على أرض الإسلام وفى دياره وعلى صفحات الجرائد الناطقة بأسماء بلاده، أو فى كتبهم المطبوعة فى مطابع أهله.. نقرأ لهم فنفزع لا لجرأتهم على دين الله فهو أمر مفترض فيهم، ولكن لأمرين:

أولهما : مجاهرتهم بهذا فى جموع المسلمين وتبجحهم به بين ظهرانيهم.

والثانى : سكوت سلطات الأمر والنهى عنهم، واغضاؤها عن بذاءاتهم كأن الأمر لا يعنيها، بل إن الأمر فعلا لا يعنيها، بل ولا يخطر لها على بال.

ومن أبرز أمثلة هذا الاتجاه النصرانيان الجريئان: لويس عوض، وغالى شكرى: فأما لويس عوض فلم نعهده الا حربا على الإسلام، وتبشيرا بالنصرانية فى قلب مصر، ونصرا لكل أوروبى مهما كان مخالفا لقيم الاسلام فى مصر - بل مخالفا لقيم الإنسانية فيها.. عهدناه مدافعا عن الحملة الفرنسية الصليبية، معليا من شأنها معتبرا إياها (يسوع) الذى يخلص المصريين من خطيئة آبائهم - حكم الدولة العثمانية! ومن أجل ذلك يكتب الأشعار فى تمجيد عملاء الحملة الفرنسية الذين خانوا الله ورسوله، وخانوا أمانة بلادهم!

ومواقفه التنصيرية ما تزال تطالعنا بها الصحف - بلا حياء والمطالع لكتاب الأستاذ العلامة محمود محمد شاكر الموسوم بـ "أباطيل وأسمار" يرى بعض النكت السوداء فى وجه النصرانى الضال. ثم يرى أن ما يصنعه المسلمون اليوم تجاهه لا يتعدى مجرد "الرد النظرى"، "والمحاولة بالحسنى".. وأما الاحتساب، وكف الأذى فما تزال الخطوات نحوه تتراجع إلى الوراء..

وأما "غالى شكرى" فهو أبشع جرما وأقل حياء من "لويس عوض"، وهو الذى يدعو صراحة إلى تدمير كل القيم الاسلامية - لأنها قيم رجعية، والى تمزيق المصحف لأنه "يصور المجتمع العبودى المشاعى الأول" - الذى يقوم على تعدد الزوج والحط بمكانة المرأة، ولأن العمل به أشبه "بعملية انتحارية الهدف منها أن نزج بقوام مجتمعنا الكبير داخل صناديق حديدية

صغيرة".

(أزمة الجنس فى القصة المصرية ص ٢٠٨:٢١١ - راجع هذه المعانى المفضوحة بالتفصيل).

- فالطلاق وتعدد الزوجات عنده هو سبب الزنا والبغاء (ص ٦٩).

- والطلاق تعبير عن العبودية (ص ٢٠٨).

- و (المرأة الجديدة) لن ترضى بهذا الهوان (ص٢١١).

- و " مصر القبطية - ولا أقول الإسلامية..." - احدى الحلقات الثلاث - مع الفرعونية والعربية الحديثة التى شكلت التاريخ القومى لهذا الشعب.

- وهو يرفض تسميتها العربية هكذا مطلقا حتى لا تنسحب التسمية على مصر الإسلامية، ولأن "الحضارة العربية كانت أعمق من أن يكون الاسلام عنصرها الوحيد".

(عدد سبتمبر سنة ١٩٦٣ من مجلة (الكاتب) المصرية).

ووالله إن المرء ليعجب حتى يملأ العجب نفسه وكيانه: كيف يترك مثل هذا الكاتب يقول مثل هذا الكلام تحت سمع وبصر قوم ينتسبون للإسلام: اسما وبلدا وقانونا وحكومة؟

حسبى الله :

ولكن أمة يقال فيها تعليقا على قرار مصادرة قصة " أولاد حارتنا" إنه لا مصادرة على الفكر - وان كان فكرا مدمرا لديننا ومبادئه - أمة هذا منتهى التفكير فيها هى أمة لا نقول إن الحسبة والامتثال لأمر الله قد انتهى فحسب، ولكن نقول أمة ضاع منها الحياء.

"وحسبى الله ولا اله الا هو - عليه توكلت وهو رب العرش العظيم".

محمد عبد الحكيم القاضى

وتعاونوا على البرِّ والتقوى

بقلم : محمد عبد الحكيم القاضى

ذكرتُ فى الحلقة الثانية من مقالى «الثقة: ضوابطها ونواقضها» أن «علماء الحديث على أنَّ حديث المجهول لا يعتد به ما دمنا لا نعرف حال راويه من الثقة. وهذا هو الصواب إن شاء الله تعالى، وخالف ابن عبد البر وابن حبان فوثَّقا المجهول حتى يثبت جرحه - معتمدين على حديث: «يحمل هذا العِلْم من كل خَلَف عُدُوله» ...الخ.

ثم وصلتنى بعد ذلك رسالة من الأخ محمد العربى بالرياض - سعودية يستدرك فيها عَلَىَّ بأنَّ ابن عبد البر يصرح فى مؤلفاته بأن رِواية المجهول لا تعد حُجَّة، وذكر مواضع من كتبه، ثم يطلب أن يُبيِّن له من أين أتيتُ بهذا النص.

وأنا - أوَّلا - أحمد الله إليه لهذا الاستدراك والفائدة التى ساقها الله على يديه - بارك الله عليه.

فأما عن مَصْدرى فى ذلك فهو ابن الصلاح «التقييد والإيضاح» ولم يتعقبه الحافظ العراقى. ثم نقل عنه ابن كثير قوله هذا، ولم يستدرك عليه، إلا أنه وقَّف صحة ما ذهب إليه ابن عبد البر - على ما فهم ابن الصلاح - على صحة الحديث، ثم استبعد صحته أو غلب عدمها، وهذا نص ابن كثير «الباعث - شاكر / ٧٨) :

«قال ابن الصلاح : وتوسَّعَ ابن عبد البَرِّ، فقال : كل حامل علم معروف العناية به فهو عَدْل، محمولٌ أمره على العدالة، حتى يتبين جرحه؛ لقوله - عليه الصلاة والسلام: «يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله». قال: وفيما قاله اتساع غير مرضىٍ» والله أعلم. قلت: لو صَحَّ ما ذكره من الحديث لكان ما ذهب إليه قويًا، ولكن فى صحته نظرٌ قوى، والأغلب عدم صحته. والله أعلم» أهـ كلامه رحمه الله .

وهذا النَّصُّ الماضى عن ابن عبد البَرِّ نقله الحافظ العراقى فى شرحه لألفيته المسمى «فتح المغيث» صـ٦ - بعد الإشارة إليه فى الألفية: (البيتان ٢٦٥، ٢٦٦).

غير أنَّ الأخ الأستاذ محمد العربى لفتنى إلى النظر فى

كتب ابن عبد البَرّ، فرأيت ما يلى :

١ - أنه يصرِّح - كما قال الأخ - بنقد رواية المجهول وردِّها:

قال فى سعيد بن سلمة : (التمهيد ٢١٧/١٦) :

أما سعيد بن سلمة فلم يرو عنه - فيما علمتُ - إلا صفوان بن سليم - والله أعلم... ومن كانت هذه حاله فهو مجهول لا تقوم به حجة عندهم».

وقال فى ابن عبد الله بن مغفل (الإنصاف فيما بين العلماء من الاختلاف) [منيرية ١٥٩/٢] «وأما ابن عبد الله بن مغفل فلم يرو عنه أحد إلا أبو نعامة قيس بن عبابة - فيما علمت - و [منَ] لم يرو عنه إلا رجل واحد فهو مجهول عندهم. والمجهول لا تقوم به حجةَ.

٢ - أن جماعة من أهل العلم نقلوا عنه ذلك؛ مثل الشوكانى فى (الارشاد/٥٣) ومثله أو نحوه نقل السيوطى فى التدريب ٣١٧/١.

٣ - أنَّ هذه الألفاظ التى اطلعتُ عليها بما فيها منْ تخالُف من حيث الظاهر تحتاج إلى مجهودٍ للتعايش معها علَى ضوء دراسة عن ابن البر المحدِّث، وخبرةٍ بكتبه المختلفة، ومصادر القدامى فى النقل عنه، وهى - وإن كانت مهمة - ليست فى طَوْقى الآن، وليت أخانا يشاركنا، ويسوق لنا من معارفه.

٤ - أنَّ ذكر ابن عبد البَرِّ يدور فى كتب العلماء بالنسبة لهذه الجزئية فى موضعين:

- فى موضع الحديث عن مفهوم المجهول.
- وفى موضع ضوابط ارتفاع الجهالة.

ولشدة القرب بينهما فالخلط بين رأى الرجل فى كل واحدة منهما غير بعيد. ولذلك يحتاج الأمر إلى فرز كلام ابن عبد البر فى كل واحدة منهما على حدة. والله أعلم.

وأختم هذه الأسطر بشكر إخوانِنا القائمين على مجلة التوحيد، والأخ الكريم الأستاذ محمد العربى راجياً أن يكتب الله لنا عملاً مقبولاً آمين.

محمد عبد الحكيم القاضى

تدوين السنّة

نشر حقائق - ودحض أباطيل

بقلم محمد عبد الحكيم القاضى

لو لم يكن لله على المسلمين فضل إلا حفظ كتابه - تعالى - وسنة نبيه - ﷺ - لكان هذا الفضل جديراً بالحمد والشكر والعرفان؛ فقد مَرّ الزمان على الأمم السابقة حتى تآكلت الأواصر التى كانت تربطهم بكتاب ربهم المنزل إليهم.

« فَنسُوا حَظًّا مِمّا ذُكِّروا بِه » من الآية ١٤ سورة المائدة. بل وامتدّت يد التحريف لتطمس معالمه:

«فَوَيْلٌ لِلّذِين يَكتُبُونَ الكتَابَ بِأيدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُون : هَذا مِنْ عِنْدِ اللّه» من الآية ٧٩ سورة البقرة. حتى أطلعونا على« مَسْخٍ شَائِه من الدين يسمّونه (ديناً) و(مِلّةً)، وما هو إلا دينٌ أعرج ومِلّة عوجاء.

ولقد أضحى حفظ الله - تعالى - للذكر الذى ألقاه على فؤاد نبيه ﷺ مُسَجّلاً فى القرآن يُتلى بالليل والنهار: «إنّا نَحْنُ نَزّلْنَا الذِّكْرَ وإنّا لَهُ لَحَافِظُونَ» فأصبح من المراوغة المفضوحة أن يحاول امرؤ الطعن فى هذا الأمر، أو الغض منه، وإنما الذى أصبح المجال مُنْفَتحاً للكلام فيه هو كيفيةُ حفظ الشطر الثانى من هذا الذكر، وهو السنة المطهَّرة.

وفى هذا المجال تواثبت الأقلام - منذ قديم - تتحدث عن هذه الكيفية، وكان الحق يوجب عليهم أن يُحنوا هاماتهم لجهود علماء الحديث فى ميادين التدوين والضبط، ووضع القواعد الصّارمة لقبول الأخبار. وبرزت عملية الإسناد - التى اشترطها المُتحدِّثون - علامةً مضيئةً فى جبين هذا العلم الشريف، فانتفى عن السنّة كل غث، واطُّرح منها كل دخيل، منذ أعلن «محمد بن سيرين» - رحمه الله - قوله : «كلُّ قولٍ ليس فيه : حدّثنا وأخبرنا، فهو خَلٌّ وبَقْلٌ».

ثم خلفت خُلوف :

ثم خلف من بعد هؤلاء المباركين خلف لم يدروا ما الإسنادُ ولا التراث، فأضاعوا تراثهم مع ما أضاعوا من قيمهم - باعوها بالدّولار يوم باعوا المسجد الأقصى - ظنًا منهم أنها (تركة مال)، ولم يفطنوا إلى أنها (ميراث نبوّة) كان ذلك حين خرجت قوافل البعثات التعليمية إلى كنائس أوروبا تتلقى (العلم!) و(مناهج البحث!) - هذه المصطلحات التى لم يكن لأوروبا أن تطلع عليها إلا بفضل المسلمين.

ورجعت هذه القوافل معبّأةً بمناهج جديدة لدراسة السّنّة، صيغت فى أرض غريبة، ونبتت فى تربة غير حبيبة، وسُقِيت بمياه سامّة، فلا تَسَلْ عن النتيجة كيف كانت !

لقد استطعنا - من خلال قراءتنا لمجموع دراسات المُحْدَثين عن السُّنَّة - أن نستخلص أهم الأخطاء التى وقع فيها كبار هؤلاء الباحثين، وأن نحدِّد مصدر هذه الأخطاء - حسبما هدانا الله تعالى. ونحاول هنا بعون الله أن نَخُصَّ أول هذه الأخطاء - وربما كان من أجسمها - بالمناقشة، وهو:

تدوين السنة :

غير أننا سنتوخى القَصْدَ والتلخيص إشعاراً بأهمية القضية وحَسْبُ، ومن خلال المصادر والمراجع التى نشير إليها يستطيع الذى يبتغى التفصيل أن يجد مكان التفصيل.

استطاع ثلاثة من الباحثين المُحْدَثين أن يصوغوا نظريّةً فى (تدوين السنة) اعتمدت على معلومات مشوّشة، ناقصة، وكاذبة فى بعض الأحيان؛ أمّا هؤلاء الثلاثة فهم:

١- جولدتسيهر - المستشرق اليهودى المجرى - فى كتابه «العقيدة والشريعة فى الإسلام».

٢ - أحمد أمين - المؤرخ المصرى - فى الجزء الثانى من كتابه «ضحى الإسلام».

٣ - محمود أبو ريّة - الباحث المتشيِّع - فى كتابه «أضواء على السنة المحمّدية».

وأمّا أهم المعلومات التى تبلور هذه النظرية فتتلخص فى:

أولا : أن الصحابة لم يهتموا بتدوين السّنة لنهى النبى ﷺ عن كتابة الحديث.

ثانيا: أن تدوين السنة لم يأخذ الصورة المعتمدة الصحيحة إلا على رأس المائتين - يعنى فى بداية القرن الثالث الهجرى.

ثالثاً : أنّ هذا التدوين قد شابَهُ بعض العيوب.

وليس لشىء مجال فى مثل هذه المواقف إلا استنطاق التاريخ، والبحث فى دروبه عن الصواب؛ أمّا أن النبى ﷺ قد نهى عن كتابة الحديث : فنَعَمْ !، وأمّا أن الصحابة لم يهتموا بتدوين السنة فكذبٌ وزور ! ثم ليس التفصيل الشديد من غاية هذا البحث، وإنما لابد من بيان الحقائق التالية:

١ - أن المعروف - كالشمس - عند كل من له إلمام بالحديث - هو أن النبى ﷺ - نهى عن كتابة الحديث، ثم أباحه بعدُ، وقد ترجم لهذا الأمر كل من كتبوا من القدماء فى أمر تدوين السنة وكتابتها، مثل:

- الرامهزى (ت٣٦٠) : وهو أول من وصلنا عمل كامل له فى هذا المجال فى كتابه «المحدث الفاصل بين الراوى والواعى».

- الخطيب البغدادى (ت٤٦٢) : فى كتابه «تقييد العلم».

- القاضى عياض (ت٥٤٤): فى كتابه «إلماع فى أصول الرواية وتقييد السماع».

فهل كان هؤلاء من الغباء للدرجة التى تمنع فهمهم لهذا الأمر. بل خسىء شانئهم، وكذّب. وضل مَن ترك قولهم وأضلّ.

اهتمام الصحابة بالسنة :

٢ - إن اهتمام الصحابة بتدوين السنة ليس أمراً يحتاج إلى مناقشة فقد ذكر البيهقى فى «المدخل» أن عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - عزم أن يكتب السنن فى كتاب، واستشار الصحابة، ومكث شهراً يستخير الله عز وجل، ثم انصرف خوفاً من أن ينصرفوا إليها عن كتاب الله عز وجل.. وفى هذا ما يُردّ خباثات أبى ريّة حين قال:

« مما يستلفت النظر البعيدويستدعى العقل الرشيد، أن عمر بن الخطاب لمّا راعه تهاوى الصحابة فى حرب اليمامة... لم يقل عنهم إنهم حملة الحديث، بل قال: إنهم حملة القرآن، ولم يطلب جمع الحديث وكتابته.... »

ونخشى - إذن - ألا يكون نظر أبى ريّة بعيدا، ولا عقله رشيداً؛ ويمكنك فى هذه الجزئية بالذات - عناية الصحابة

بالسنة - أن تراجع مبحث الدكتور رفعت فوزى فى كتابه «المدخل إلى توثيق السنة» (١).

٣ - ثبت أن الصحابة استجابوا لأمر النبىّ - ﷺ - بكتابة السّنّة؛ فقد كان جمع كبير من الصحابة يكتبون؛ منهم عبد الله ابن عمرو - الذى شكا إلى النبىّ - ﷺ - تحريج بعض الصحابة عليه فى الكتابة، ظنًّا منهم أنه - ﷺ - يقول فى الرضا والغضب: «اكتب، فوالله ما خرج منه إلا الحق» (٢)

وقد أورد الأستاذ الدكتور أكرم ضياء العمرى عشرة أمثلة لصحف كتبها الصحابة، منها الصحيفة الصادقة المشهورة لعبدالله بن عمرو بن العاصى - رضى الله عنهما، وصحيفة سمرة بن جندب - التى ذكرها الحافظ ابن حجر فى التهذيب - أيضا. ويمكنك مراجعة ذلك الباب الجيِّد من كتاب الدكتور أكرم العمرى «بحوث فى تاريخ السنة المشرّفة» - باب «تدوين الحديث». وكذلك الكتاب القَيّم الذى أعدّه الدكتور محمد عجاج الخطيب (السنة قبل التدوين).

٤ - هل سقط - إذن - الزعم بأن الصورة المثلى للتدوين لم تكن إلا فى القرن الثالث - كما يرى أحمد أمين - أو فى أواخر الثانى - كما يقول «أبو ريّة» على استحياء؟

ثم: ألم يكن - امتداداً لتدوين الصحابة - جيلُ التابعين الذين دوّنوا هذه السنن؟

وهل درس هؤلاء الكاتبون المتسرعون كتب التاريخ المتعلقة بعلوم الحديث دراسة واعية متجردين من عوار التعصُّب؟

كان ينبغى لهم أن يراجعوا ترجمة «أبى الزبير محمد بن مسلم بن تدرُس» فى تذكرة الحُفّاظ أو تهذيب التهذيب، وقد توفى سنة ١٢٦هـ، وكانت له صحيفة عن جابر بن عبد الله، وله صحيفة أخرى عن غير جابر - وصلت إلينا هذه مخطوطة بالمكتبة الظاهرية بدمشق، وتقع فى ثمانى عشرة ورقة - كما

---

(١) الكتاب طبعته مكتبة الخانجى بمصر. وراجع أيضا «جامع بيان العلم لابن عبد البر ٦٤/١».

(٢) خرجه أحمد بن حنبل فى مسنده وصححه الشيخ أحمد شاكر رحمه الله - وهو كما قال.

وصفها الأستاذ فؤاد سزكين فى كتابه (تاريخ التراث العربى ٢٥٥/١).

وكان عبد العزيز بن مروان (الذى ولى مصر من سنة ٦٥ إلى سنة ٨٥ هـ) يحتفظ بنسخة من حديث أبى هريرة - الذى كان محفوظاً عنده (١)، ولذلك أمر «كثير بن مرة الحضرمى» أن يجمع أحاديث الصحابة سوى «أبى هريرة» - وكان «كثير بن مُرَّة» قد أدرك سبعين بَدْرِيًا.

وإلحاحاً على هذا المطلب تبع «عمر بن عبد العزيز» أباه، فكتب إلى «أبى بكر بن حزم» عامله فى المدينة أن يجمع حديث النبى ﷺ - ويكتبه (٢).

والعجب أن أحمد أمين يغضى الطرف عن محاولة عبد العزيز بن مروان، ثم يحاول التشكيك فى محاولة أبى بكر بن حزم قائلا:

«ولكن: هل نفذ هذا الأمر؟ الذى نعمله أنه لم تصل إلينا هذه المجموعة، ولم يُشر إليها أحد من الحديث بعد،.....، فلعل موت عمر سريعا عدل بأبى بكر أن ينفذ ما أمر به» (٣).

وإذا كان أحمد أمين متحفظا فى قوله فقد كان تلميذه «أبو رية» أشدّ جرأةً حين ردّد ما افترضه سلفه، ثم قال:

«..إلى أن تولّى هشام بن عبد الملك سنة ١٠٥هـ، فجدَّ فى هذا الأمر، وحثّ ابن شهاب الزهرى - بل قالوا: إنّه أكرهه (!) على تدوين السنة؛ لأنهم كانوا يكرهون كتابته (٤).

والتاريخ يشهد:

ثم نقول أخيراً:

ألم يتابع أولئك الذين ينكرون أن السنة دُونت قبل المائتين فهارس المخطوطات ليروا بأعينهم فساد ماظنّوا؟ لقد حفظ لنا التاريخ طائفة من المخطوطات التى تمثل تدوين

---

(١) راجع أيضا ابن سعد فى الطبقات ٤٤٨/٧.

(٢) سنن الدارمى ١٢٦/١، الطبقات ٣٨٧/٢.

(٣) ضحى الإسلام لأحمد أمين ص ١٠٦.

(٤) أضواء على السنة لأبى رية ص ٢٢٣.

الحديث قبل المائتين - بل قبل المائة الأولى - نذكر منها على سبيل المثال:

(أ) حديث أبى سلمة (نبيط بن شريط الأشجعى) الصحابى وهى مخطوطة محفوظة فى دار الكتب الظاهرية تحت رقم ٢٧٩ حديث، وتقع فى ١٣ ورقة (ثلاث عشرة ورقة). ويبدو أن دار الكتب المصرية قد احتفظت بنسخة منها تحت رقم ١٥٥٨ حديث. حتى قال الأستاذ سزكين:

«وحديثه (يعنى أبا سلمة) - إذا أثبتَ البحث الدقيق أصالته - أقدم صحيفة مشهورة وصلت إلينا» (١).

(ب) حديث الأشجّ - صاحب على بن أبى طالب وحامل رايته: وصحيفته محفوظة بمكتبة شهيد على باشا بتركيا - التى أُلحقت الآن بالمكتبة السليمانية العمومية. وبعض هذه الصحيفة - أو أكثرها - موجود فى نسخة بدار الكتب المصرية تحت رقم ١٩٢٠ حديث (ضمن مجموعة) (٢).

(جـ) صحيفة همّام بن منبه المتوفى سنة ١٠١هـ:

وهى محفوظة فى برلين رقم ١٣٨٤، ومنها نسخة بالظاهرية - دمشق. ثم نشرت مرتين:

- الأولى: فى مجلة المجمع العلمى العربى - دمشق سنة ١٩٥٣، بتحقيق الأستاذ محمد حميد الله.

- والثانية: بتحقيق الأستاذ الدكتور رفعت فوزى فى مكتبة الخانجى بمصر، العام الماضى.

ولو شئنا لزدنا فى الأمثلة، ولكن لأى دارس أن يبحث هذا الأمر بتعقّب فهارس المخطوطات فى العالم - خصوصاً كتاب بروكلمان (تاريخ الأدب العربى جـ٣)، وكتاب سزكين (تاريخ التراث العربى جـ١)، ثم كتاب كوركيس عوّاد (أقدم المخطوطات العربية فى مكتبات العالم) ثم الفهارس الخاصة بالمكتبات.

يتبع إن شاء الله.

محمد عبد الحكيم القاضى

---

(١) تاريخ التراث العربى لفؤاد سزكين ٢٥٥/١ .

(٢) راجع حرف الحاء من فهارس المخطوطات الموجودة بدار الكتب (خط آلة كاتبة)، سزكين ٢٥٤/١.

تدوين السنة

نشر حقائق - ودحض أباطيل

بقلم : محمد عبد الحكيم القاضى

- ٢ -

فى الجزء السابق نشره من هذا البحث (بعدد ذى الحجة ١٤٠٩) تحدث الكاتب عن تدوين السنة وما زعمه بعض الباحثين المحدثين من أن السنة لم تدون إلا فى بداية القرن الثالث الهجرى. وفند هذا الزعم الباطل ببيان اهتمام الصحابة بتدوين السنة حيث ساق بعض الأمثلة عن المخطوطات التى تثبت قيام الصحابة بهذا التدوين وأماكن حفظ هذه المخطوطات ليتمكن الدارسون من الرجوع إليها فى بحوثهم.

ونستكمل - بفضل الله - نشر هذا البحث حيث يرد الكاتب على ما أثير من شبهات عن بعض مدونات السنة - والله الموفق.

التوحيد

عيوب فى الموطأ والبخارى

وتبقى مسائل العيوب التى نسبت لبعض المدونات التى جمعت طوائف الأحاديث بين دفّتيها،، ونخص بالذكر كتابين:

١ - موطأ الإمام مالك بن أنس (ت ١٧٩هـ) .

٢ - كتاب صحيح البخارى للإمام محمد بن إسماعيل البخارى (ت ٢٥٦هـ) .

وتتلخص الأخطاء التى جاءت فى كتب كل من :

محمود أبو رية : أضواء على السنة.

وفؤاد سزكين : تاريخ التراث العربى.

وأكثر مصنفى الشيعة الإثنى عشرية

أقول : تتلخّص هذه الأخطاء - من وجهة نظرهم - فى :

١ - اختلاف الروايات .

٢ - موت البخارى قبل تبييض كتابه.
٣ - نقص الأسانيد .
٤ - عدم التوفيق فى جمع المادة العلمية.

والإتهامان الأخيران لا سند لهما من التاريخ، ولا من محتوى صحيح البخارى. وأما الأوّلان فكلمات حق أريد بها باطل. وإليك التفصيل :

ذكر أبو ريّة أن «الموطأ روى عن مالك بروايات مختلفة، تختلف فى ترتيب الأبواب، وتختلف فى عدد الأحاديث، حتى بلغت هذه الروايات عشرين نسخة أو ثلاثين (١). ثم يذكر عقب ذلك ما أسماه (نقد ابن معين لمالك) ذكر فيه أن ابن معين قال فى مالك: «إنه لم يكن صاحب حديث، بل كان صاحب رأى»، وأن الدارقطنى ألّف جزءاً فيما خولف فيه مالك من الأحاديث فى الموطأ وغيره، فيه أكثر من عشرين حديثا.

ونقول : سبحان الله :

كأن «أبا ريّة» هذا لا يفقه شيئا عن علم الحديث، بل هو كذلك حقًا ، فهو لا يعلم أبسط مبادىء هذا العلم التى اتفق عليها علماء الأمة :

١ - فاختلاف روايات الموطأ ليس عيبا فيه، وإنما كُلُّ رجل من تلاميذ مالك روى ما سمع منه أو أجازه فى روايته، وكلّها متصل السّند إلى مالك، ثم يبحث فى رُوَاته عن مالك من حيث الثقة. وقد كان يحيى بن يحيى الليثى هو أوثق تلاميذ مالك وألزمهم له، واشتهر موطأه فى البلاد جميعا، والمغرب خاصة، وهى النسخة التى عليها المعوّل عند المالكية إلى اليوم، أمّا بقية النسخ فلا قدح فيها، وقد رواها قوم من أوثق من أقلت الأرض، من أمثال القعنبى، ومحمد بن الحسن الشيبانى وأبو مصعب وابن القاسم وغيرهم. وهذا أحد أعلام تاريخ السنة فى العصر الحديث - وهو الدكتور مصطفى السباعى - رحمه الله يتحدث عن اختلاف روايات الموطأ بقوله :

« ... لاختلاف الزمن الذى رويت فيه عن مالك، مع ما كان عليه - رحمه الله - من إدامة النظر فى موطئه، فلا يبعد أن

---

(١) أبو رية ص ٢٧١.

يزيد فيه أحيانا، وأن ينقص منه أحيانا حسبما يتراءى له من النظر» (١).

ومع ذلك فاختلاف هذه النسخ لا يرجع فى أكثره للحديث، وإنما للأقوال الفقهية والآثار، والذى يدل على ذلك أن الإمام الدارقطنى حينما صنع كتابه «أحاديث الموطأ واتفاق الرواة عن مالك واختلافهم فيها زيادة ونقصاً» - لم يزد الكتاب على (٣٤) أربع وثلاثين صفحة على الرغم من أنه ذكر «شيوخ مالك مع بيان عدد ما لكلّ منهم من الحديث، مستقصيا فى البحث عن رواياته كلها، لإبانة مواضع الاتفاق والاختلاف، بل راجع فى ذلك الأسْمعَة خارج الموطأ - فأجاد وأفاد» (٢).

وإليك مثالان من أمثلة اختلاف هذه الروايات حتى تعلم أنّ الجهل يصنع من الحبّة قُبّةً. فكيف إذا ضُمّ إلى الجهل التعصُب وسوءُ النيّة؟ :

١ - حديث (من حمل علينا السلاح فليس منا) من حديث نافع عن ابن عمر: عند جميع رواة الموطأ ما عدا أبا مصعب وابن القاسم. (٣).

٢ - حديث (أىّ الرقاب أفضل) من حديث عائشة: أسنده أبو مصعب وتابعه مطرّف وروح وعبد الله بن عبد الحكم. وأرسله الباقون. (٤)

وأمّا الرسالة التى ألفها الدارقطنى فهى وسام على صدر الإمام (مالك). فأبو رية يعترف أن كتاب (الموطأ) فيه عشرة آلاف حديث، فحين يكون الذى جمعه الدارقطنى - وهو النّاقد المتشدّد - مما اختلف فيه على مالك هو عشرون حديثا، فيا هنيئًا لمالك! مع الإيماء إلى ما جهله أبو ريّة أو تجاهله من أنّه ليس كل خلاف على حديث طعنا فى مالك ولا فى موطئه ولا فى الرواة عنه ولا فى الحديث نفسه، فربما رُوى الحديث بأكثر من صورة لأنه كذلك جاء، لا لخطأ من أحد، وهذا أمر معروف تغنى شهرته عند أهل هذا العلم عن تكلف شرحه وبيانه.

---

(١) السنة ومكانتها فى التشريع د.مصطفى السباعى ص ٤٣٤.

(٢) مقدمة الشيخ زاهد الكوثرى لكتاب الدارقطنى ص ٦.

(٣) أحاديث الموطأ.. للدارقطنى ص ٢٧ وراجع لهذا المعنى ص ٣٣:٩.

(٤) أحاديث الموطأ .. للدارقطنى أيضا .

البخارى وكتابه الصحيح :

أما الإمام البخارى فقد أضحى صخرة تهزأ بالناطحين، ومنهجه فى كتابه الصحيح يُعد مفخرة علماء الحديث قاطبة، بل علماء الدنيا بأسرها، ولذلك نعجب من سلسلة الاتهامات التى ساقها الأستاذ فؤاد سزگين فى كتابيه :

١ - الأول : الذى صنفه - باللغة التركية - عن البخارى .

٢ - والثانى : «تاريخ التراث العربى» الذى صنفه بالتركية، وترجم إلى العربية فى مصر. (١)

ومصدر عجبنا أن الأستاذ سزگين مشهور بدقّته وتحرّيه، ومثل هذا النوع يستغرب منه إلقاء القول على عواهنه - الأمر الذى يجعلنا نعيد النظر فى هذه الشهرة؛ فقد قرر فؤاد سزگين - بلا تحفُّظ - :

١ - أن كتاب البخارى «ليس إلا جمعاً ملخّصاً للمؤلفات السابقة».

٢ - وأنه ليس رائداً فى ميدان التصنيف على أبواب الفقه.

٣ - وأنه استخدم الكتب السابقة دون انتقاء ودون توفيق.

٤ - وأنه لم يكن موفقاً - أيضاً - فى جمع المواد اللغوية والتاريخية والفقهية.

٥ - ثم ختم ذلك بأن البخارى فى كتابه «الجامع» قد «برهن على أنه ليس عالِمَ الحديث الذى طوّر الإسناد،.. بل هو أول من بدأ معه انهيار الإسناد».

ومثل هذه الاتهامات المتلاحقة تجعلنا لا نتردد فى اتهامه بالتسرع الذى يصل إلى درجة التهور فى سياقة الأحكام غير المفسرة، ولا المبرهن عليها، بل التى تخالف كل المعطيات التاريخية والمنهجية.

وإذا كانت هذه الاتهامات غير المدققة جديرة بأن نفرد لها دراسة - فى خلال ردِّنا على اتهامات الأستاذ سزگين لكثير من

---

(١) نشرته دار الكاتب العربى (جزءان فقط منه) ورأيته جميعا عند بعض إخواننا من مطبوعات السعودية.

المحدِّثين فى مقدّمته التى كتبها عن علوم الحديث من ص٢٢٥: ص ٢٤٩ وفى غيرها من صفحات كتابه الضخم «تاريخ التراث الإسلامى». فإنه لابد من أن نتوقف عندها الآن - خصوصاً وقد تُرجم الكتاب فى مصر سنة ١٩٧١، وخصوصاً أيضا بعد أن علمنا أن سزگين قد تعاقد مع (السعودية) على نشر هذا الكتاب بالمملكة - فى أثناء وجوده بها. ثم خصوصاً أيضاً أن سزگين قد حاضر فى المملكة السعودية عدة محاضرات عن التراث العربى، وقد نشرت هذه المحاضرات دار الرفاعى هناك ومؤسسة الخانجى بمصر.

لهذه (الحيثيات) جميعا ينبغى أن نتناول مجهود البخارى فى كتابه (الجامع الصحيح) - بالذات - من هذه الزوايا التى اهتم بها سزگين، ومن زاوية ما أسماه أبو رية (موت البخارى قبل تبييض كتابه).

لقد اتفقت كلمة العلماء على أن الإمام البخارى هو أول من صنَّف فى الصحيح خاصة، وأن كتابه هو أصحُّ الكتب بعد كتاب اللّه تعالى. وقد قال الإمام البخارى عن نفسه: «أحفظ مائة ألف حديث صحيح، ومائتى ألف حديث غير صحيح (١) ». غير أن أحاديث (الجامع الصحيح) هى طائفة منتقاة من محصول البخارى الحديثى؛ فهى لا تتجاوز السبعة آلاف حديث - بالمكرّر (٢).

الدقة فى الانتقاء :

والذى يطّلع على هذا المنهج الذى اتبعه البخارى فى انتقاء أصحّ الأحاديث ليجعلها فى كتابه الصحيح لا يستطيع أن يكتم العجب؛ فقد أتاحت له خبرته العميقة بطبقات الرجال وتبين الملامح الدقيقة فى عملية الضبط والتثبيت، وتمييز الفروق الدقيقة بين تلاميذ الشيخ الواحد - حين تجمعهم صفة الصدق والأمانة - أقول : أتاح له ذلك كلّه منهجاً فذاً فى اختيار أصحّ الصحيح؛ فهو لم يكتف بشرط الصحة الذى اكتفى به غيره، وإنما اختار من أحاديث كل شيخ أحسنها - على أساس

---

(١) التقييد والإيضاح للعراقى ص ٢٧ (متن ابن الصلاح)

(٢) المرجع السابق ص ٢٦ وانظر فتح المغيث ص ١٨.

التمييز بين الثقات الذين رووا عنه، ويوضّح الحافظ أبو بكر الحازمى ذلك بقوله: «... فلنوضّح ذلك بمثال؛ وهو أن نعلم أن أصحاب (الزهرىّ) - مثلا - على خمس طبقات، ولكل طبقة منها مزيّة على التى تليها؛ فمن كان فى الطبقة الأولى فهو الغاية فى الصحة - وهو مقصد البخارى. والطبقة الثانية شاركت الأولى فى التثبت، إلا أن الأولى جمعت بين الحفظ والإتقان وبين طول الملازمة للزهرى حتى كان منهم من يزامله فى السفر ويلازمه فى الحضر. والطبقة الثانية لم تلازم الزهرى إلا مدة يسيرة فلم تمارس حديثه، فكانوا فى الإتقان دون الأولى، وهم شرط مسلم...» (١).

هل يصح بعد هذا أن يقال إن البخارى استخدم الكتب السابقة عليه دون انتقاد ودون توثيق؟ وأن كتابه ليس إلا جمعاً ملخّصاً للكتابات التى سبقته؟ وأن هذا يدل على أن الإسناد قد بدأ يفقد قيمته ومكانته عند البخارى ؟

أفلا يصحّ أن يستنتج من هذا المنهج حقا - أن الناحية العملية الراقية الموفقة لاستخدام الإسناد كانت على يد البخارى - رحمه الله ؟

التعليق وانهيار الإسناد !

ويصرّح الأستاذ سزگين - بغير تحفّظ - مشايعا جولدزيهر وغيره من المستشرقين - أن «الأسانيد ناقصة فى حوالى ربع المادّة، وقد أطلق على هذا الأمر - ابتداء من القرن الرابع - اسم (التعليق) (٢)، وبهذا يفقد كتاب البخارى كثيراً من سمته مصنّفا جامعاً شاملاً، أما البخارى فقد برهن على أنه ليس عالم الحديث الذى طوّر الإسناد إلى الكمال... بل هو أول من بدأ معه انهيار الإسناد ».

وقد تطرّق مثل هذا الوهم السابق إلى بعض الرّواة؛ حين سأل الإمام البخارى عن خبر حديث، فقال له البخارى: «يا أبا فلان: ترانى أدلس؟! وأنا تركت عشرة آلاف حديث لرجُل لى فيه نظر، وتركت مثله أو أكثر منه لغيره لى فيه نظر!» (٣).

---

(١) شروط الأئمة الخمسة للحازمى ص ٤٣ - ٤٦.

(٢) التعليق : هو اختصار الإسناد بحذف بعض شيوخ المصنّف، وربما وصل الحذف إلى الصحابى.

(٣) تاريخ بغداد للخطيب ٢/٢٥.

قال الحافظ ابن حجر :

«يعنى إذا كان يسمح بترك هذا القدر العظيم، كيف نَشْرُه لقدرٍ يسير ؟! فحاشاه من التدليس المذموم» (١) .

مع أن الذى يقرأ ما قاله الحافظ فى كتابه «تغليق التعليق» أو فى «هدى السارى» يدرك أن موضوع (التعليق) فى صحيح البخارى هو وسام آخر على صدر الإمام رحمه الله؛ إذ أنه يكشف - لمن اجتهد فى دراسته - عن خبرةٍ واسعة وفقه ثاقب.

ولقد أدرك هذه الحقيقة المهمة رجالُ الحديث منذ القرن الرابع - الذى يجعله سزگين تاريخا لمصطلح (التعليق) - وتأصّلت ضوابط ذلك عند ابن حجر العسقلانى - أحسن شُرّاح الصحيح - فيما نعلم؛ وإنما نلخّص أهم الدّواعى التى جعلت الإمام البخارى يذكر الحديث معلقا فيما يلى :

أولا : الأحاديث الموقوفة على الصحابة ومن بعدهم - وإن صَحَّتْ؛ لأن ذلك ليس من شرط الصحيح المُسْنَد .

ثانيا : الحديث الصحيح الذى فى إسناده بعض مَنْ لم يَرْقَ إلى شرطه فى الكتاب - وإن كان ثقة عنده، وحديثه على شرط غيره من جهابذة النقاد؛ وذلك مثل قوله فى كتاب الطهارة :

«وقالت عائشة : كان النبى صلى الله عليه وسلم يذكر الله على كل أحيانه» وهو حديث صحيح على شرط مسلم، وقد ذكره فى صحيحه، وشاركه فى روايته - مسنداً غير معلّق - الإمام أحمد وأبو داود والترمذى وغيرهم . (٢)

وتظن أن الذى جعل البخارى يُعَلّقه - مع صحة إسناده - هو تفرّد (زكريا بن أبى زائدة) به؛ فكل هؤلاء الذين ذكرنا رووْه من طريقه فقط، وقد نبه الترمذى إلى هذا التفرّد حيث قال :

« هذا حديث حسن غريب؛ لا نعرفه إلا من حديث يحيى بن أبى زائدة» (٣) - وهو يعنى من حديثه عن أبيه؛ فتعليق البخارى له تنبيه منه أن هذا الحديث - وإن صح - ليس من شرطه الذى اشترطه فى كتابه.

---

(١) تغليق التعليق للحافظ ابن حجر العسقلانى ٢/١٠.

(٢) انظر صحيح مسلم (كتاب الحيض ١/٢٨٢) ، المسند ٦/٧٠، ١٥٣، أبو داود (طهارة ١:٥)، الترمذى (دعوات ٥/٤٦٣).

(٣) الترمذى ٥/٤٦٣ .

ثالثا : الحديث الصحيح الذى ساقه فى موضع موصولاً بإسناده التام، ثم احتاج الى ذكره فى موضع آخر لفائدة فقهية، وليس له عنده أسانيد أخرى غير السابق، فحينئذ يسوقه معلّقا - إشعاراً بأن هذا الحديث ليس له إلا هذا الإسناد.

ولهذا التعليق فوائد حديثية متعلّقة بالإسناد، لو اطّلع عليها فؤاد سزگين - والله - ما شرع فيما صنع. ولولا أن موضوع التعليق ليس هو موضوع المقالة أصلاً لاستطردنا فيه. فليراجع على سبيل المثال مقدمة كتاب (التغليق) لابن حجر (٣٠٨:٢٨٣/١). ولقد كان بودّنا أن يتروّى المحقق الذى خدم التراث العربى خدماتٍ لا تنكر - فى أحكامه قبل إنفاذها - خصوصاً إذا كانت هذه الأحكام تتعلق بشخصية وكتابٍ أعطاهما الفكر الإسلامى تبلنا كل تقدير.

ومع ذلك فلعلّ الله تعالى أن يهيىء لنا دراسة أخرى عن (قضية الإسناد عند المحدّثين القدامى) لما وجدنا من لمزٍ عنيف لهم فى دراسات الأستاذ سزگين - عفا الله عنه.

ثم خلف من بعدهم خَلْف :

فهؤلاء القوم . غير أن الخُلوف مِن بعدهم لم يحسنوا إليهم، ولم يرعَوْا من عهدهم ما يجب عليهم من رعايته، فأقرّوا أعين شانئيهم، وأتعبوا أذهان مُحبّيهم .

فحسبنا الله ونعم الوكيـــل .

محمد عبد الحكيم القاضى

مصر - المنيا - مدرسة المنيا الثانوية للبنات

التعريف بالبدعة
وأشهر أحكام المبتدعين

بقلم : محمد عبد الحكيم القاضى

١ - معنى البدعة

البدعة : إيراد قول لم يستنّ قائلها وفاعلها فيه بصاحب الشريعة ، وأماثلها المتقدمة ، وأصولها المتقنة . أصله : الإبداع : وهو إنشاء صنعة بلا احتذاء واقتداء . واسم الله (البديع) لأنه خلق على غير مثال سابق .

{راجع "مفردات القرآن" للراغب الأصبهانى ص ٣٨ وكتب التفسير فى قوله تعالى : "بديع السموات والأرض"}.

قال محمد :

كل قول أو فعل على غير سُنَّةٍ صحيحة فهو بدعة ، وصاحبه مبتدع . وليس فيه شئ حسن إلا ما استحسنه الصحابة . وانعقد إجماعهم عليه ؛ لأن اتباعهم واجب بالشرع .

ولا يشترط فى البدعة العناد ، قال ابن حجر :

"هى اعتقاد ما أحدث على خلاف المعروف من النبى صلى الله عليه وسلم لا بمعاندة ، بل بنوع شبهة" .

والشبهة : دليل ظنى ضعيف مرجوع يشبه الحجة ، وليس بحجة .

٢ - الحث على الإستمساك بالسنة

قال رسول الله ﷺ فى حديث العرباض بن سارية :

"من بقى منكم بعدى، فسيرى اختلافاً شديداً ، فعليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين ؛ عَضّوا عليها بالنواجذ" .

{حديث حسن ، صححه جماعة ، وقد رواه الترمذى فى العلم

وصححة ، والحاكم فى المستدرك ١ / ٩٥ ، وأبو داود فى السنة وغيرهم وصححه ابن حبان وغيره . وانظر شرح السنة للبغوى (مجمع البحوث ١ / ١٩٥ ، السنة لابن أبى عاصم برقم ٥٤ ، ٥٥ بتحقيق الشيخ الألبانى).

وقال فى حديث أبى هريرة .

"ذرونى ماتركتكم ، فإنما هلك الذين من قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم ، فإذا نهيتكم عن شئ فاجتنبوه ؛ وإذا أمرتكم بالأمر فأتوا منه ما استطعتم" .

{متفق عليه خرجه البخارى فى كتاب الاعتصام ـ فتح ١٣ / ٢٢٠ ومسلم فى كتاب الفضائل} .

وقال فى حديث أبى رافع :

"لا ألفين أحدكم متكئا على أريكته ، يأتيه الأمر من أمرى مما أمرت به أو نهيت عنه – فيقول : لا أدرى ، ماوجدناه فى كتاب الله اتبعناه" وفى رواية لأبى داود: ألا إنى أوتيت الكتاب ومثله معه"

{هذا حديث حسن جدا خرجه أحمد وأبو داود والشافعى فى الرسالة وصححه ابن حبان فى صحيحه باب الاعتصام بالسنة والحاكم فى كتاب العلم من المستدرك}

وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه :

"إنه سيأتى أناس يأخذونكم بشبهات القرآن، فخذوهم بالسنن، فإن أصحاب السنن أعلم بكتاب الله تعالى" .

{خرجه البغوى فى شرح السنة (مجمع ١٩٢/١)}

ولهذه المعانى قال الصادق المصدوق ﷺ فى حديث أنس وغيره :

"من رغب عن سنتى فليس منى" .

{متفق عليه مطوّلا ، وخرجه ابن ابى عاصم بهذا اللفظ ، وكذلك أحمد فى المسند وانظر السنة لابن أبى عاصم برقم ٦١ ، ٦٢}

وقال من حديث معاوية وغيره :

"إن هذه الأمة ستفترق على إحدى وسبعين فرقة كلها فى النار إلا واحدة . وهى الجماعة" .

وفسرها فى رواية :

"ما أنا عليه وأصحابى" .

{حديث حسن إسناده جيد ، وأصله فى الصحيح . وهذه الزيادة صحيحه معتبرة عند أهل العلم - راجع : السنة لابن أبى عاصم بتحقيق الألبانى رقم ٦٩ فما بعده} .

قال محمد :

وما عليه النبى وأصحابه هو العلم غير الجدل والكلام والفلسفة، فمن رأيته كثير الجدل فى العقائد بغير حديث صحيح فاعلم أنه على باب زندقة .

وهذه الجماعة هى أهل الحديث - الذين يعتقدون ظاهر الحديث إلا ماتأوّله الصحابة والتابعون وقرون الخير .

(وراجع : شرف أصحاب الحديث للخطيب وغيره) .

٣ - التحذير من الأهواء

فى الحديث من رواية العرباض بن سارية يرفعه إلى النبى ﷺ (إياكم والبدع)

{خرجه ابن أبى عاصم - رقم ٣٤، وحسنه الألبانى - قلت : هو كذلك لو كان شعوذ الأزدى ثقة }

قال محمد :

وصاحب البدعة مفارق لجماعة المسلمين ، فلولا تأوّلُه لكَفَر، لأن الفرق كلها هلكى إلا الجماعة . وقد سبق . وقد صح عن النبى ﷺ:

"كل بدعة ضلالة"

وفى حديث معاوية مرفوعا :

"يكون أقوام تتجارى، بهم تلك الأهواء ، كما يتجارى الكَلِبُ بصاحبه ، فلا يبقى منه مفصل إلا دخله" تتابع عليه هشام بن عماد

ومحمد بن مصفى الحمصى وكلاهما صدوق .

وحذر صاحب الشريعة ﷺ من هؤلاء فى الصحيح عنه من حديث عائشة :

"إذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه ، فأولئك الذين سمى الله فاحذروهم" .

بَعْضُ الطوائف المبتدعة

وأسرد هنا تعريفا موجزا ببعض الطوائف المبتدعة ، خصوصا من استمرت بدعتهم إلى عصرنا هذا ، محيلاً إلى أشهر المراجع عنهم :

١ - **الاباضية** : وهم أشهر فرق الخوارج ، ولهم - على رغم أنهم أقل الخوارج شطَطًا - مخازٍ وعوارت لمخالفة أهل الحديث ، قال ابن حزم : "وشاهدنا الاباضية بالأندلس يحرمون طعام أهل الكتاب، وقضيب التيس والثور والكبش ، ويوجبون القضاء على من نام فى رمضان نهارا فاحتلم ...." {الفصل : ١٤٤/٤} .

وحكى لهم مخازٍ قطاع راجعها .

والاباضية منتشرون اليوم فى عمان وبعض بلاد المغرب العربى، ومن مخالفاتهم القول بخلق القرآن وهى بدعة بشر المريسى التى ابتدعها .

{وانظر : مقالات الاسلاميين : ١٨٣/١ . الشهرستانى ١٤١/١}

٢ - **الجهمية** : أتباع جهم بن صفوان . وهم القائلون بالقدر . على أن معظم بدعتهم التى هى قائمة إلى اليوم القول بأن الله ليس فى السماء . وقد سُمُّوا اليوم وشهروا من قبل بالأشعرية .

{مقالات الإسلاميين : ٢٣٨/١}

٣ - **الأشعرية** : ينبغى أن يكونوا أتباع أبى الحسن الأشعرى. لكن الأشعرى رجع عن الكلام وبدع المتكلمين كما ثبت فى التاريخ، وكما خَطَّ بيمينه "الإبانة الصغرى" و "الإبانة الكبرى" ورسالته إلى

أهل الثغر . وقد طبع هذه مؤخرا د . الجليند - حفظه الله تعالى .

وهؤلاء الأشعرية يزعمون أن الله تعالى - كما هو مؤدى قولهم - لا يوصف بشئ من صفات الفعل ، وأنه ليس على عرشه ، وقد صرح جماعة من السلف بتكفير من قال إن الله ليس على عرشه .

٤ - **الإمامية** : وهم من أشهر فرق الشيعة التى عُرِفَتْ وبقيت ، وسُمُّوا إمامية لكلامهم فى الإمامة - وجعلها جزءا من العقيدة .

وهم الذين سمَّاهم السلف "الرافضة" . وقد اتفقوا على أن النبى قد نص على خلافة علىٍّ - وعينه باسمه - وبعضهم يرى أنه نبى - كما قال صاحب "التحفة الإثناعشرية" .

ويرى بعضهم أن القرآن قد حُرِّف . وهو موجود فى كتبهم مثل كتاب "الكافى" للكلينى .

{وراجع : مقالات الاسلاميين : ٨٨/١ ، الشهرستانى ١٢٧/١ ، الشيعة والتشيع : فرق وتاريخ ، الشيعة وتحريف القرآن - كلاهما للشيخ العلامة إحسان إلهى ظهير رحمه الله }.

٥ - **المعتزلة** : وهم أصحاب القول بأن الإنسان يخلق أفعاله بنفسه ، ويكادون ينفون القدر ويعطلون صفات البارئ سبحانه .

وما يزال منهم فريق من مفكرى اليوم يقدّمون مذهب المعتزلة فى القدر والصفات ، وكان (محمد عبده) شيخ الأزهر - المسمى بالإمام - يرى قريبا من رأيهم .

{وراجع : المقالات ١ / ٢٤٥ ، شهرستانى : ١ / ٥٠} .

٦ - هذا غير أهل البدع المكفّرة المخرجة من ملّة الإسلام ، مثل القاديانية وغلاة الصوفية من أهل الحلول والاتحاد ، والقرامطة، والنصيرية ، وغيرهم ولعلنا أن نُفْرِدَ لهم مقالة تبين خطرهم وأثرهم فى فكر المسلمين اليوم وواقعهم الحضارى . والله المستعان

محمد عبد الحكيم القاضى

التعريف بالبدعة

وأشهر أحكام المبتدعين

بقلم : محمد بن عبد الحكيم القاضى

(٢)

الفرق بين المبتدع والفاسق

قال الامام ابن الصلاح فى فتوى :

«كل مبتدع فاسق، وليس كل فاسق مبتدعا. والمراد: المبتدع الذى لا تخرجه بدعته عن الاسلام. وهذا لأن البدعة فساد فى العقيدة فى أصل من أصول الدين، والفسق قد يكون فسادا فى العمل مع سلامة العقيدة»

[فتاوى ابن الصلاح (قلعجى) ص ٧٧]

يقول محمد:

فرق علماء الحديث بين المبتدع والفاسق، وأصل التفريق أن البدعة متعلقة بالاعتقاد، والفسق متعلق بالعمل. والله أعلم.

مخالطة أهل البدع

قال الامام البغوى:

«فعلى المرء المسلم إذا رأى رجلا يتعاطى شيئا من الأهواء والبدع معتقدا - أو يتهاون بشئ من السنن أن يهجره ويتبرأ منه، ويتركه حيا وميتا، فلا يسلم عليه إذا لقيه، ولا يجيبه إذا ابتدأ، إلى أن يترك بدعته ويراجع الحق».

[شرح السنة (مجمع) ٢١٢/١]

وكان أحمد بن حنبل ينهى أن يكلم الجهمية والرافضة، والمخاصمين من المرجئة - أظنه يعنى الدعاة المجادلين.

[الأحكام الشرعية لابن مفلح ١ / ٢٥٩]

قال الامام مالك بن أنس رحمه الله :

«بئس القوم أهل الأهواء، فلا تسلم عليهم».

قال البغوى :

«وقد مضت الصحابة والتابعون وأتباعهم، وعلماء السنة -

على هذا، مجمعين على معاداة أهل البدع ومهاجرتهم»
[شرح السنة ١ / ٢١٧، ٢١٥]
وقال رجل من أهل البدع لأيوب السختيانى: ياأبا بكر. أسألك عن كلمة. فولى أيوب، وهو يقول بيده: «ولانصف كلمة»
[صون المنطق والكلام للسيوطى ص ٥٩]
قال محمد:
وهو داخل فى عموم الحذر الذى أمر النبى ﷺ فى قوله:
«أولئك الذين سمى الله، فاحذروهم» ويشترط فيه عدم الافضاء الى مفسدة، أو صد عن سبيل الله. فمن آنس المرء فيه خيرا، وغلب على ظنه أن مخالطته تعينه على نفسه، وتقوى عليه شوكة الحق، وتكون سببا فى هدايته فذلك أولى، وهى من الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة» ومن رأى أن هجره سيستصلحه وأن مخالطته ستفسده، وتؤمنه على معتقده، وتزيد شوكته وتغره وجب هجره .
نقل ابن مفلح عن الامام أحمد:
«ويجب هجر من كفر أو فسق ببدعة أو دعا إلى بدعة مضلة، أو مفسقة على من عجز عن الرد عليه أو خاف الاغترار به والتأذى به دون غيره»
قال: «وقيل: يجب هجره مطلقا. وهو ظاهر كلام الامام أحمد رضى الله عنه السابق - وقطع ابن عقيل به فى معتقده. قال: ليكون ذلك كسرا له واستصلاحا»
[ابن مفلح ١ / ٢٦٨]
قال محمد:
قد رأيت مايظهر من كلام الامام أحمد، وما علل به ابن عقيل، وعلمت مقاصد الشريعة الغراء. وعلى الله القصد.

وجوب الإنكار عليهم

عقد الامام ابن مفلح فى كتابه فصلا بعنوان:
(فى وجوب إبطال البدع المضلة ...)
«قال فى نهاية المبتدئين :
ويجب إنكار البدع المضلة، وإقامة الحجة على إبطالها سواء قبلها قائلها أو ردها»
[الآداب الشرعية ١ / ٢٣٧]

قال محمد:

البدع هى أنكر المنكر، لكن الجدال فيها إن أفضى إلى مفسدة أو مجاراة لأهل الباطل فى جدلهم ومماراتهم فلا أحب للمنكر ذلك.

كان أيوب السختيانى لايعجبه مخاصمة أهل الأهواء لأن فى ذلك إعلاء لهم. وكتب رجل إلى الامام أحمد يسأله عن مناظرة أهل الكلام والجلوس معهم. قال: «الذى كنا نسمع وأدركنا عليه من أدركنامن أهل العلم أنهم كانوا يكرهون الكلام والخوض مع أهل الزيغ.. »

وقال الشافعى: «ماناظرت أهل الكلام إلا مرة، وأستغفر الله عز وجل من ذلك».

طلب العلم عندهم

نصَّ الامام أحمد رحمه الله على المنع من النظر فى كتب أهل الكلام والبدع المضلة وقراءتها وروايتها.

[الآداب الشرعية ١ / ٢٢٣]

قال محمد:

ولا أعلم خلافا فى تحريم النظر فى علم الكلام بقصد طلبه. إنما الذى جوزه بعضهم النظر فيه لعالم فى الشريعة بقصد رده ومعرفة عواره وتعريفه للناس.

وقد كان السلف يقولون:« من تعاطى الكلام فقد تزندق »

قال محمد:

لكنْ طلبُ العلوم التى عندهم - غير البدعة - إن كانت عند بعضهم علوم غيرها، كالحديث والفقه واللغة، فأكثر أهل العلم على جواز ذلك إذا لم يكن المبتدع داعية لبدعته. وهو مستوفى فى كتب مصطلح الحديث. والله أعلم.

الصلاة خلْفَ المبتدعة

قال على المدينى:

«القرآن كلام الله. من قال: إنه مخلوق فهو كافر- لايصلىّ خلفه »

[خلق أفعال العباد - للبخارى]

وقال أبو عبد الله البخارى:

«ما أبالى صليت خلف الجهمى والرافضى أم صليت خلف اليهود والنصارى» [شرح السنة ١ / ٢١٦]

قال محمد:

وهذا ينسحب على أهل البدعة المكفرة. وهذا مذهب أحمد أيضا. وكان الشافعى يكره الصلاة خلفهم على الإطلاق، مع جوازها عنده .

لعنُ أهل الأهواء

قال الإمام ابن تيمية:

«فى لعن المعين من الكفار من أهل القبلة وغيرهم، ومن الفساق بالاعتقاد أو بالعمل لأصحابنا فيها أقوال:

أحدها: أنه لايجوز بحال .....

والثانى: يجوز فى الكافر دون الفاسق .

والثالث: يجوز مطلقا.

[ابن مفلح ١ / ٣٠٣]

قال محمد:

هذا فى لعن المعيّن، مع الاتفاق على جواز اللعن المُطلقَ لأهل الأهواء، خصوصا من فسق ببدعته أو كانت مكفّره، لأنه ظالم ولعنة الله على الظالمين آية متلوّة ووحى منزل لايشاح من ردّه.

قال تعالى:

«ألا لعنة الله على الظالمين»

فأما المعين فالخلاف فيه واقع. وإذا لم تكن البدعة مكفرة أو مفسقة، وكان التأويل فيها ليس شديد الضعف كالمرجئة غير المخاصمين فالذى أرجو أن يدخر لهم الدعاء بالهداية.

توبة المبتدع

قال ابن مفلح :

«ومن تاب من بدعة مفسّقة أو مكفّرة صحّ - إن اعترف بها، والا فلا» ويدخل فى الاعتراف بها: الرجوع عنها واعتقاد ضد ما كان يعتقد من الباطل، بل واعلان ذلك للناس .

[الآداب الشرعية ١ / ٥١٢٦]

قال محمد :

هذا ماتستريح له النفس، وهو الموافق للشريعة، فمن يسرت له التوبةعلى هذا الوجه فنرجو أن تُقبل منه ظاهرا، وأن يُكفَّ عنه، وأن يُتَولَّى ولا يُهجَر .

وقد قبل أهل العلم توبة المبتدعين، وبعضهم من حَسُنَ دينه بعد التوبة. وعرضت لبعض تراجمهم فى أحد ملاحق «الجرح والتعديل» للقاسمى

واستبعد بعض العلماء أن يقدر لهم توبة لحديث: «إن الله احتجر التوبة على كل صاحب بدعة» وأطال فى تفصيل هذا الأمر الامام الشاطبى فى «الاعتصام» ٢ / ٤٥٦ حين تحدث عن قول النبى صلى الله عليه وسلم:

«وانه سيخرج فى أمتى أقوام تتجارى بهم الأهواء كما يتجارى الكلب بصاحبه» الحديث.

وقال إن للحديث وجهين: أولهما أن صاحب البدعة لايتوب من بدعته ولايرجع عن هواه.

والثانى: أن من أمته من يكون عند دخوله فى البدعة مشرب القلب بها فلا يمكنه التوبة منها، ومنهم من لايكون كذلك، فيمكنه التوبة منها.

واحتج للوجهين (ص ٤٥٦) ثم قال: «وهذا الثانى هو الظاهر» قال:

«ويبعد أن يريد أن فى مطلق هذه الأمة من يشرب تلك الأهواء.....

قال محمد عفا الله عنه:

وعليه يمكن حمل حديث احتجار التوبة - إن صح وذلك لأن باب التوبة مفتوح للفاسق بالفعل، فكيف بالمشتبه المتأول؟ وإلا فيمكن حملها على المعاند القلب الذى يتمسح فى المتشابه عنادا - لا بنوع شبهة. وهؤلاء يضبط فى الظاهر والله تعالى أعلم.

والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات.

اللهم يسر لنا هدى لا ضلال بعده. وأقمنا على حجة نبيك محمد ﷺ، وتقبل منا توبتنا وأصلح لنا أعمالنا.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

محمد عبد الحكيم القاضى

هذا هو التطرف

بقلم: محمد عبد الحكيم القاضى

الحمد لله الذى يهدى من يشاء ويضل من يشاء، ويرفع بكتابه أقواما ويضع آخرين .. وبعد:

فهذه عُجَالةٌ جاد بها القلم وسط ذهول العقل ودهشة الفكر، وللقلم نَزَقٌ يتأبَّى استحلاب التأمل، ويستعصى على اجتناء ثمار التروى والدراسة.

ولكن هيهات أن يزل هذا القلم فى هذه العُجَالة، وقد استفتى فى كل ما كتبه أكابر العلماء، وأفاضل السراة والرؤساء، فما كتب حرفا إلا وله فيه - والحمد لله - سَلَفٌ أىُّ سَلَف.

معنى التطرف:

قال ابن فارس فى المقاييس (٤٤٧/٣): «الطاء والراء والفاء أصلان: فالأول يدل على حَدِّ الشىء وحَرْفه، والثانى يدل على حركةٍ فى بعض الأعضاء، فالأول طَرْف الشىء والثوب والحائط.

ويقال: ناقةٌ طَرِفَة: ترعى أطراف المرعى ولا تختلط بالنوق .....

ومن الباب: الرَّجُل الطَّرِف: الذى لا يثبت على امرأة ولا صاحب.... والمرأة المطروفة يقولون: إنها التى لا تثبت على رجل واحد، بل تطَّرِف الرجال» أهـ

قلت: والتطرُّف تفعُّل من هذا جميعا. قال شيخ أساتذتنا الشيخ أحمد الحملاوى فى كتابه "شذا العرف فى فن الصرف" صـ٤٥

"تَفَعَّلَ: تأتى لخمسة معانٍ:

أولهـا: مطاوعة فعَّل مضعّف العين؛ كنبَّهتُه فتَنَبَّهَ ....

وثانيها: الاتخاذ؛ كتوسد ثوبه اتخذه وسادة ....

وثالثها: التكلف؛ كتصبَّر وتحلَّم .....

ورابعها: التجنُّب؛ كتحرَّج ... تجنب الحرج ....

وخامسها: التدريج؛ كتجرّعت الماء ... أى شربت الماء جرعة بعد أخرى .....

وربما أغنت هذه الصيغة عن الثلاثى لعدم وروده؛ كتكلّم وتصدّى أهـ

وزاد أستاذ أساتذتنا الشيخ محمد محيى الدين عبد الحميد فى كتابه "دروس فى التصريف" معنى سادساً هو: "الطّلب: نحو (تكبّر، وتعظّم، وتيقن، وتثبّت ....) أهـ صـ٨٠

قلت: فأين يقع معنى (التطرُّف) من هذا؟

- يُحتَمَلُ أن يكون مطاوَعَةً لفِعْلٍ نَفْسِيٍّ أو غيْرِىٍّ هو: طرّفَهُ فتطرّف

- ويحتمل أن تكون طلبا - يعنى طلب أن يكون على طَرْفٍ، أو أن يكون طَرِفة أو طِرْفاً .....

هل المفتى متطرف؟

وقد وزّعت مجلة الأزهر فى عَدَدَيْن لها بَحْثَيْنِ عن التَّطرُّف - كل منهما جادٌّ ومفيد فليراجعا لمن شاء. والفائدة التى فيهما - على حسب ما أذكر - أنهما يُوَزعان التهمة بالتطرف - يوزعانها بالقسط بين الفَرْدِ المتشدِّد والفَرْدِ المُفَرِّط، والحكومة المتهاونة بالشَّرْع. وهذا توزيعٌ عادل؛ لا يُظْلَمُ فيه الضعيف، ولا يُحَابى فيه القوىُّ - وإن كان الكَيْلُ فى أحدهما قد مالَ قليلا.

وقد اكتشف القلم - بعد طول احتراز - أنَّ أولى ما تنصرفُ إليه هذه التّهمة، ويلتصق به هذا الوصف هو مفتى الجمهورية - فهو - والله - رداؤه الذى كأنه خُلِقَ من أجْلِه. وإليك البيان:

موقع بمخالفة الإجماع

يُسَمِّى الأصوليون والفقهاء مخالف الإجماع شاذًّا، وهذا أمر أشهر من أن يُحَالَ إلى مصادره، وأظهر من أن يُحتال لمناصرته وتكلف الاستدلال عليه. والمفتى - هداه الله تعالى - قد أولِعَ بمخالفة الإجماع المستيقن، بل والنَّصِّ الثابت؛ وبحسبك دليلاً على ذلك فتواه فى "الربا" إذ الإجماعُ فى ربا القروض مستيقن ظاهر

مثل الشمس فى رابعة النهار، وعليك بالألفاظ الصريحة فى نقله، أحيلك على بعض مصادرها؛ مثل: (مجموع الفتاوى لابن تيمية ٥٣٥/٢٩، المحلّى لابن حزم (٥٠٩/٩)، المغنى لابن قدامة ٣٦٠/٤، القرطبى فى التفسير ٢٤١/٣، الإجماع لابن المنذر وقال الأستاذ الشيخ أبو زهرة فى بحوثه فى الربا صـ٣٠: " .... الأمر الثانى:

هو إجماع العلماء على أنّ الزيادة فى الدّين نظير الأجل هو رباً مُحرّم ينطبق عليه النّصّ القرآنى، وأنّ من ينكره أو يمارى فيه فإنّما ينكر معلوماً من الدين بالضرورة، ولا يشك عالمٌ فى أى عهد من عهود الإسلام أنّ الزيادة فى الدّين نظير تأجيله ربا لا شك فيه" أهـ كلام شيخنا. وقد اجتمعت كلمة أهل العلم فى العصر الحديث على ما اجتمعت عليه كلمة سلفهم - وأنّى لهم مخالفتهُم - وأبى المفتى إلاّ المخالفة.

نقول للمفتى: انظر أيها الرجل مَنْ تخالف؟

تخالفُ كتابَ ربّك وحديث نبيك وقول خير من أقلّت الأرض بعده - صحابته وتابعيهم - وأهل العلم من بعدهم. تخيّلْ أنّك قلت قولتك هذه فى عهد مالك بن أنس فقيه المدينة، والله لحَذَفَكَ بنعله، ولطردك من مسجد رسول الله ﷺ .

العلماء سمكرية!

ولكن مَنْ هؤلاء العلماء عند المفتى؟ إنهم "سَمْكَرِيّة" هكذا حَدّثنى الثقة ثم نَشرت الجرائد عنه أنه ذكر له أحد الدعاة أن العلماء قد أثبتوا خطأ فتواه، فقال له المفتى: من هؤلاء؟ إنهم سمكَرِيّة ....

ولا أدرى من يكون المفتى - أو ما يكون - إذا كان أهل العلم عنده سمكريّة؟

وقد قرأتُ له كلمة فى إحدى الصحف السيّارة يقول فيها عن رجلٍ قوّم فتواه فى الربا فوضعها فى موضعها الصحيح وهو أنها تساوى "صفْر على الشمال" قال المفتى تعليقا على ذلك إن الذى كتب هذا القول هو "كلب ابن كلب" ! هل تجد يأيها القارىء الكريم وَصْفاً لمن يدافع عن شذوذه فى الرأى، ومخالفته اجماع السلف

والخَلَف، ويدافع عن ذلك جميعا بهذه الألفاظ. هل تجد وَصْفاً له أوجز ولَا أكثر إنصافاً له أو تأدُّبًا معه من كلمة "مُتَطَرِّف" (١)؟

وشبيه بهذا أو قريب منه فى المَخْرَج ما سمعتُه يقوله بأذنى، فى أحد برامج المذياع - حين سأله المذيع رأيه فى فتاة ارتدت النقاب وترى أن الموسيقى حرام، وحفلات الرقص حرام، وتريد أن تتزوّج شابًا ذا لحية وقميص أبيض وسواك .. قال رأيه الجرىء: "أرى أن تذهبوا بها إلى مستشفى الأمراض العقلية" !!

وللتطرف وجه آخر:

ونترك التَّعْليقَ على هذا السخف البارد، منقلبين إلى معنى آخر للتطرف أشَار إليه ابن فارس فى كتابه السابق، وهو قوله: "ومن الباب: الرجلُ الطَّرِفُ: الذى لا يثبت على امرأة ولا صاحب..." الخ ما نقلنا فى صدر المقالة. يقول العبد الفقير إلى الله تعالى: وللمفتى - هداه الله تعالى- فى هذا الأمر صَوْلاتٌ وَجَوْلات، فلا يكاد الرجل يستقر على الرأى الواحد فى المسألة أشهُراً؛ وإليك البيان:

- فى تفسيره لسورة الأحزاب من "تفسيره الوسيط" رجَّح المفتى رأى القائلين بوجوب النقاب وتبنَّاه. ثم لمَّا نادى منادى العير صرخ المفتى فى القوم أن النقاب مستحب لا واجب، وأنه إذا تعارض مع دواعى الأمن وجب المصير إلى دواعى الأمن وترك النقاب.

ثم أخرج الغزالى كتاب السنة بين أهل الفقه وأهل الحديث فتبنَّى الرجل قوله، ونشرت الجرائد أن المفتى يقول بأن النقاب ليس فرضاً ولا سُنَّةً، وأشار إلى كتاب الغزالى.

ثم أخيرا نشر المدعوّ اسماعيل منصور كتابه - أو مقالاته التى تبين جهالاته - فتابعه عليها، وبدأ يُقسم ويتحدَّى أن يكون هناك

---

(١) وراجع أيضا مقالتنا: الإنكار على مفتى الديار - التى نشرت فى عدد صفر ١٤٠٩ بمجلة التوحيد تجد نماذج أخرى من الشذوذ فى الرأى والتطاول على المخالفين، وهم الذين معهم الحق.

حديث أو آية فى النقاب. وأثنى على الكتاب الملىء بالجهل خيراً، واسم المقالات "تذكير الأصحاب بتحريم النقاب"ولعله أن يكون لنا معه جَوْلة ظافرة ان شاء الله تعالى.

مثال آخر:

وأفتى محمد طنطاوى مفتى الجمهورية فى ١٤ من رجب سنة ١٤٠٩، وتحت سجل ١٢٤/٤١ بتحريم ربا البنوك صراحة غير لَبْس، ونقل الإجماع عليها ليس فى ديننا فقط وإنما قال: إنه "أمر مجمع عليه فى كل الأديان السماوية". وها هو ذا يطالعنا اليوم بما رأى الناس.

ولو كان تغيرِ الفتوى بهذه السرعة والسهولة والانقلابية فى أمور جديدة لم يُدْلَ فيها بدلوٍ لكان للعُذْر وجه - ولكن هذه مسائل نَفَضَ العلماء منها أيديهم، وها هو ذا يقول فيها القول وراء القول وراء القول - وكل من هذه الأقوال مخالف لصاحبيه !

إذن: فالمفتى متطرف من الطَّرْف والطَّرافة مَعًا.

وهذا هو التطرف الغنىّ بمعانيهَ اللغوية والصرفية...

ربنا أفرغ علينا صبرا، وثبت أقدامنا، واكتبنا فيمن هديت وتوليت وألحقنا بالصالحين

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وسلام على المرسلين،

محمد عبد الحليم القاضى

الإنسان

بين الذنب والمغفرة

بقلم: محمد عبد الحكيم القاضى

مقدمة

اللهم ربنا لك الحمد – ملء السموات وملء الأرض وملء ما بينهما وملء ما شئت من شيء بعد – أهل الثناء والمجد، أحق ما قال العبد، وكلنا لك عبد:

"لامانع لما أعطيت، ولا معطى لما منعت، ولا ينفع ذا الجد منك الجد".

اللهم اجعل صلواتك وتسليماتك وبركاتك على محمد وعلى آل محمد كما صليت وباركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم فى العالمين إنك حميد مجيد.

اللهم اجعل عملنا مقبولاً، واجعله فى ميزان حسناتنا واعف عن سيئاته وتجاوز عن هناته، إنه لا كامل إلا ما أكملت، ولا حَسَن إلا ما حسنت، ولا سهل إلا ما جعلته سهلاً، وإن شئت جعلت الحَزَن سهلاً.

وبعد:

فهذه الأنفس الضاجة فى ميادين الحياة الدنيا، الموغلة بالمنى والأعمال فى طيبات العيش وملذات الحياة.

هذه الأنفس المثقلة بمتاعب الكد العاجل، والشغل الشاغل المعبأة بهموم المال ووسائله، والشرف ومسائله – نقول: هذه الأنفس ما أحوجها إلى إزاحة الأثقال، وإراحة الأحمال، وشهيق عميق بـ "ولا حول ولا قوة إلا بالله العظيم .. ربنا ظلمنا أنفسنا، وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين"

ومثل هذه الإفاقة عملية عسيرة إلا على من أصلح الله نفسه، وأراد له السعادة، وكتب له النجاة من الشقاء الممدود، والعيش المنكود، فانفتح مورد البصيرة من فؤاده، وانشق صخر الجفاء من قلبه، فانبجست منه عيون الذكرى. "وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار، وإن منها لما يشقَّق فيخرج منه الماء وإن منها لما يهبط من خشية الله"

ذلك أن خمر الغفلة التى أشربتها القلوب من كأس الجهالة قد فعلت أفعالها بالنفوس، وزلزلت زلزالها، حتى ضلت ضلالها، فما عرفت ما عليها ومالها، ثم رأت نفسها سكرى تترنح فى ريح الشهوة الهوجاء، تكفهر لها الطرق فتحسبها مبتسمة لها، وتتجهم لها البلاد فتظنها منشرحة من أجلها، ولا تكاد بعض هذه القلوب تفيق إلا على وخزة الموت القاسية، حين تفزع فلا مفزع، وتندم ولا مندم، وتؤخذ فلا فوت: "وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منه تحيد، ونفخ فى الصور ذلك يوم الوعيد، وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد، لقد كنت فى غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد"

والناصح الأمين فى هذه الدنيا ما أقلَّه !

والطبيب المخلص فى هذه الحياة ما أندره !

لقد خفّت السوق من هؤلاء، وتجافت عنهم البلدان، واستثقلتهم الأرض، فإما ظاعن عن داره، وإما ذاهل عن قراره، وإما يائس من الإصلاح، وإما عاجز عن الإفصاح. والناس - عافاك الله - لا تحمد ناطقًا إذا نطق، ولا تعفى ساكتًا إذا سكت، ما الموعظة لهم مصلحة، وما السكوت عنهم عاذر. والدعاة - أصلحك الله - همم وقوى؛ ليسوا فى العزم سواء: فمنهم الناهض الذى يتمثل أولى العزم من الرسل، ومنهم الخامل الذى إذا أطيع أشرف، وإذا عصى أسفل، وإذا رُغب إليه أنجد، وإذا رُغب عنه أتْهم.

فياالله من يفتح مغاليق القلوب الجافة، ويروى جذور الأغصان اليابسة، وينفح بالشذا مواجد النفوس الكئيبة، ويرأب بالنُّهى معاقل الفكر المحطمة، ومن للهاث القوم من الحرور يذودون رحالهم من القيظ، وما هم بأغنى منها عن الظل، من لهؤلاء يدلهم على موارد الماء ومنابت الكلأ.

وها هو ذا رب هذه البشرية يعلن عن إباقها من عبوديته وتمردها على جلاله:

"ظهر الفساد فى البر والبحر بما كسبت أيدى الناس ليذيقهم بعض الذى عملوا لعلهم يرجعون" وها هو ذا يحذرهم خطر هذا الإباق، ومغبة هذا التمرد: "... يأيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم متاع الحياة الدنيا ثم إلينا مرجعكم فننبئكم بما كنتم تعملون. إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازيَّنت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلاً أو نهاراً فجعلناها حصيداً كأن لم تغن بالأمس كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون"

فهل تفكر الإنسان وهل رجع ؟ أم مازال نائيا بجنبه، لاهيًا بقلبه، مصدقًا ظن إبليس - عليه اللعنة - مستوجبًا تمام الغضب من الله تعالى بعد تمام الإعذار بخلو النذير، وتمام الإنذار قبل النكير:

"يا حسرة على العباد ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزءون. ألم يروا كم أهلكنا قبلهم من القرون أنهم إليهم لا يرجعون. وإن كل لما جميع لدينا محضرون"

"اقترب للناس حسابهم، وهم فى غفلة معرضون. مايأتيهم من ذكر من ربهم محدث إلا استمعوه وهم يلعبون. لاهية قلوبهم"

ولكن ربك لا يعجل بالغضب، وهو الذى كتب على نفسه الرحمة، وكتب على العرش "إن رحمتى سبقت غضبى" وإنما يؤخر إلى أجل، عسى أن يستعتب ذو قلب، أو يراجع ذو نُهى، أو تكون معذرة لعزيز يأخذ، وجبار يقصم: "وربك الغفور ذو الرحمة لو يؤاخذهم بما كسبوا لعجّل لهم العذاب بل لهم موعد لن يجدوا من دونه موئلاً، وتلك القرى أهلكناهم لما ظلموا وجعلنا لمهلكهم موعداً".

فإن كانت قلوب الناس قد قست، فطمسوا معالم فطرة الله فى نفوسهم، وأغلقوا منازل الضياء فى ضمائرهم، فهل يرجو الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن تنبثق من حنايا النفوس المظلمة أشعة الهدى، وتترقرق من تجاويف الأرض الجدبة قطرات الحياة "ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون. اعلموا أن الله يحى الأرض بعد موتها. قد بينا لكم الآيات لعلكم تعقلون".

يتبع إن شاء الله

محمد عبد الحكيم القاضى

الإنسان

بين الذنب والمغفرة

بقلم: محمد عبد الحكيم القاضى

٢

بيان الطريقة الربانية

فى تكفير الخطايا على وجه الإيجاز والاختصار

اعلم – وقاك الله الزلل – أن غضبة الله قاصمة، وأن سخطه مدمر، وأنه ربنا الجبار العزيز، وأنه – تعالى – يرضى لعباده الشكر ولا يرضى لهم الكفر، وأنه وضع السدود بين المرء وبين الشرك به، وأرسى الحوائل بينه وبين معصيته – تبارك وتعالى – فمن اقتحم هذه السدود واجترأ على محارم ربه فقد كفر نعمة الله عليه بالعصمة، ونكت فى قلب نفسه نكتة سوداء لا تنحل إلا بالتوبة، واستكره الملائكة الأبرار على أن يكتبوا فى صحائفه أنه آذى ربه، وأسخط مولاه.

ويظل هذا المكتوب وثيقة منشورة، وحجة مشهورة، وراية على الخيبة مرفوعة حتى يلقى الله ناكلاً عن طاعته، مائلاً عن رضاه وما يمسح ذلك إلا أن يكفر الله أو يعفو، وهذا من فضل الله الذى يؤتيه من يشاء.

معنى العفو والمغفرة والتكفير:

والله – صاحب الفضل – يفرق فضله كيف يشاء، ويمنع فضله من يشاء، فالسعيد السعيد من سمح الله له بجوانب فضله، والشقى الشقى من حرم نفسه.

فمن فضله تعالى أنه قد يعفو عن الذنب:

والعفو هو التجاوز بغير عقوبة صغيرة ولا كبيرة، وهذا غالب صنيعه مع المجتهدين وأصحاب الضرورات والمتجاوزين عن الزلات وخلقًا يعلم الله ما يصلحهم، وهذا هو خُلُق الله تعالى. "إن تبدوا خيراً أو تخفوه أو تعفو عن سوء فإن الله كان عفوًا قديراً" (النساء/١٤٩)

ومهما عظم الذنب فإن العفو أعظم، خصوصًا مع الذين علم الله فيهم خيراً، وها هو ذا رب العرش يخاطب أصحاب النبى ﷺ وكانوا يصومون من الليل إلى الليل إلا ساعة يسيرة من أول الليل فلربما استكثر بعضهم من وقت فطره حتى ذهبت هذه الساعة ودخل صومه، يقول تعالى: "علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم فتاب عليكم وعفا عنكم" وها هو ذا يخاطبهم – وقد عصوا رسولهم بعد ما أراهم ما يحبون فى أحد – فيقول لهم: "ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه حتى إذا فشلتم وتنازعتم فى الأمر وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة، ثم صرفكم عنهم ليبتليكم، ولقد عفا عنكم، والله ذو فضل على المؤمنين" بل لقد يعفو الله عن الذنب الجسيم والجرم العظيم فلا يأخذ به فى الدنيا عسى أن يستبصر ضال فيشكر هذه النعمة، وينخلع عن آثامه: "وإذ واعدنا موسى أربعين ليلة ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون ثم عفونا عنكم من بعد ذلك لعلكم تشكرون" إلا أن الله ذا الفضل كما يمن على عباده بالعفو أحيانًا يمن عليهم بالتكفير أحيانا أخرى:

والتكفير: هو ابتلاء دنيوى يمسح الله به الذنب. وهذا التكفير هو الفارق فى خُلق الله تعالى بين المؤمنين والكافرين. فالكافرون مأخوذون بذنوبهم فى

الدنيا والآخرة – على سبيل الانتقام لمحارم الله المنتهكة، والغيرة على حدوده المقتحمة: "فلما آسفونا انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين".

وأما المؤمنون فابتلاؤهم فى الدنيا ليس على سبيل الأخذ والانتقام وإنما هو على سبيل التذكرة ومحو السيئات، وفى هذا التفريق نذكر قول الخالق سبحانه: "الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله أضل أعمالهم. والذين آمنوا وعملوا الصالحات وآمنوا بما نزل على محمد وهو الحق من ربهم كفر عنهم سيئاتهم وأصلح بالهم" وهذا التكفير يكون عظيما جسيمًا ويكون رقيقًا رفيقًا.

* فلربما كفر الله الذنب بابتلاء عظيم كفقد البصر أو الأولاد أو نحو ذلك من البلاء العظيم، ومثل هذه البلاءات ربما زادت عن حجم المحو إلى أن تكون سببًا فى تبديل الذنب حسنة لعظمها وعظم الصبر عليها، لذلك كان فقد العين سببًا فى دخول الجنة "من فقد إحدى حبيبتيه دخل الجنة" وكان فقد الأولاد حجابًا من النار، كما صحت الأحاديث. ولربما صغر البلاء حتى كان شوكة يشاكها المرء فتكفر بها الخطايا كما صح الحديث.

وعلى العموم فلقد صدق أبو القاسم ﷺ "لا يزال البلاء بالعبد حتى يسير على الأرض ليس عليه خطيئة"

أنواع الكفارات

والشارع الحكيم فى فضله على العباد بمحو الخطايا، ورحمته بهم فى تجديد الإيمان، شرع أنواعًا من الكفارات، فبعضها راجع إلى التجديد أو التقنين، وبعضها راجع إلى الجنس أو الحجم.

ما يرجع إلى الجنس أو الحجم:

تحدثنا آنفًا عن حجم الكفارة من حيث الضخامة والصغر ومبلغ ما تصل إليه من أثر، ولنتحدث الآن عن جنسها. فاعلم – حفظك الله – أن محو الذنوب يكون إذا بر المرء ورحمه الله – بإحدى ثلاث:

* اتباع السيئة الحسنة.
* أو بلاء فى الدنيا.
* أو شدة فى المحشر.

- فالأولى يقول فيها الرب تعالى: "أقم الصلاة طرفى النهار وزلفًا من الليل إن الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين"

وفى الحديث: " ... وأتبع السيئة الحسنة تمحها ..." وهو حديث حسن مقبول.

وبقدر عظم الحسنة يكون أثرها المحمود. أفرأيت إلى أهل بدر، كيف جزاهم الله بإحسانهم وغفر لهم ما تقدم وما تأخر، وقال لهم: "... اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم" وهذا حديث حسن صحيح.

والتوبة: هى إحدى الحسنات العظام؛ بل هى شرط الكفارات جميعًا - كما سيأتى إن شاء الله - وبقدر حسن التوبة وما يلازمها من صلاح تندفع السيئة، ولقد بدل الله سيئات أقوام جسنات لما رأى صحة توبتهم "فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفورًا رحيمًا".

وتابت امرأة توبة لو وزعت على أهل المدينة لوسعتهم. وتاب رجل توبة لو تابها صاحب مكس لوسعته ..

نعم ...

"الندم توبة"

ولكن إحسان الندم يجتلب إحسان المغفرة وبقدر فراغك من حولك تدخل فى حول الله الذى لا حول إلا به

ما يرجع إلى التحديد أو التقنين:

شرع الله لبعض السيئات كفارات خاصة، لا تنطمر آثارها ولا يهدأ غبارها إلا بها، وترك أخريات تكفرهن الصالحات والبلاءات.

- فنسيان الصلاة لا كفارة لها إلا صلاتها حين ذكرها
- كذلك النوم عنها لصحة الحديث فى ذلك.
- والبصاق فى المسجد خطيئة كفارتها دفنها.
- والظهار معصية كفارتها الصيام المحدد فى الشرع أو بدائله الشرعية .
- وقتل الصيد فى الحرم خطيئة كفارته إهداء مثل ما قتل من النعم يحكم به ذوا عدل بشرط عدم العودة إلى ذلك.

إلى آخر مثل هذه الكفارات المحددات التى لا تصلح بغيرهن التوبة ولا يصلح من دونهم الندم، وهذا قليل فى الذنوب.

وأما أكثر الخطايا فكفارتها متروك أمرها للتائب على قدر اجتهاده فى الصالحات، وتغانيه فى الطاعات والله من وراء ذلك واسع عليم

شروط التكفير

قال الله تعالى: "ورحمتى وسعت كل شىء، فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون" الأعراف/١٥٦، ١٥٧ هذا فصل خاص ياأخى برغم سعته - أعنى تكفير الذنوب - ومنة الله على عبده بمحو سيئاته يشترط فيها شرطان:

* الإســـــــلام:

أعنى وقوفه على قاعدة "سمعنا و أطعنا" فإن كانت هذه القاعدة مهتزة لم يؤمن الله عليه، وإن لم تكن أصلاً فهذا خارج الدائرة. ألا ترى أن الله عز وجل يأخذ الظالم بكبار الذنوب وصغارها، ولا يأخذ المسلم بصغار الذنوب إذا سلمه الله من كبارها، ثم ألا ترى أن الله تعالى لم يذكر فى مننه على غير المسلمين أنه يعفو عن معصيتهم له - صغيرة أو كبيرة - بل أخذهم بمعصيتهم لما أشركوا، فأخذ ثمود بعقر الناقة، وأخذ الذين اعتدوا فى السبت باعتدائهم فيه، وهذه معاصٍ.

لكن الذين آمنوا أمة مرحومة لا تؤخذ بصغار الذنوب ما اجتنبت كبارها، ولاتؤخذ بكبارها ما استغفرت منها: "وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون"

* التوبـــــــــة:

فالمقيم على الذنب - لا يندم له قلب، ولا تدمع منه عين، ولا تراجع له فكرة، هذا مطموس البصيرة لا نفع فيه، ولا غفران لذنبه، ولابد أنه لاق ربه ومعه مثقال ذنوبه وجراب خطيئاته.

ومن عفو ربك ولطفه وواسع حلمه أنه أنظرك حياتك كلها كى تراجع. "فلولا إذا بلغت الحلقوم". ورأيت حتفك بعينيك حيل بينك وبين مخادعة الله بالتوبة، لأن الله تعالى لا يخدع: " ... وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إنى تبت الآن.."

ومنهج المدنية الحاضرة قائم على مخادعة الله فى كل شىء، وكذبوا - واللَّهِ - وجهلوا مقدار المالك سبحانه.

"يخادعون الله وهو خادعهم" ثم إذا صح العزم على التوبة إلى الله تعالى فلا يضره صغر حجم التوبة ولا كثرة تكرار الذنب.

- فالندم توبة

- وتكرار الذنب مع تكرار الاستغفار اعتراف بالخالق "علم عبدى أن له ربًا يغفر الذنوب .." لكن حذار انطماس البصيرة وذهاب ضياء الإيمان من القلب بممارسة المعصية والثبات على الخطيئة، والوقوف على قاعدة "عصينا" فهذا انقلاب من الإسلام إلى الكفر وانفلات من التوحيد والشكر إلى الشرك والجحود. "بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون"

آمنت بالله الغفور الرحيم البر التواب الكريم اللهم انقذنى من ظلمة الجهل إلى نور العلم.

وحولنى من حر المعصية إلى برد الطاعة واجعل لى نورًا. "ومن لم يجعل الله له نورًا فما له نور"

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

محمد عبد الحكيم القاضى

مع النبى ﷺ فى رمضان يومًا بيوم، وساعة بساعة

بقلم: محمد عبد الحكيم القاضى

إن الحمد لله الذى ينير الحقُّ وجه الدنيا بكلماته، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذى شفى الله بهديه العالم من ضلاله وشهواته. وبعد:

فهذه مقالة موجزة مقتضبة أهديناها لمن أشرقت أنوار الإسلام على قلبه، فأحَبَّ أن يرى فيها النبى ﷺ طوال شهر رمضان ... كيف كان يقضى يومه؟ وكيف كان يبيت ليله ؟ وكيف كان يشغل وقته ؟ وكيف كان يصنع مع الناس ؟ فإن لم يتسع المقام للإسهاب، فليتسع لذلك قلب العبد المؤمن الذى تتفجر الكلمات القليلة فيه أنهارا من المعرفة، وشموسًا من الهدى.

رمضان وذكريات النبوة:

لقد عرف النبى ﷺ رمضان من قبل النبوة؛ فقد كان هذا الشهر المبارك هو الموعد الذى ضربه مع نفسه – قبل البعثة – لكى يخلو عن صداع الناس إلى غار "حراء" يتأمل، ويتفكر، وهذا ما تسمّيه العرب (التحنث) – ومعناه الخروج من الحنث والبعد عنه، والحنث: الذنب والإثم. ويقولون أيضًا التحنف يعنى عبادة الله على ملة إبراهيم؛ يقول ابن إسحاق فى السيرة عن عُبَيد بن عمير. "كان رسول الله ﷺ يجاور فى حراء كل سنة شهرًا، .... يطعم من جاءه من المساكين ...، وكان هذا الشهر هو شهر رمضان"

ولا ينسى المسلمون أن جبريل إنما جاءه فى غار حراء فى هذا الشهر المبارك لكى يضمه إلى صدره، وينزل عليه آيات ربه فيحفظها النبى ﷺ، حتى إنه ليقول وهو يستجمع معالم هذه الذكرى: «فكأنَما كُتِبَتْ فى قلبى كتابًا»

ويبدو أن القرآن العظيم أراد أن يخلد هذه الذكرى فجعلها قرآنا يتلى على مرِّ القرون:

«شَهْرُ رَمَضَانَ الذِى أُنْزِلَ فيهِ القُرآنُ هُدًى للنَّاسِ، وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الهُدَى والفُرقَانِ» (البقرة/١٨٥)

وقد ذكروا أنَّ ذلك كان لأربع وعشرين ليلة خلت من رمضان.

ويبدو أيضا أنه ليس القرآن وحده هو الذى نزل فى رمضان، فقد روى الإمام أحمد فى المسند عن واثلة بن الأسقع مرفوعا قال: «نزلت صحف إبراهيم فى أول ليلة من شهر رمضان، وأنزلت التوراة لست مضين من رمضان، وأنزل الإنجيل لثلاث عشرة مضين من رمضان، وأنزل القرآن لأربع وعشرين خلت من رمضان» فلا عجب إذن أن نرى استعداد النبى ﷺ لرمضان، وصنائعه فيه:

الاستعداد لرمضان:

تظهر من آثار النبى الكريم أنه كان يبدأ استعداده لرمضان من شعبان، فعائشة تروى عنه أنه كان أكثر صياماً فى شعبان، ثم إذا اقترب الشهر من البدء فى أواخر شعبان بدأ النبى ﷺ يكف الناس عن الصيام حتى يكون للصوم فى رمضان رونقًا[1]، ويشدّد النبى ﷺ فى النهى عن صيام يوم الشك الذى لا يعرف على وجه اليقين أنه من رمضان لتكون البداية واضحة جلية، فإذا جاءت الليلة الأخيرة من شعبان اهتم النبى والمسلمون بالأمر، فخرجوا إلى الفلوات يستشرفون الهلال ويستقبلون القادم المبارك.

ونلاحظ اعتناء النبى المصطفى بأمر الهلال، فيضع له الضوابط، ويوجه أصحابه - وأمته من بعده - إلى أدق التفاصيل؛ يوجههم إلى أنهم إذا رأوا الهلال صاموا، وإذا لم يروه أفطروا، ويأمر بالفطر ولو كان الحائل عن الرؤيا غمامة أو سحابة، ويأتيه الرجل الأعرابى ليلة الشهر فيجده منتظراً، يقول له: «أبصرتُ الهلال الليلة».

فيقول له: «أتشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله - أو عبده ورسوله؟» فيجيب: نعم. فيقول ﷺ: «قم - يا فلان - فأذِّنْ بالناس فليصوموا غداً»، ثم هو لا يكف عن إرشادهم بعد ذلك إلى الأخطاء التى قد يقعون فيها إذ يتصور بعضهم

---

(١) أحاديث صيام أواخر شعبان فى الصحيحين وأبى داود وابن ماجة والدارمى والترمذى، كلهم فى «الصوم» بألفاظ ومعانٍ متفاوتة

إذا رأى الهلال كبيراً انه ابن ليلتين أو ثلاث ليالٍ .. فيخبرهم أن ذلك خطأ، وأنَّ المسلم لا يصح له أن يبنى تقديره فى ذلك على التخيل والتقدير البشرى؛ فيقول لهم: «إن الله مدّه لرؤيته، فهو ليلة رأيتموه»[1]

حياته ﷺ فى نهار رمضان:

ويأتى نهار رمضان، والنبى والصحابة صائمون، فيزداد خلق النبى ﷺ حُسْنًا على حُسْن، ويزداد جوداً على جود، يراه أصحابه إما فى بيته، فى مهنة أهله، يساعد نساءه، ويقضى حوائج نفسه، وإما فى المسجد، يرشد أصحابه، ويوجههم، ويفتيهم، يجيئه عدى بن حاتم الطائى ليسأله عن قوله تعالى: «وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر» أهما خيطان من خيوطنا ؟ فيقول له: «إنك لعريض القفا، أرأيت أبصرتَ الخيطين قط» ثم يقول: «لا، بل هو سواد الليل وبياض النهار»[2]

وربما سأله السائل عن أذان بلال وأذان ابن أم مكتوم، بأيهما يصومون، وعلى أيهما يعتمدون، فيقول: «إن بلالاً يؤذن بليل، فكلوا واشربوا حتى يؤذن ابن أم مكتوم»

وصيام النبى لا يغير من خلقه، ولا يضيق من صدره، بل هو الذى ينصح أصحابه: «وإذا سابَّك أحد أو قاتلك فقل: إنى صائم، إنى صائم» بل يأتيه الرجل فيردد عليه القول، ويناقشه المسألة، فما أوسع صدره معه، يقول له: هلكتُ يا رسول الله ! فيقول: ما أهلكك ؟ قال: وقعت على امرأتى فى شهر رمضان. قال: هل تستطيع أن تعتق رقبة ؟ قال: لا. قال: فهل تستطيع أن تصوم شهرين متتابعين ؟ قال: لا.قال: فهل تستطيع أن تطعم ستين مسكينا؟ قال: لا. قال: اجلس. فجلس، فأتى النبى ﷺ بعرق (كيل ضخم) فقال له: خذ هذا فتصدق به. فقال: يا رسول الله: أعلَى أهل بيت أفقر منا ؟ فما بين لا بيتها أفقر منا ! فيضحك النبى ﷺ حتى تبدو نواجذه، ويقول له: «اذهب فأطعم أهلك»[3]

---

(١) خرجه مسلم فى «الصيام» من حديث ابن عباس

(٢) البخارى فى التفسير «تفسير سورة البقرة» وروى بهذا المعنى فى مسلم والنسائى والموطأ وغيرهم.

(٣) متفق عليه. رواه كلاهما فى كتاب الصيام. وله لفظ عند مسلم فيه أن الرجل جاء النبى فى المسجد فى رمضان واستفتاه.

وهو فى نهار رمضان يأخذ زينته كاملة؛ يتطيب، ويستاك، ويكتحل، ثم هو لا يمتنع عن ملاطفة أهله بل ربما قبَّل عائشة رضى الله عنها وهو صائم.

وهو بعد ذلك لا يمنعه صومه من حياته الطبيعية، يسافر وهو صائم، وقد يحل لأصحابه الفطر، ويأمرهم به، وقد يفطر إذا اشتد الأمر بأصحابه، يصنع ذلك لكى يقتدوا به، فلا يشق عليهم بصومه، وربما خرج مع ثوبان رضى الله عنه إلى البقيع يحدثه ويلاطفه ويشعره بالحنان، وربما احتجم وهو صائم، وربما نام من بعد أذكار الصباح حتى تطلع الشمس؛ فقد كانت تصنع عائشة رضى الله عنها مثل ذلك. ولكنه لم يقل: «نوم الصائم عبادة»؛ فهو حديث ضعيف. ولم يكن النبى ﷺ يرى بأسًا فى أن يضع الرجل الماء على رأسه، أو يتبرد فى الماء فى نهار رمضان إذا اشتد الحر، بل قد صنع هو ذلك.

الجود ومدارسة القرآن:

ولعل من أهم ما يبرز من خلاله المباركة ﷺ صفتين ملازمتين له، خصوصًا فى رمضان، روى البخارى ومسلم عن ابن عباس أنه قال: «كان النبى ﷺ أجود الناس، وكان أجود ما يكون فى رمضان، حين يلقاه جبريل، فيدارسه القرآن ... فلرسول الله ﷺ حين يلقاه جبريل أجود من الريح المرسلة»

وكيف لا يتضاعف جوده وهو يدرس الكتاب الذى أنزل عليه هاديا للتى هى أقوم ؟ ثم كيف لا يصنع ذلك وهو موسم يذكره بما كان يصنع فيه منذ أدرك؛ يتحنث فى غار حراء فيطعم المساكين، حتى قالت له خديجة رضى الله عنها:« والله لا يخزيك الله أبدًا، إنك لتصل الرحم، وتقرى الضيف، وتكسب المعدوم؛ وتعين على نوائب الحق»[1]

وأما مدارسة القرآن فإنك تلتقى بالنبى ﷺ، وقد شمَّر لها ساعده، لقد نزل القرآن فى هذا الشهر أول مرة، ثم هو نزل فى هذا الشهر آخر مرة، ففى حديث فاطمة – رضى الله عنها – أن أباها الطاهر ﷺ أخبرها أن جبريل عليه السلام كان يعارضه القرآن كل عام مرة، وأنه عارضه فى عام وفاته مرتين»[2]

---

(١) البخارى : كتاب بدء الوحى

(٢) متفق عليه.

واقتداء بالنبى ﷺ كان الصحابة والسلف الصالحون يفرون فى رمضان من كل شىء إلى القرآن، ويتنافسون فى ذلك؛ وأما الإمام مالك بن أنس، وهو محدِّث المدينة، فكان إذا أقبل رمضان يفر من قراءة الحديث ومجالسة أهل العلم، ويقبل على قراءة القرآن من المصحف.

وهذا هو السر فى البركة التى لعلنا لمسناها فى أعمار هؤلاء، أنهم كانوا يكفّون عن السوء فيكفه الله عنهم، ويلتمسون البركة فيعطيها الله لهم، قال عبد الله بن مسعود رضى الله عنه: «ينبغى لقارئ القرآن أن يُعْرَفَ بليله إذ الناس نائمون، ونهاره إذ الناس يفطرون، وببكائه إذ الناس يضحكون، وبورعه إذ الناس يخلطون، وبصمته إذ الناس يخوضون، وبخشوعه إذ الناس يختالون، وبحزنه إذ الناس يفرحون»

وجاء الليل:

وأحسن أوقات مدارسة القرآن بالليل، فقد صح من حديث ابن عباس فى الصحيحين أن جبريل كان يأتى النبى ﷺ بالليل ليدارسه القرآن كل ليلة. ويبدأ الليل بالمغرب، فيُفْطر النبى ﷺ على تمرات، - وهو خير إفطار - يُعَجِّل بهن فطره، فإن لم يجد فقطرات من الماء. وكان طعام النبى قليلا - خصوصاً فى رمضان. وما هذا البذخ الذى يصنعه الناس اليوم إلا لفراغ قلوبهم من التقوى، وأحب ما يحب رسول الله ﷺ - أن يشاركه طعامه أصحابه. ومن أجل ذلك كان ابن عمر يصوم ولا يفطر إلا مع المساكين.

فإذا ما انتهى النبى ﷺ من فطره وصلاة العشاءين أقبل على تعلم القرآن من جبريل عليه السلام، ثم قام ما قام من الليل، ونام ما نام منه، غير أن قيامه ﷺ هو قيام المتخشع العارف بربه تعالى، متمهلاً متأنيا لا يقرأ آية رحمة إلا سأل الله من فضله، ولا يقرأ آية عذاب إلا استعاذ بالله من عذابه...

وحين يقف النبى ﷺ بين يدى ربه فلا تسل ماذا يقرأ، ولا كيف يقرأ. ربما قرأ البقرة وآل عمران والنساء فى ركعة - كما ثبت عنه -، وربما ركع حتى قيل لا يرفع، وسجد حتى ظنت عائشة أنه قد قُبِض، وهذا حال مَنْ وجد حلاوة القرب، واستوحش الناس، وأنس بالله تعالى. «وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا، وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا: سلاما. والذين يبيتون لربهم سجدا وقياما» (الفرقان/ ٦٣، ٦٤).

العشر الأواخر:

هذا كله فى رمضان حتى العشرين منه، لكن إذا أقبل الثلث الأخير من رمضان، وجدت للنبى ﷺ جِدًا أَجَدّ، وإقبالاً أشدَّ .. تقول عائشة رضى الله عنها: «كان النبى ﷺ يخلط العشرين بصلاة ونوم، فإذا كان العشر - تعنى الأواخر - شمّر، وشد المئزر» رواه أحمد فى المسند، وفى لفظ آخر لمسلم والبخارى: «وإذا دخل العشر شد مئزره وأحيا ليله، وأيقظ أهله» فأنت ترى بيت النبى ﷺ مستيقظا طول الليل، ليس للهو أو حديث أو مناقشات فقهية أو مذاكرة علوم، وإنما هو الصلاة الطويلة والبكاء الطويل والتثنى على آى القرآن.

وفى هذه العشر الأواخر تكمن ليلة القدر، التى هى خير من ألف شهر، يعنى خير من عمر الإنسان كله - على الأقل - وهى فى الوتر من هذه العشر، فإذا كانت الليالى التى ترجى فيها ليلة القدر، أخّر النبى ﷺ فطره، بل ربما واصل، فلم يفطر ولم يتسحّر، لكن ذلك خاص بالنبى ﷺ، فقد كان ربه يطعمه ويسقيه، من لذائذ البركات، وسحائب المناجاة.

ثم من دأبه فى هذه الليالى أنه كان يغتسل كل ليلة بين المغرب والعشاء، من غير سبب جماع، فإنه كان يعتزل أهله، لأنه معتكف طول هذه الأيام العشرة، ولا يصح لمعتكف أن يقرب أهله. إنما يغتسل تطيبا لربه، وتهيُّئا للقاء مولاه، وقد ظل النبى ﷺ يعتكف عشرة أيام كل رمضان، حتى جاء العام الذى قبض فيه فاعتكف عشرين[1].

فيا لهذا الاعتكاف من خلوة طيبة مع الله، لا تشغل الإنسان عن الصلوات، ولا تؤخره عن الجماعات، ولا تتركه نهبا للشيطان، فإن ما يصنع الصوفية اليوم فى خلواتهم هو تغيير سنة النبى، وميل عن الطريق السوىّ؛ فقد سئل ابن عباس رضى الله عنهما عن رجل يصوم النهار ويقوم الليل، ولا يشهد الجمعة والجماعة، فقال: «هو فى النار» ومن أحسن قولاً من نبى الله ﷺ، وأجمل سلوكًا منه ؟ وأما دعاؤه فى هذه فعريض، دعاء بالخير فى الآخرة، وقد علّم النبى عائشة رضى الله عنها أن تقول: «اللهم إنك عفو تحب العفو فاعف عنى»

اللهم إن كنت وفقت فاقبل منى، وإن كنت زللت فاعف عنى.

محمد عبد الحكيم القاضى

---

(١) البخارى من حديث أبى هريرة كتاب الاعتكاف

منهج الإسلام
فى
بناء الرجال

بقلم : محمد عبدالحكيم القاضى

- ١ -

تملى علينا الحاجة الملحة إلى الرجال أن نطرح هذه القضية بغية المشاركة المفروضة فى النهضة الإسلامية المرتقبة، والتماس الوسائل الصحيحة إلى البعث الإسلامى المأمول.

وفى محاولة مستميتة للخروج من نطاق العجز المتمثل فى الفرار من مواجهة قضاياه الحاسمة، أو نطاق التقليد المتمثل فى استيراد مسميات الحلول، ومصطلحات المجادلة حولها - أقول: فى محاولة مستميتة للخروج من هذين الكهفين المعتمين - أدفع إلى المشتغلين بقضايا الأمة الإسلامية ورجالها بمشروع لتصور المنهج الإسلامى فى بناء الرجال، والموازين التى أقامها هذا الدين فى صدد تقويم الرجولة، وتربية الرجال الخليقين بأن يتصفوا بها، من حيث إنه لم يبتْ من المستغلق على العيون أو الأذهان حاجة الأمة الإسلامية إلى رجال قادرين على حمل قضاياهم بين أضلاعهم وفوق رءوسهم، ولا بَاتَ من المستغلِق على العيون أو الأذهان أن كثيراً من الرءوس التى وُضع عليها تاج الرجولة قد فشلت - أمام الواقع وأمام التاريخ - فى حمله، نتيجة لأنها لم تكن فى حقيقة أمرها صاحبة هذا التاج أصلا، أو لأنها لم تُهيَّأْ سلفا لمثل هذه المهمة الخطيرة.

تزييف الرجـــال

فيبدو أن أفعى التزييف - التى هجمت على كثير من مقدرات الحضارة ومقررات التاريخ - قد زحفت على مفهوم الرجولة فنهشت منه ما استطاعت، وتركت بقاياه نهبا على سفح الأوهام؛ يجتره من يدرى ومن لا يدرى - وهذا الأمر من أهم الأمور التى أملت علينا طرفا مهما من هذا الموضوع؛ فقد روى البخارى فى صحيحه عن حذيفة بن اليمان رضى الله عنه - أنه قال [1].

« حدثنا رسول الله ﷺ حديثين؛ رأيت أحدهما، وأنا أنتظر الآخر:

حدثنا أن الأمانة نزلت فى جَذْر قلوب الرجال، ثم علموا من القرآن، ثم علموا من السنة.

وحدّثنا عن رفعها، قال :

ينام الرجل النومة فتُقْبض الأمانة من قلبه، فيظل أثرها مثل أثر الوَكْت، ثم ينام النومة فتُقبض، فيبقى منها أثرها مثل أثر المجْل؛ كجمر دحرجته على رجلك فنَفِط فتراه مُنتبراً، وليس فيه شىء. ويصبح الناس يتبايعون، فلا يكاد أحد يؤدى الأمانة، فيقال : إن فى بنى فلان رجلاً أمينا.

ويقال للرجل : ما أعقله ! ما أظرفه ! ما أجْلده ! وما فى قلبه حبةُ خردل من إيمان .. »

هذا إذن هو أوّل الوَهْن فى تصور الرجولة - فى إطار التدرج الطبيعى لتزويرها :

- الرجولة : أمانة فى القلب، وفقه فى النَّفْس؛ وهذا ما عبر عنه المصطفى ﷺ بقوله : إن الأمانة « نزلت فى جذر قلوب الرجال، ثم علموا من الكتاب، ثم علموا من السنة ».

- وأوّل وهنها أن ترتفع تدريجيّا من القلب - مع أنها الأداة الحقيقية لتحويل « العلم » إلى " فقه " داخل النفس. ثم يترك ارتفاع الأمانة آثاراً

---

(١) متفق عليه :انظر مثلاً : البخارى (كتاب الفتن - باب : إذا بقى فى حثالة من الناس) :٣ / ٢٢٦ (سندى) ، مسلم (كتاب الإيمان).

كالفقاقيع التى تنتج عن حرق طفيف بالجسم، وهذا ما عبر عنه النبى ﷺ بأحسن من هذا حين قال :

« كجمر دحرجته على رجلك فنفط (كوَّن فقاعة مائية تحت الجلد)، فتراه منتبرا (منتفخا)، وليس فيه شيء.

– وعلى أساس هذه الفقاعة المنتبرة وليس فيها شيء – يعنى على أساس هذه الشكليات الجوفاء يتم تقويم الرجولة عند كثير من الناس، وهذا ما نحس به إحساسا عميقا من قوله ﷺ :

«ويقال الرجل : ما أعقله ! ما أظرفه ! ما أجلده ! وليس فى قلبه حبة خرول من إيمان ..

– ثم نفهم من قوله ﷺ :

«فلا يكاد أحد يؤدى الأمانة، فيقال: إن فى بنى فلان رجلاً أمينا» – يفهم من ذلك ندرة الرجال الذين تنطبق عليهم الموازين الحقيقية للرجولة بحيث يكادون يعدون على الأصابع بين فلذات الأرض.

تعميق مفهوم الأمانة

من ثمة كان منهج الإسلام فى بناء الرجولة يكاد أكثره يتلخص فى :

أ – تعميق مفهوم الأمانة فى " جذر القلوب "

ب – تزكية النفوس بالفقه الذى يضيء جنباتها؛ فتشتعل هممها الداخلية – من ناحية – وتنير مناراتها الخارجية من ناحية أخرى.

جـ – الاهتمام بأساس الرجل – من حيث مراحل العمر – وهو (الطفل، والشاب)؛ من حيث أنه المنطلق ثم المعبر لهذه الرجولة.

د – التركيز على أخلاق الرجولة الحقيقية، وقص القصص الذى يصورها فى سعيٍ لبثها – آليًا – إن صح التعبير – داخل النفوس.

هـ – اختيار القدوات الإنسانية من الأنبياء وحوارييهم ليكونوا رموزاً للرجال على الأرض وفى دروب التاريخ.

و – وضع الميزان القسط للرجولة – مفهوماً وتطبيقاً – حتى لا يضل بالناس تصورها.

لكن : من ذا الذى يحيط بكل هذه الأمور – تصويرا وتعبيراً – فى مساحة ضيقة ؟

فليسعنا التلخيص المبين لهذه العناصر السابقة، محاولين الاعتناء بما يدل دلالة واضحة، مقتصرين من هذه الدلالات على ما يغنى عن غيرها، لفتا إلى هذا المنهج – عسى أن يعان أهل النظر من المسلمين، وأهل الهمة – أيضاً – إلى إبراز هذه الجوانب وغيرها – نظرياً وعمليًا – بتوفيق الله تعالى.

فأمّا حرص الإسلام على تعميق مفهوم الأمانة فى القلوب فإنه راجع إلى تقدير صحيح لأهميتها. وللأمانة هنا مفهومها العميق الذى لا يقف عند التصوّر القاصر المتحدد فى أداء الحقوق المادية فى حياة الأفراد وعلاقاتهم الاجتماعية وإنما يمتد – بقوة المصطلح نفسه وعطاءاته المَوْعيَّة – ليلتئم على دوافع إقامة الحق بين الناس ومقررات القسط والميزان فى هذه الحياة؛ فالله سبحانه وتعالى يقول – ذاكراً الأمانة :

" إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ، فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا، وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا، وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ، إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً (الأحزاب/٧٢)

وهذه هى المرة الوحيدة التى تذكر فيها « الأمانة» – فى القرآن – مُعَرَّفَةً بالألف واللام. قال قتادة: الأمانة: الدين والفرائض والحدود" [٢]. وهذا هو التفسير الذى يشهد له سياق الآيات؛ فهى تتحدث عن النفاق، ثم عن الكفر، ثم عن التقليد فى الباطل وجزاء ذلك جميعا، ثم تقول:

« يأيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا، وكان عند الله وجيها. يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولاً سديداً. يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم، ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزا عظيما. إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن

---

(٢) تفسير ابن كثير (ط / الشعب) ٦ / ٤٧٧ (تفسير سورة الأحزاب)

منها، وحملها الانسان إنه كان ظلوما جهولا ليعذب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات، وكان الله غفورا رحيما » (الأحزاب / ٦٩ : ٧٣)

فمقدّمات " عرض الأمانة " ونتائجه يدل على أن هذه الأمانة هى إقامة دين الله عز وجل فى الناس، بالدعوة الطيبة، والقدوة الحسنة، والجهاد المبارك.

والقرآن الكريم يؤكد على أمرين خطيرين :

أحدهما : أن الله اجتبى الإنسان من بين خلقه - على ظلمه وجهله لحمل هذه الأمانة، وينبغى أن يذكر الانسان تبعات هذا الاجتباء.

والآخر : أن صلاح الناس متوقف على القيام بهذه الأمانة وأدائها؛ ومن أهم مظاهر هذا الصلاح أن يغتبط المؤمنون بتوبة الله عليهم، وأن يذوق المنافقون والكافرون جرّاء مخالفتهم. ولذلك فتضييع هذه الأمانة العظيمة معناه انتهاء استخلاف الإنسان في الأرض، لفشله فى حمل ما منْ أجله استُخلف، قال رسول الله ﷺ: « إذا ضُيّعت الأمانة فانتظروا الساعة »

قيل له: « وكيف تضييعها ؟ »

قال: « إذا وُسّدَ الأمر لغير أهله فانتظروا الساعة » (٣)

فعلى هؤلاء الرجال العظماء ينعقد أمر صلاح البشرية، المتمثل فى سعادة المؤمنين، وإيقاف غرور المنافقين والمشركين، وبهم تتعلق الآمال فى اتساع المستقبل، وابتسام ثغره للإحسان.

نفوس زكية

أليس ينبغى أن يكون هؤلاء الجال من نوعية مهيّأة لمثل هذه المهمة الضخمة ؟ وكيف يقوم بهذا الأمر الخطير إلاّ رجل أنعم الله عليه فرزقه نفساً زكيّة طيبة طيّعة مباركة ؟ لا والله : لا يقدر على هذا الأمر إلا هؤلاء الرجال خاصة:

---

(٣) رواه البخارى فى كتاب العلم، وكتاب الرقائق وغيرهما. وانظر : (فيض القدير للمناوى (١ / ٤٥١ / ٨٨٧)

«إن الله يدافع عن الذين آمنوا، إن الله لا يحب كل خوان كفور. أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا، وإن الله على نصرهم لقدير. الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا : ربنا الله، ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا، ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز. الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر، ولله عاقبة الأمور » (الحج / ٣٨ : ٤١)

فى هذه الآيات بعض ملامح النفس الزكية – التى استحقّت إكليل التمكين فى الأرض – متمثله فى :

١ – عُمق الشعور بالأمانة : الذى يُفهم صراحةً من صبرهم على ما وقع عليهم من ظلم، واستهانتهم بما تركوا من ديار، وثباتهم على كلمة الحق: "رَبُّنَا اللَّه" ثم هو يفهم – ضمناً – من مفهوم المخالفة فى قوله تعالى : " إنَّ الله لا يحبُّ كُلَّ خوَّانٍ كَفُورٍ "

٢ – قوة التحمل والثبات على الحق.

٣ – الإيمان بموجوب رفع الظلم وإقامة الحق – باعتبارهما ضرورةً حضارية تضمن بقاء ملامح الوجه المشرق للإنسانية، فلولا ذلك لهُدمت دُور العبادة ولخربت الأرض من إشراق اليقين.

٤ – التشمير لنُصرة الله عز وجل واليقين بنصره.

٥ – العزيمة الصادقة على إحقاق الحق حين التمكن من ذلك وإسعاد الأرض بفرائض الله تعالى. وذلك بأن يكون توجههم – فى محاولات العُلوّ – إلى التمكن من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر – لا إلى الدنيا تفتح لهم أو الثروة تنساب بين أيديهم.

ولئن كانت هذه الملامح كافية لإعطاء صورة عامة لنفسية هؤلاء الرجال المختارين، فلقد وردت ملامح أخرى تكمل جوانب هذه الصورة فى كتاب الله تعالى، فى مثل قوله :

« وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا، وكانوا بآياتنا يوقنون » (السجدة / ٢٤)

« أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين من ذرية آدم، وممن حملنا مع نوح،

ومن ذرية إبراهيم وإسرائيل، وممن هدينا واجتبينا؛ اذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجدا وبكيا " (مريم / ٥٨)

« وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا، وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا: سلاما ..... » (آخر سورة الفرقان) .. الخ

وهى ملامح تتكامل فى إعطاء التصور الواضح لنفسية الرجل الذى أراده الله عز وجل لنصرة دينه،

أصـــــول ثابتـــة

غير أن هذه القيم التى تشكل نفوس هؤلاء الرجال ما ينبغى لها أن تكون عرضاً فى حياتهم، ولا ضوءاً خافتا يضىء ساعة ويخبو ساعات، وإنما اتجهت عناية الإسلام إلى أن تستقر فى ضمائرهم منذ بعيد؛ فهم يرثونها - أوّلاً - من أعراقهم، ثم هم يرضعونها - ثانيا - مع لبن أمهاتهم، ثم هم يُنَشَّئون عليها - ثالثا - أطفالاً وصبية وناشئة. ثم هى بعد ذلك تطمئن فى نفوسهم شباباً ورجالاً أشداء.

- فالإسلام يعقد صلاح الأبناء على طيب مطعم الآباء :

" كل لحم نبت من سحت فالنار أولى به " (٤)

- وهو يُحيط الطفل بالعناية والحراسة منذ يوضع ماءً فى رحم أمه :

"إذا أتَى أحدكم زوجه فليقل :

بسم الله - اللهم جنبنى الشيطان، وجنّب الشيطان ما رزقتنى، فإذا قضى بينهما ولد لم يقربه شيطان " (٥)

- ثم هو يحرص على تعويدهم - وهم صغار - أخلاق الكبار، وتزكية جوانب الرجولة فى طفولتهم وصَبْوتهم، حتى إذا شبّوا لم تكن هذه غريبة عليهم.

وأقدم فى الجزء التالى من هذا المقال إن شاء الله أمثلة يسيرة من جوانب الاهتمام بمرحلتى الطفولة والصبا، عسى أن يوقف على أهميتها، ويفسار بحذائها.

محمد عبد الحكيم القاضى

(٤) عزاه السيوطى لأبى نعيم فى الحلية وابن وهب عن أبى بكر (بلفظ) وإلى ابن جرير الطبرى فى التفسير عن ابن عمر (انظر : جمع الجوامع (خط / دار الكتب المصرية / ١ / ٦٢٥)

(٥) رواه الجماعة إلا النسائى :انظر مثلا : صحيح مسلم : كتاب النكاح رقم ١١٦ ط / عبدالباقى : ٢ / ١٠٥٨ / ١٤٣٤) والبخارى (فتح البارى) رقم ١١٩. والجامع الكبير للسيوطى (خط / دار الكتب المصرية ١ / ٦٦٣)

منهج الإسلام

فى

بناء الرجال

بقلم: محمد عبد الحكيم القاضى

- ٢ -

وعدت فى نهاية الجزء الأول من مقالى هذا والذى سبق نشره فى عدد المحرم ١٤١٢ أن أقدم أمثلة يسيرة من جوانب الاهتمام بمرحلتى الطفولة والصبا، عسى أن نقف على أهميتها فنسير بحذائها، وإليك أخى القارئ تكملة ما وقفنا عنده فى الجزء السابق من هذا المقال:

١ - المرأة فى الرأى:

وهو خلق يكاد يكون فطريا فى النفس البشرية، وإنما يحبس بعض الناشئة عنه ظروف بيئيه تقتضيه؛ كالخوف، والجبن، أو التوقير الزائد للكبار... الخ غير أن ضرورة إنشاء رجال يتذرعون بجسارة الرأى تستدعى توجيه هذا الخلق توجيها مثمراً؛ ولا يمكن أن يُعَدَّ خطأً صنيعُ عمر بن الخطاب مع عبدالله بن عباس - رضى الله عنهم - فقد وجدناه «يُدخله» مع أشياخ «بدر» فى المشورة، ولما أحس عمر - رضى الله عنه - بأن بعض الصحابة قد «وجدوا فى أنفسهم» من هذا السلوك دعاه مرةً، وأدخله معهم، ثم سألهم:

- ما تقولون فى قوله تعالى: «إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ» ؟

قال ابن عباس: «فقال بعضهم: أُمرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا نَصَرَنا وفتحَ علينا، وسكت بعضهم فلم يجب» فقال لى: - أكذلك تقول يا ابن عباس؟

فقلت: لا! قال: فما تقول؟

قلت: هو أجل رسول الله ﷺ أعلَمَهُ له: قال: «إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّه والْفَتحُ» - وذلك علامة أجلك - «فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرهُ إِنَّه كان توابا».

فقال عمر : رضى الله عنه: - ما أعلم منها إلا ما تقول!

وهذا السلوك من عمر - رضى الله عنه - هو السلوك [1] التربوى الراقى، الذى يعصم الناشئ من عقدة الجبن والخوف، ويجنبه العزلة النفسية عن قضايا أمته، ومن ثمة فقد زخر التاريخ الإسلامى بالشباب الجسور من أمثال: عبدالله بن الزبير، والحسين بن على - رضى الله عنهم - وغيرهما.

٢ - الشجاعة مع العدو:

ويتجه تقويم هذا الخلق - أساسا - بأمور ثلاثة:

أ - تحديد المقصود بالعدو، وميدان عداوته.

ب - غرس الكراهية لهذا العدوّ فى نفس الناشئ.

جـ - تنشئته على أخلاق الفروسية وغمره - أدبيًا وواقعيا - فى أجواء هذه الفروسية.

وقد كانت خسارة كبيرة للإسلام أن هذه الأمور الثلاثة أصبحت غير متميزة ولا واضحة المعالم اليوم.

من العدوّ الحقيقى؟ وما ميدان عداوته؟

نتيجة لكثير من «عوامل التعرية» التى أصابت تاريخ المسلمين وحضارتهم، وهجمت على جملة من المفاهيم المتعلقة بدينهم، فقد اختبأت طائفة من هذه المفاهيم خلف سحاب التصورات «اللاإسلامية» التى أفرزتها تلك العوامل المتعددة، وأصبح كثير من المسلمين - عامة وخاصة - ينظرون إلى الأمور من خلال هذا السحاب، وكان مفهوم (العدوّ) أحد هذه المفاهيم. حدّد القرآن الكريم أعداء المسلمين من البشر فى ثلاثة أصناف

(١) صحيح البخارى (سندى) كتاب التفسير: (٣/ ٢٢١، ٢٢٢)

١ - اليهود.
٢ - المشركون بكافة أصنافهم.
٣ - المنافقون.

فقال الله تعالى: «لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا» (المائدة / من ٨٢).

وقال فى المنافقين: «هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ» (المنافقون/ من ٤)

غير أن الممارسات الملتوية للفكر والسياسة أنتجت خطأً من التعامل الواقعى لا يسمح لمثل هذا التصور الواضح للعدو أن يؤتى ثماره الحقيقية؛ فقد التقت رِغاب طائفة من الحكومات التى تحكم الشعوب الإسلامية على احتضان ألوانٍ من المشركين: نصارى، وشيوعيين، وعلمانيين ... الخ ولم تعجز هذه الحكومات عن اصطناع الشعارات التى تجعل مثل هذا التصرف، بديلاً عن التصور الإسلامى للقضية. ثم امتد البلاء إلى مناداة البعض باصطناع علاقة مع اليهود، لا ينبغى معها أن ينتشر تصور أنهم أعداء، بل ربما صرح بعضهم بأنهم أصدقاء. وفى وسط هذه البلبلة العمياء فى مفهوم (العدو) نستطيع أن نقدر كم يكون الاهتزاز فى تصور المنافقين، لأن واقع العداوة لم يتحاكم إلى مقررات إسلامية؛ فيُحب لله، ويبغض لله، وإنما تحكمت فيه مقررات غريبة: من المصالح التافهة، والتخوفات والجوفاء، والمعاذير الجبانة، وليس هذا الأمر غريباً بعد أن أصبحت حفنات القمح، وأكياس البنكنوت أصناماً يُتَّجه إليها فى تحديد «ألفبائية» الولاء والعداء. فغابت الرجولة النفسية - إذن - تبعا لغياب الرجولة الفكرية والسياسية.

أما المسلم الواعى: فهو الذى يحدد - منذ نشأته - من عَدُوُّه؟ وما ميدان عدائه إياه؟ يحفظ هذا فى لوحه، وينقشه فى صدره، ويتلوه فى صلاته متقرباً به إلى ربه، ومن ثم وجدنا عناصر الرجولة تنبت فى قلوب صغار المسلمين منذ الطفولة والصبا، ولم نتعجب ونحن نقلب صفحات التاريخ حين تُصافحنا قصص البطولة المبكرة عند «رافع بن خديج» و«سَمُرة بن جندب»، و«معاذ بن عمرو بن الجموح» وعمير بن أبى وقاص» وغيرهم ممن كتب التاريخ بأطراف

عجيبة من سيرهم ومواقفهم، ولكننا سنقتصر على هذين المثالين، لافتين الباحثين إلى مظان هذه القصص التى تشبه الأساطير، فى كتب المغازى، خصوصاً حين التعرض لذكر الغزوات:

أما المثال الأول: فهو ما وراه عبد الرحمن بن عوف؛ قال: «إنى لَواقف يوم بَدْر فى الصف فنظرت عن يمينى وشمالى، فإذا أنا بين غلامين من الأنصار، حديثةٌ أسنانهما. فغمزنى أحدهما فقال:

- يا عماه! أتعرف أبا جهل.

فقلت: نعم، وما حاجتك إليه.

فقال: أُخْبِرتُ أنه يسبّ رسول الله - ﷺ - والذى نفسى بيده: لئن رأيته لا يفارق سوادى سوادَه حتى يموت الأعجلُ منا.

فتعجَبت لذلك. فغمزنى الآخر، فقال لى - أيضاً مثلها. فلم ألبث أن نظرت إلى «أبى جهل» وهو يجول فى الناس، فقلت:

- ألا تريان؟ هذا صاحبكما الذى تسألانى عنه.

فابتدراه بسيفيهما، فضرباه حتى قتلاه، ثم انصرفا إلى النبى ﷺ فأخبراه. فقال: - أيّكما قتله؟

قال كل منهما: أنا قتلتُه!

قال: هل مسحتما سيفيكما؟

قالا: لا.

فنظر النبى ﷺ فى السيفين، وقال:

- كلا كما قتله! (١)

وأما المثال الثانى: فهو - على بساطته - يُبرز مدى انشغال الصغار من المسلمين بقضايا دينهم، وتوغّل عناصر الرجولة فى دمائهم؛ قال سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه: «رأيت أخى (عمير بن أبى وقاص) قبل أن يعرضنا رسول الله ﷺ، يوم (بدر) يتوارى، فقلت له:

(١) متفق عليه من حديث عبد الرحمن بن عوف: مسلم: كتاب الجهاد والسير (٤٢) ٣/ ١٣٧٢/ ١٧٥٢)

- مالك يا أخى؟

قال: إنى أخاف أن يرانى رسول الله ﷺ فيردنى، وأنا أحب الخروج، لعل الله يرزقنى الشهادة.

وقد خاض "عمير" غزوة (بدر)، ورزق الشهادة، وهو ابن ست عشرة سنة[1].

سلبيات التربية

ويتساءل المخلصون - بعد هذين المثالين - عن هذا الخلل الذى أصاب أرحام المسلمات اليوم، فلم تعد تنجب مثل هؤلاء، فنبادر إلى تقديم هذه الملاحظات:

١ - أن المسألة ليست مسألة عقم طبيعى؛ فلا يزال شباب وفتيان من المسلمين يَعُون - جيداً - قضايا دينهم ويتنافسون على التضحية فى سبيل إعزازه بأغلى ما يملكون.

٢ - أن التخلف الواضح بين جيل اليوم وأجيال الأمس ليس تخلفاً فسيولوجيا وإنما هو تخلف تربوى، سيطر على الآباء فيه (عقدة الخوف)، واختلت فى أذهانهم المسائل، فنقلوا ذلك للصغار - بفعل الوراثة حينا، وبفعل البيئة أحيانا أخرى.

٣ - أن الإعلام المضاد للإسلام قد أفلح - إلى حَدٍّ ما - للأسف - فى اصطناع مخلوقات غير مُريدة - أصلاً -، وإنما هى أشبه بآلة تحمل تصوّرات ضبع، وحركَات قرد، ولسان ببغاء؛ تقوم كافة أجهزتها على «اللاإرادة» و«المحاكاه غير الواعية» لكلّ ما ترى أو تسمع.

٤ - أن هذا التخطيط الصهيونى - على رغم نجاحه الذى يعد إنكاره تعاميا خطيراً عن الواقع - لم يواجه صعوبة فى أى وسط اجتماعى، بقدر ما وجد فى الأوساط الإسلامية، التى وجدها ممتلئة الجنبات بضياء البصيرة، مشتعلة الهمم بوقود الرجولة الحقة.

٥ - أن استعادة ما خسر المسلمون من هذه القيم ليس بالشىء الصعب، إذا ما استيقظت فيهم أيام «بدر» و«اليمامة»، و«حطين»، وكسّروا توابيت

---

(١) راجع ترجمة عمير بن مالك فى طبقات ابن سعد، والإصابة وغيرهما (وهذا النقل من تربية الأولاد فى الإسلام للشيخ عبدالله ناصح علوان ١/ ٣١٣).

التشرنق التى فرضها عليهم نجاح العلمانيين الأتراك بقيادة مصطفى أتاتورك - فى عزلهم عن دينهم، ذلك العزل الذى كان مقدمة للغلبة الطفرية للعدو الصهيونى عليهم سنة ١٩٤٨، وهى الغلبة التى أدخلت الوهن فى نفوس طوائف كثيرة من الضعفاء، سرى وهنها كالعدوى الطاحنة فى سائر النفوس.

٦ - أن من أهم سلبيات التربية - التى كانت إحدى مكونات «الرجال الجُوف» - ثلاثة؛ إذا أخذ فى الاعتبار بدائلها التربوية استطعنا أن نتدارك جانباً كبيراً مما فاتنا فى هذا الميدان:

أ - الجنس - بالمفهوم الإعلامى - الذى تروج له الأفلام الهابطة، والقصص الرخيصة، التى شارك فيها - ويا للأسف - أسماء لامعة تُعَدّ فى المسلمين من أمثال: إحسان عبد القدوس، ونجيب محفوظ .. والبديل الوحيد هو إقصاء هذه الألوان «الدرامية» عن الواقع الإسلامى، وغَمر هذا الواقع بالقصص الجهادى - الذى يُنمى ملكات الرجولة، أو القصص الرقيق - الذى يزكى جوانب التقوى، وليست المعطيات الإسلامية بعاجزة عن المساهمة فى ذلك.

ب - اللهو الحرام (كالقمار وغيره): وتكمن خطورته - بالنسبة لموضوعنا خاصة - فى أنه يحيط الناشئ بجو من اللامبالاة بالأمور الخطيرة، ويغمسه فى واقع التحديات الجوفاء - التى تعوّضه (ولو نفسيا) - مخاطرات الفروسية الحقة. وقد ضمن الإسلام بديل ذلك فى أنواع اللهو المباح - التى تجمع بين عنصر " الترويح" وعنصر "التدريب" كالمصارعة والرماية وركوب الخيل.

جـ - الثرثرة الجوفاء: وهو مرض خطير، غير أن الإعلام المضادّ للإسلام يختلق له أسماء منمقة؛ مثل: « سعة الثقافة» و « تعدُّد مناحى المعرفة» ... الخ وتكمن خطورته فى أنه يفرغ انشغالات الناشئ بما لا يفيده فى مسعاه الخالص، وتوجهه الحقيقى، ولو صلح هذا اللون من السلوك لأحد فهو يصلح لمن لا قضية له تشغله؛ فإنّ من لم

ينشغل بشيء محدّد شُغِل بكل شيء، وهذا ليس المسلم، ومن أجل ذلك فإن مَلْءَ الناشئة بالمضامين الجيدة - تربويا - هى العصمة الحقيقية من الاغترار بسحر "الثقافة" ، فالذى يحتمل فى داخله فقه الإسلام لا يحزن إذا وجد نفسه صامتاً بين الثرثارين.

ولا ينبغى أن نترك ما انشغلنا بتوضيحه قبل أن نعرض لجزئية كبيرة الأهمية فيه، وهى موطن القدوة والمثل - الذى عرضه القرآن الكريم والسنة المباركة لقيم الرجولة متجسدة فى رجال يسعون على الأرض - من منطلق تقريب هذه القيم، وتذليل الطريق إلى اكتسابها وتنميتها، وسدّ أبواب التفلّت منها - تحت مسمّيات «الواقعية» ، «تهافت المثالية الأفلاطونية» ... الخ، فقد أراد الوحى والسيرة العملية أن ينزلا هذه القيم من «المستوى الأسطورى» أو «المثالى البحت» إلى المستوى الواقعى أو حيز الاقتداء. ونلخص هنا بعض المواقف التى ترمز لقيم من قيم هذه الرجولة المطلوبة. على وجه الإيجاز والتركيز:

١ - موقف الثبات فى وجه الظلم: (قصة إبراهيم عليه السلام والنمروذ) (البقرة/٢٥٨).

٢ - موقف المروءة والنجدة للضعيف: (قصة موسى عليه السلام مع فتاتى «مَدْين» (القصص / ٢٣ : ٢٨).

٣ - موقف الاستسلام الرجولى لأمر الله بغض النظر عن التبعات: (قصة إسماعيل مع أبيه - عليهما السلام - حين رأى فى المنام أن يذبحه، وهى مزَاج من مواقف متشابكة تجلو النفسية المؤمنة بخواطرها الطيبة، التى تتعارض فيها قيم التسليم الرجولى مع قيم الأبوة الحانية) (الصافات /١٠٢ : ١١٠).

٤ - موقف الإنصاف ومعرفة أقدار الرجال:(قصة النبى ﷺ مع ابنة حاتم الطائى فى سَبْى طىء؛ فأخبرته بأنها بنت حاتم الطائى، فأطلقها النبى ﷺ لموقف أبيها مع الكَلّ والضعيف، وقال: «لو كان أبوك مسلماً

لترحَّمنا عليه) فلم يمنع كفرُ حاتم الطائى النبىَّ ﷺ من الثناء على مواقفه - إنصافا ومعرفة بالرجال وأقدارهم - وهذا هو المحَكّ الحقيقى للرجولة - بل للقيادة - على غير ما نرى ونسمع من رجال! يكملون رجولتهم بالنَّيل من أندادهم.

٥ - موقف تعليمى للميزان الحقيقى الذى يعرف به الرجال: (حديث سهل بن سعد الساعدى فى الصحيحين: مرَّ رجل على النبى - ﷺ - فقال لرجل عنده جالس: «ما رأيك فى هذا"؟

فقال: «رجل من أشراف الناس، هذا، والله، حَرِىٌّ إن خطب أن يُنكح، وإن شفع أن يُشَفع». فسكت رسول الله ﷺ. ثم مرّ رجل آخر، فقال له رسول الله ﷺ: «ما رأيك فى هذا»؟

فقال: «يا رسول الله: هذا رجل من فقراء المسلمين؛ هذا حَرِىّ إن خطب ألا ينكح، وإن شفع ألاّ يشفع، وإن قال ألا يُسمع لقوله».

فقال رسول الله ﷺ: «هذا خير من ملء الأرض مثل هذا» (١)

وكذلك قصة الطفل الذى تكلم فى المهد .. وهو رضيع - ليُعلم الناس كيف يُقاس الرجال. وهى فى الصحيحين.

وبعد هذا

يصح لنا أنْ نعترف أنَّ أمر اهتمام الإسلام بالرجولة الحقيقية، وبناء الرجال ما كان له أن يعالج بهذه العجلة، ولا يشفع لنا فى هذا التجاوز إلا ضيق المساحة التى ينبغى أن تعطى لأى مقالة فى مجلة. وما كان طموحنا أن نوضح كل جزئية فى هذه المقالة، وإنما كانت بغيتنا أن نعالج عموم الموضوعات التى تتعلق بهذا الأمر، فإذا كان الله قد وفقنا فالفضل لله وحده، ويبقى علينا ممارسة الصواب منها وتعقّبه بالعمل، وأما إن كانت الأخرى فالله يعلم أنما أريد الإصلاح ما استطعت، وما توفيقى إلا بالله، عليه توكلت، وإليه أنيب.

محمد عبد الحكيم القاضى

---

(١) رواه الشيخان (وانظروا رياض الصالحين صـ ١٠٢).

الناسخ والمنسوخ في الحديث الشريف

هذا بفضل الله تعالى ومَنّه تعريفٌ بفنٍّ من العلم طيّب ؛ إذ تتنزّل على أساسه طائفة غير قليلة من الأحكام الشرعية ، ومع ذلك فهو غير مطروق من كثير من أهل العلم ، ولم تحصل العناية به - حديثاً - عند معاشر المهتمين بالدراسات الإسلامية ؛ فإذا كان الناسخ والمنسوخ من القرآن الكريم قد حظى بقدرٍ من العناية ، وطرح من كافة جوانبه - باعتباره قضية مهمة من قضايا الدراسات القرآنية ، فإن علم الناسخ والمنسوخ من الحديث لم يكن كذلك خصوصاً عند العامة - على الرغم من ثراء مادته ، ورحابة حقله .

ونحن في هذه الخلاصة نعمد إلى التعريف بهذا العلم وأهميته ، وضوابطه وقواعده ، راجين الرب تبارك وتعالى أن ينفع به ، وأن يجعل هذا العمل في ميزان حسناتنا .

أهمية هذا العلم ودقته :

فلقد مَرَّ علىُّ بن أبى طالب - رضى الله عنه - على قاصٍّ يقصّ فى المسجد ، فسأله : هل علمت الناسخ من المنسوخ ؟

قال : لا .

قال : هلكت وأهلكت[1] .

ويُعَرّف الحافظ أبو بكر الحازمى هذا العلمَ بقوله :

« .. إذ هو عِلمٌ جليل ، ذو غَوْر وغموض ، دارت فيه الرؤوس ، وتاهت فى الكشف عن مكنونه النفوس »[2] .

ومن هذا العلم كم كان الإمام محمد بن شهاب الزهرى - رحمه الله - مُصيباً حين قال :

(١) تحذير الخواصّ من أحاديث القُصّاص - للسيوطي - ط/ المكتب الإسلامى ص ٢٤٢ .

(٢) الاعتبار فى الناسخ والمنسوخ من الآثار - للحازمي - ط/ دار الوعى - حلب ص ٣ .

« أعْيَا الفقهاءَ وأعجزهم أن يعرفوا ناسخ حديث رسول الله ﷺ - من منسوخه »[٣].

ولقد كان الإمام الزهرى هو أول من دوّن هذا العلم الشريف[٤]، وظل الناس بعده عيالاً عليه ، حتى جاء الإمام محمد بن إدريس الشافعى - رحمه الله تعالى - وبثّ فى كتاب الرسالة طرفاً من هذه الأحاديث ، ثم أفرد مصنَّفاً فى ذلك على هامش « الأم » .

هذا الصنيع الذى صنعه الشافعى كان أمراً جديراً باحترام العلماء حقّاً ؛ عبّر عن ذلك الإمام أحمد بن حنبل - رحمه الله - حين قال : « ما علمنا ناسخ حديث رسول الله - ﷺ - من منسوخه حتى جالسنا الشافعى »[٥].

لقد كشف الشافعى أهمية هذا الأمر - من الناحية الفقهية - ، وهو باعتباره فقيهاً محدِّثاً استطاع أن ينقل علم الناسخ والمنسوخ فى الحديث مِنْ حيِّز علم الحديث البَحْت إلى ميدان الفقه وأصوله .

ثم بُذِلت بعد الشافعى محاولاتٌ لتقنين هذا الفنّ كان من أكثرها قيمةً مقدمة الإمام الحازمى لكتابه « الاعتبار فى الناسخ والمنسوخ من الآثار » - الذى يُعَدّ موسوعة طيبة فى هذا المضمار[٦].

شروط وقوع النسخ :

وأول هذه القوانين التى تضبط النسخ هو الحديث عن شروطه ، وأهمها :

١ - أن يكون الناسخ والمنسوخ حكماً شرعِيّاً : لأن النسخ لا يدخل الثوابت كالأحكام العقلية الواجبة ، والأخبار ، والقصص ، والنبوءات المقطوع بها ؛ فالأحاديث التى تتحدث عن أخبار الماضين وأنباء الآتين القاطعة لا يدخلها النسخ لأنها حقائق ثابتة .

٢ - أن يكون الخطاب الناسخ متأخراً عن

(٣) المصدر السابق ص ٤ .
(٤) وقع لنا تهذيب لهذا الكتاب للحسين ابن محمد السّلمي ، وهو مخطوط بمكتبة بايزيد بتركيا .
(٥) الاعتبار ص ٥ .
(٦) حقق هذا الكتاب أولاً : عبد المعطى قلعجى ونشره نشرة جيدة ، ثم نشر فى مصر نشرة سيئة بمعرفة بعض (المحققين) .

المنسوخ - من حيث الزمن - فإذا لم يثبت التراخى الزمنى لم يصحّ النسخ .

٣ - لا تصح دعوى النسخ مع جواز الجمع بين الحديثين فى الشريعة ؛ لأن النسخ معناه استبدال الحكم الأخير بالحكم السابق ، وهذا باب لا تجوز فيه المجازفة بالقول ، فإن جاز العمل بالحديثين - وذلك بالتمكن من الجمع بينهما - لم يجُزْ أن يُترك حُكم أحدهما .

علامات النسخ ودلائله :

بل لقد سبر العلماء المسلمون الأحاديث الناسخة والمنسوخة واستطاعوا أن يسجلوا طائفة من الضوابط تتعلق بعلامات النسخ الواضحة ، وأماراته القاطعة ، وهي ثلاثة :

- الأولى : صراحة اللفظ وقطعيّته على النسخ ؛ كقول النبى ﷺ : « كنت نهيتكم عن زيارة القبور ، ألا فزورها »[٧] .

فهذا اللفظ واضح الدلالة على نسخ النهى وإباحة الزيارة .

والثانية : أن يكون التاريخ معلوماً بحيث يُقطع بتأخر الناسخ .

ولعل من أمثلة ذلك ما ورد فى « نكاح المتعة » - وهو نكاح المرأة لأجَلٍ معلوم ؛ فقد ورد عن النبى - ﷺ - إباحتها - على سبيل الرخصة[٨] . غير أنه - ﷺ - نهى عنه فى يوم خيبر[٩] ، ويبدو أنه أكد هذا النهى - عن نكاح المتعة خاصة - فى حجة الوداع .

- وأما العلامة الثالثة ، فقد ذكرها العلماء : وهى أن تجتمع الأمة كلها فى حكم على أنه منسوخ .

والمعروف أن أمة النبى ﷺ لا تجتمع على ضلالة . غير أن هذا الضابط يحتاج إلى قَدْرٍ من التأنى فى اعتباره حَكَماً ، لأن الأمة لن تجتمع جميعاً على حكم إلا إذا كان هناك نصّ صريح صحيح على ذلك الحكم

---

(٧) مسلم فى (الجنائز) ، المسند (٣/٢٨) .

(٨) متفق عليه : البخارى (كتاب التفسير - تفسير سورة المائدة) ، مسلم (كتاب النكاح /ص ١٠٢٢) ط / عبد الباقي .

(٩) رواه الستة إلا أبا داود : انظر مثلاً : البخارى (الذبائح - باب لحوم الحمر الإنسية) ، مسلم (كتاب الصيد / ص ١٥٣٨ - ١٥٣٩) . كما رواه أحمد ٢/٢١ ، ١٠٢ ، ١٤٣ .

(١٠) سنن أبى داود (كتاب النكاح : ٢/٢٢٦) .

فى الشريعة ولا بد أن يكون هذا النص قد استفاض لدرجة إجماع الأمة كلها عليه . فإجماع الأمة - من ثمة - هو تأكيد لهذا الحكم لا تشريع لـه .

أوجه الترجيح :

ومع ذلك الذى سبق يمكن أن يتعارض الحديثان ، ولا يعرف من لفظهما ، ولا من تاريخهما ما يدل على النسخ ، فعلى الرغم من أن هذا ليس هو الغالب فى النسخ ، بل نستطيع القول بأن أغلب الأمثلة التى سبقت على مثل هذه الحالات ليست نسخاً على الحقيقة . أقول : على الرغم من ذلك ، فإن المجهود العلمى الذى بُذِل فى الترجيح بين الأحاديث - فى مثل هذه الحالة - يدل على جَدّية البحث ، ودقة التحرّى ، ومزيد الإخلاص عند علماء الفقه والأصوليين المسلمين .

ولعلنا أن نضيف إلى هذا المجهود المتواضع فى تصنيف أهم الطرق التى يرجَّح على أساسها النسخ ، مؤكّدين على أنّ هذا الجهد لا يُعنى إلا بالتذكير وفتح الأفق للنظر والدراسة ؛ فمن هذه المرجّحات ما يتعلق بأحوال الرّواة ، أو بعَدَدهم ، أو بنوع التحمّل ، أو بكيفية الأداء ، أو بجودة الإسناد ، أو غير ذلك .

١ - قرائن تتعلق بأحوال الرواة والثقة فيهم :

- كأنْ يكون رواةُ أحد الحديثين أتقن وأضبط من رواة الآخر - مع الاشتراك فى الصحة - .

- أو يكون راوى أحد الحديثين متّفقاً على توثيقه والثانى مختلفاً فيه .

- أو يكون رواة أحد الحديثين معروفين - إلى جانب الثقة - بالفقه فى الأحكام الشرعية ، ورواة الآخر ثقات غير فقهاء ؛ وهذا يفسر لنا لماذا كان يقدّم علىّ بن خشرم - المحدّث الفقيه المشهور - حديث (سفيان عن منصور عن إبراهيم) على حديث (الأعمش عن أبى وائل) ، وذلك لأن الأعمش وأبا وائل ثقتان ، أما سفيان ومنصور وإبراهيم فهم ثقات فقهاء ؛ فقد كان يقول : « حديث يتداوله الفقهاء خير من حديث يتداوله الشيوخ »[١] .

(١) الاعتبار ص ٢٧ .

٢ - قرائن تتعلق بعدد الرواة :

كأن يكون عدد الذين رووا الحديث الأول أكثر من الذين رووا الثانى ، وفى هذا دلالة على تفشى الحديث وسيرورته بين الأمة ، وتلقّيها إياه بالقبول .

٣ - قرائن تتعلق بنوعيَّة تحمّل الحديث أو كيفيةَ أدائه :

فمن المعروف أن كيْفيات تحمّل الحديث وأخذه عن الشيوخ كثيرة ؛ أعلاها درجة هو السَّماع ، ثم العرض ، فالمناولة ، والإجازة .. حتى الوجادة ، وهو أن يجد الراوى حديثاً مكتوباً بخط شيخه فى كتاب . وتختلف هذه الكيفيات فى درجة إتقان الراوى للحديث ، فليس الذى يسمع الحديث من فم شيخه كالذى يراه بخطه . ونلحظ الدقة عند الفقهاء فى إفادتهم من هذه المراتب وغيرها فى الترجيح بين الحديثين المتعارضَيْن ، من ذلك :

- الحديث الذى تُحُمِّل عن طريق السماع مقدم على غيره من أنواع التحمل كالعرض أو الكتابة - فى حالة التعارض .

- إذا كان أحد رواة الحديث الأول قد تحمّله وهو بالغ ، وتحمّل راوى الآخر هذا الحديث وهو صبى قُدِّم الحديث الأول ؛ لأن البلوغ أعْوَنُ على الضبْط .

- أن يكون أحد الراويَيْن أحسن سياقاً من الآخر للحديث ، وهذه متعلقة بالأداء ؛ ولذلك قَدّموا حديث جابر بن عبد الله فى (الحج) على غيره[١٢] ، لأنه أحسن سياقاً وأكمل : قال الإمام النووى :

« هو أحسن الصحابة سياقةً لرواية حديث حجة الوداع » .

وعقد له ابن كثير فى « البداية والنهاية » فصلاً مستقلاً ، وقال :

« وهو وحده منسك مستقل »[١٣] .

٤ - قرائن تتعلق بمَخْرج الحديث ونوعيَّة الشيوخ :

- فالحديث الحجازىّ مقدّم - خصوصاً

---

(١٢) من مواضع الحديث : مسلم ٤/٣٨ - ٤٣ (بشرح النووي) ، أبو داود ١/٢٩٨ - ٣٠٠ ، البيهقى ٥/٧ : ٩ ، الحاكم ١/٤٥٥ . وغير هذه المواطن التى استوعبها الشيخ ناصر الدين الألبانى فى كتابه (حجة النبى ﷺ) ، ط / المكتب الإسلامي - بيروت .

(١٣) ابن كثير : البداية والنهاية ٥/١٤٦ - ١٤٩ ، شرح النووى على صحيح مسلم ٤/ ٣٨ - ٤٣ .

المدنىّ - على الشامىّ والعراقىّ ؛ لأن المدينة موطن الحديث ومخرجه ، وأهلها أهل سنة المصطفى - ﷺ - ، وأول ورثة علمه المبارَك .

- والحديث الذى سمعه راويه من مشايخ بلده مُقَدَّمٌ على الذى سمعه راويه من الغرباء - خصوصاً فى الأحاديث التى تحتوى على مصطلحات - فأهل كل بلد أعلم بمصطلحاتهم .

٥ - قرائن تتعلق بجودة الإسناد :

- فالحديث المتفق على رفعه أرجح من الحديث المختلف بين رفعه ووقفه .

- والحديث المتفق على وصله خير من الذى يصله بعضهم ويرسله الآخر .... إلخ .

٦ - قرائن فى لفظ الحديث ومتنه :

- فيرجح الحديث الذى يرِدُ مطلقاً فى لفظه على الحديث المرتبط بسبب معيَّن ؛ لأن الأصل فى الأحكام الاستمرار والانسحاب على كثير من مفردات الأحوال .

- ويُقدَّم الحديث الذى يحتوى على زيادة زادها أحد الثقات - على الآخر الذى ليس فيه هذه الزيادة ، لأن « زيادة الثقة مقبولة » - كما نص الشافعى[١٤] : (ولكن ينبغى التفرقة بين زيادة الثقة وبين الشذوذ - وهذا مكانه كتب مصطلح الحديث) .

٧ - قرائن أخرى تتعلق بشواهد الحديث :

ومفهوم الشواهد - عند العلماء - يمكن أن يُفسَّر بما يسمى (موافقة الحديث لروح التشريع) ؛ فحين يتفق الحديثان فى درجة الصحة ، ويكون أحدهما أكثر ملاءمة لروح التشريع والآخر فذاً لا يسنده من عموم التشريع شىء يرجح الأول . وتعرف هذه الملاءمة من معاضدة الحديث بأحاديث وآيات أخرى تمثل معانٍ عامة فى الشريعة توافق هذا الحديث ، أو بكثرة المفتين به أو العاملين من أهل القرون المشهود لها بالخير .

بين النسخ والترجيح :

وهذه المواضع المتقدمة هى بعض ما سطر العلماء ، وهى تفتح أعيننا على ثراء عقلى

[١٤] الباعث الحثيث فى علوم الحديث لابن كثير ط / دار التراث .

وعلمى يكمن فى أبواب الفقه الإسلامى . وينبغى أن نؤكد أن أمثلة مما سجَّل العلماء هى أدخل فى باب التخصيص منها فى باب النسخ ، والتخصيص عارض يعرض على الحكم الشرعىّ العام فى لفظه لقرينة ، وبينه وبين النسخ حدودٌ وفروق لا بد من معرفتها لطالب هذا العلم الشرعى ، وهى مقيدة فى كتبهم ، وبحسبنا هنا الإشارة إلى هذا المجهود الذهنى الذى تكشف عند علمائنا الأوائل ، ذلك المجهود الذى دعّمه عِلْمٌ يزداد سعة كل يوم نشير إلى ذلك بُغية أن يكون حافزاً لذِى همة من أهل البحث فى علوم الإسلام ، والله من وراء القصد ، والله يقول الحقّ وهو يهدى السبيل .

محمد عبد الحكم القاضى
المنيا - مدرسة المنيا الثانوية للبنات

أسباب العذاب

قال الله تعالى : ﴿ ولقد أوحى إلينا أن العذاب على من كذب وتولى ﴾ [سورة طه آية : ٤٨] وقال تعالى : ﴿ فانذرتكم ناراً تلظى لا يصلاها إلا الأشقى الذى كذب وتولى ﴾ [سورة الليل آية : ١٤ - ١٦] وقال تعالى فى حق بعض الكفار : ﴿ فلا صدق ولا صلى ولكن كذب وتولى ﴾ [سورة القيامة آية : ٣١ - ٣٢] فأسباب العذاب منحصرة فى هذين السببين وهما تكذيب القلب بخبر الله ورسوله واعراض البدن عن طاعة الله ورسوله ﴿ فيحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم ﴾ [سورة النور آية : ٦٣] .

كثير من الجهال اعتمدوا على مغفرة الله ورحمته وكرمه فضيعوا أمره ونهيه ونسو أنه شديد العقاب وأنه لا يرد بأسه عن القوم المجرمين .

وأعظم الخلق غروراً من اغتر بالدنيا وعاجلها فآثرها على الآخرة ورضى بها بديلاً من الآخرة وهذا من أعظم تلبيس الشيطان وستويله .

وينبغى أن يعلم أن من رجا شيئاً استلزم رجاؤه ثلاثة أمور : -

أحدها : محبة ما يرجوه .

الثانى : خوفه من فواته .

الثالث : السعى فى تحصيله بحسب الإمكان .

هَدْي النبي صلى الله عليه وسلم في الاعتكاف

بقلم / محمد عبد الحكيم القاضي

الحمد لله وحده ، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده .. من أهم دواعي الاطمئنان على صحة العمل ورجاء قبوله عند الله تعالى أن يكون هذا العمل موافقًا للشريعة الشريفة ؛ لأن الجد والسعي - مهما عظم - إن عرى عن موافقة الشرع ، عرى عن قبول الله له ، ومن ثمة كان السلف يقولون : (اقتصاد في سنة ، خير من اجتهاد في بدعة) .

ومن ثمة كان العون من الله تعالى على تعقب الطريقة المحمدية في العبادة والسلوك والمعاملة ، وتحري السنة النبوية في جوانب الأعمال الإيمانية المختلفة نقول : كان العون من الله في ذلك مطلب العابدين ، وبغية العاملين ، الأمر الذي يشجع مثلي على تلخيص أهم جوانب الاتباع في عبادة النبي صلى الله عليه وسلم ، تشرفًا بالانتماء إليه ، وتزلفًا إلى الله تعالى باتباع هديه .

ولما كان الاعتكاف سنة من أطيب السنن العبادية ، وطريقة من أمتع الطرق السلوكية والتربوية ، كان من الحسن التعرف على الهدي النبوي الكريم فيها تسهيلاً لطريق الاتباع ، وسدًّا لمسارب الابتداع ، عسى أن يكتبنا الله في الذين عناهم المصطفى صلى الله عليه وسلم بقوله : " إن الله وملائكته ليصلون على معلمي الناس الخير " .

الاعتكاف فريضة قديمة :

يصح أن نقول : إن اعتكاف النبي محمد صلى الله عليه وسلم هو من قبيل إحياء السنن القديمة التي ترجع إلى ما قبل سيدنا إبراهيم عليه السلام ، يلفتنا إلى ذلك لفتًا شديدًا قوله تعالى في سورة البقرة : { وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتي للطائفين والعاكفين والرُّكع السجود } [البقرة : ١٢٥] .

فالعاكفون المذكورون في الآية هم المعتكفون ، سواء عَبَّر عنها ابن عباس - رضي الله عنه - بأنهم (الجالسون) ، أو عطاءٌ بأنهم (المجاورون بمكة) ، أو ابن عمر ، بأنهم (الذين ينامون في البيت الحرام) ، ولذلك رجح الرازي أنهم (من يقيم هناك ويجاور) ، وهو المفهوم من اختيار أبي طالب القيسي .

قال أبو محمد عبد الحق بن عطية الغرناطي : (.. فمعناه : لملازمي البيت إرادة وجه الله) ، وكان من دأب النبي صلى الله عليه وسلم إحياء سنن الأنبياء السابقين ، خصوصًا أباه إبراهيم عليه السلام ، صاحب الملة القويمة ، والدعوة الكريمة .

من ثم كان الاعتكاف في المسجد هو هدي النبي صلى الله عليه وسلم وطريقته التي واظب عليها ، إلا أنه اختار لها أيامًا هي من أعظم الأيام عند الله ، وموسمًا هو من خير المواسم ، إن لم يكن خيرها على الإطلاق ، وهو العشر الأواخر من رمضان .

تخبر أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها : (أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يعتكف العشر الأواخر من رمضان حتى توفاه الله) .

وهذا من منطلق التشمير للطاعات في مواعيد القرب ، والاغتراف من معين البركات حين تنفسح

الطرقات ، وتنكشف الأغطية ، وهو من فنون العبادة التي يؤتاها الصادقون في مودتهم مع اللّه جل وعلا ، ومن فقه الطاعة الذي يُمْنَحُه المُوَفَّقون في سلوكهم إليه تعالى ، وكان رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم هو رائدهم وفرطهم ومُقَدَّمهم ، به الاقتداء ، ومنه الاهتداء .

ولعل السيد الجرجاني التفت إلى معنى تربوي للاعتكاف حين عرفه بقوله : (الاعتكاف تفريغ القلب عن شغل الدنيا وتسليم النفس إلى المولى) ، وقيل : الاعتكاف والعكوف : الإقامة ، معناه : لا أبرح عن بابك حتى تغفر لي .

أين اعتكف النبي صلى اللّه عليه وسلم ؟

ولو شئت أن تعرف الموضع الذي كان رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يعتكف فيه فقد قال نافع مولى ابن عمر : (وقد أراني عبد اللّه بن عمر المكان الذي كان رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يعتكف فيه من المسجد) . [رواه مسلم] .

نعم هذا هو اتباع الأثر ، وتعقب السنة ، واقتفاء السبيل ، وهذا هو طريق الهدى وأصل الفلاح ، وهذا المكان تحدده رواية ابن ماجه عن نافع عن ابن عمر عن النبي صلى اللّه عليه وسلم أنه كان إذا اعتكف طُرِح له فراشه ، أو يوضع له سريره وراء أسطوانة التوبة . [ابن ماجه (١/٥٦٤ ح١٧٧٤)] .

وهذا حديث حسن جدًّا ، قال عنه البوصيري : (هذا إسناد صحيح رجاله موثقون) [« مصباح الزجاجة » (٢/٤٣/ح٦٣٥)] .

وأسطوانة التوبة هي التي تاب عندها أبو لبابة - وهو رفاعة بن عبد المنذر - صحابي رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، وكان حليفًا لبني قريظة فأشار إليهم بما أفهمهم حُكْم النبي صلى اللّه عليه وسلم فيهم ، وهو الذبح ، فأراد أن يتوب ، فانطلق إلى المسجد وربط نفسه بأسطوانة من أساطينه بضع عشرة ليلة حتى تاب اللّه عنه وأطلقه النبي صلى اللّه عليه وسلم . [« سيرة ابن هشام » (٣/١٤٤)] .

ويبدو أن ثمامة بن أثال الحنفي - أحد الذين خلفوا عن غزوة تبوك - قد ربط نفسه في الأسطوانة نفسها حتى تاب اللّه عليه .

وهذه الأسطوانة هي الرابعة من ناحية المنبر ، فهي تلي أسطوانة عائشة - رضي اللّه عنها - من جهة المشرق بلا فاصل ، وهي الثانية من ناحية القبر ، والثالثة من ناحية القبلة ، وشرقي هذه الأسطوانة تقع أسطوانة أخرى اسمها (أسطوانة السرير) ، ذكر أن سرير النبي صلى اللّه عليه وسلم كان يوضع عندها ، حتى ظن ابن فرحون أن هذه الأسطوانة هي عينها أسطوانة التوبة ، ولكن يبدو أن السرير كان يوضع بين الأسطوانتين ؛ لأنه كان يوضع وراء أسطوانة التوبة يعني أمام الأسطوانة الشرقية ، وهذا يجمع بين الاسمين ، وقد يكون ما أورده صاحب « الذخائر القدسية » من أن النبي صلى اللّه عليه وسلم كان يعتكف وراء أسطوانة التوبة من ناحية القبلة يساعد على هذا الجمع بين التسميات .

الخباء والخلوة الصحيحة :

ومن المعروف من خلال كتب الحديث أنه صلى اللّه عليه وسلم كان إذا اعتكف ضُرِب له خباء - وهو قبة تشبه الخيمة - وهذا أعون على الخلوة ، والانصراف إلى اللّه ، والانقطاع عن الشواغل الخارجية ، وفي هذا تمام السكينة بمناجاة الحق سبحانه ، ونستعير من الإمام ابن القيم - رحمه اللّه - هذه الكلمات التي يتحدث فيهن عن خلوة المعتكف بأن اللّه تعالى : (.. شرع لهم الاعتكاف الذي مقصوده ورُوحه عكوف القلب على اللّه تعالى ، وجمعيته عليه ، والخلوة به ، والانقطاع عن الاشتغال بالخلق ، والاشتغال به وحده سبحانه ، بحيث يصير ذِكْره وحبه والإقبال عليه في محل هموم القلب وخطراته ، فيستولي عليها بدلها ، ويصير الهم به كله ،

والخطرات كلها بذكره ، والفكرة في تحصيل مراضيه ، فيصير أنسه بالله بدلا من أنسه بالخلق ، فهذا هو مقصود الاعتكاف الأعظم) .

ويقول القرطبي في " المفهم " : (في قبة تركية : هي قبة صغيرة من لبد) .

ولا شك أن اختيار الخوص والحصير واللباد - مع وجود أنواع القماش - يوحي بالتقشف والتقلل من المتاع ، وهذا مناسب للخلوة بالجليل سبحانه .

فأما خباء النبي صلى الله عليه وسلم الذي كان يتخذه فهو قبة تركية على سدتها قطعة حصير على حد تعبير أبي سعيد الخدري رضي الله عنه في " صحيح ابن خزيمة " ، ويفسر لنا الرواة ذلك بأنها قبة خوص بابها من حصير .

وقت اعتكافه صلى الله عليه وسلم :

أما عن زمان اعتكافه صلى الله عليه وسلم ، فالثابت الذي لا ريب فيه ولا اختلاف أنه اعتكف في رمضان ، وأنه قضى الاعتكاف مرة في شوال ، وكذلك الثابت أن آخر الأمر هو اعتكافه في العشر الأواخر من رمضان ، وهو المستفاد من حديث عائشة - رضي الله عنها - الآنف ، أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يعتكف العشر الأواخر من رمضان حتى توفاه الله تعالى .

إلا أن الأمر الذي تتداوله الرواة هو أنه صلى الله عليه وسلم اعتكف أولا في العشر الأوائل ، ثم في العشر الأوسط ، يدل على ذلك حديث أبي سعيد عند ابن خزيمة والطبراني أن النبي صلى الله عليه وسلم اعتكف العشر الأول من رمضان ، ثم اعتكف العشر الوسط - وذلك التماسا لليلة القدر - فلما أوحي إليه أنها في العشر الأواخر مكث العشر الأواخر ، ثم ظل على آعتكاف هؤلاء العشر حتى توفاه الله ، ومثل هذا روي عن أم سلمة عند الطبراني أن النبي صلى الله عليه وسلم اعتكف أول سنة العشر ، ثم اعتكف العشر الأوسط ، ثم اعتكف العشر الأواخر ، وقال : " إني رأيت ليلة القدر فيها فأنسيتها " ، فلم يزل يعتكف فيهن حتى توفي صلى الله عليه وسلم .

وفي هذه الأحاديث ما يشعر بجد النبي صلى الله عليه وسلم وصحابته في طلب ليلة القدر ، وفيه ملمح تربوي ، يلفت إلى جدية طلب الخيرات ، وعدم اليأس من البحث عن الهدى وتحري الفضائل ، وقد يستنتج منها حكم فقهي وهو اشتراط الصوم في صحة الاعتكاف، وهو مذهب جماهير السلف وأكثر الصحابة ، وبه أخذ أبو حنيفة ومالك ، وهي الرواية المعتمدة عند المتأخرين من الحنابلة ، وهو الصواب الذي نميل إليه .

متى يدخل المعتكف ؟ ومتى يخرج ؟

ثبت في " صحيح مسلم " وغيره من حديث عائشة رضي الله عنها قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أراد أن يعتكف صلى الفجر ، ثم دخل معتكفه .

وهذا لفظ صريح في أنه كان يدخل المعتكف بعد صلاة الفجر لا قبلها ، وفي لفظها عند البخاري : (.. فكنت أضرب له خباء ، فيصلي الصبح ، ثم يدخله) .

ومن ثمة ذهب الأوزاعي والليث وسفيان الثوري إلى الجزم بأن أول وقت دخول المعتكف هو بعد صلاة الصبح ، وعبارة ابن حجر تميل إليه ، ولفظ الحديث يسنده ، بل يستدعيه ، وذهب الأئمة الأربعة إلى أنه يدخل المعتكف قبيل غروب الشمس ، وأولوا هذا الحديث على أنه أوان بدء الخلوة بالنفس لا دخول الاعتكاف ، ومنهم من فرق بين من نوى اعتكاف الأيام فيدخل بعد صلاة الصبح ، ومن نوى اعتكاف الليالي فيدخل قبل المغرب ، وهذا هو المبثوث في أكثر كتب الفقه وشروح الحديث .

إلا أن المتأمل لا يجد اضطرارًا لذلك التأول والمخالفة للظاهر ، فالاعتكاف عبادة ، ومدار العبادة على الاتباع للظاهر أو المفهوم ، وليس لاستغراق النظر مجال بحيث يؤول الحديث لمجرد الافتراض ، وقد بحثت عن حديث صحيح أو حسن أو ضعيف يصلح معه تأويل الحديث الصريح السابق ، فلم أجد إلا افتراض وجوب دخول النبي صلى الله عليه وسلم قبل الغروب ، وإلا لما كان معتكفًا العشر بتمامه على حد تعبير المباركفوري في شرحه للترمذي .

أقول : قد قنع السلف بظاهر الحديث ، وعَبَّر الخطابي في شرح الحديث عن ذلك بقوله : فيه من الفقه أن المعتكف يبتدئ اعتكافه أول النهار ، ويدخل في معتكفه بعد أن يصلي الفجر ، وإليه ذهب الأوزاعي ، وبه قال أبو ثور .

وقال مالك والشافعي وأحمد : يدخل في الاعتكاف قبل غروب الشمس إذا أراد اعتكاف شهر بعينه ، وهو مذهب أصحاب الرأي .

وتمسك بهذا الظاهر بعض المتأخرين - وأحسنوا - قال العلامة الصنعاني في " سبل السلام " بعد ذكر الحديث : (.. فيه دليل على أن وقت الاعتكاف بعد صلاة الفجر ، وهو ظاهر في ذلك ، وقد خالف فيه من قال : إنه يدخل المسجد قبل طلوع الفجر إذا كان معتكفًا نهارًا ، وقبل غروب الشمس إذا كان معتكفًا ليلاً ، وأول الحديث بأنه كان يطلع الفجر وهو في المسجد ، ومن بعد صلاته الفجر يخلو بنفسه في المحل الذي أعده لاعتكافه ، (قلت) : ولا يخفى بُعْدُه ، فإنما كانت عادته ، ألا يخرج من منزله إلا عند الإقامة) . انتهى كلام الصنعاني .

والحاصل أن تأول الحديث وتكلف فهمه على مقتضى النظر المجرد دون أن تسنده الرواية ليس من الصواب ، والله أعلم .

وأما خروج النبي صلى الله عليه وسلم من معتكفه فلم أقف على شيء صحيح صريح في التوقيت ، إلا أنه يبدو أن السُّنَّة كانت الخروج من المعتكف إلى الصلاة - يعني صلاة العيد - قال إبراهيم : كانوا يحبون لمن اعتكف العشر الأواخر من رمضان أن يبيت ليلة الفطر في المسجد ثم يغدو من المصلى إلى المسجد .

الهدي النبوي في المعتكف :

وإذا ما علمنا القيمة التربوية للاعتكاف ، والمتعة الروحية في المعتكَف ، فلا تسل عن السيرة النبوية في معتكفه ، إنه التعبير عن الشوق إلى الله واللجوء إلى حماه سبحانه ، والاشتغال به عمن سواه ، لا يخلو وقته عن عرض القرآن ومدارسته مع جبريل عليه السلام ، أو الصلاة وقراءة القرآن ، وألوان العبادة الروحية ، يشغله ذلك عن عيادة المريض وشهود الجنائز ، لأن السُّنَّة على المعتكف ألا يعود مريضًا ولا يشهد جنازة ، ولا يمس المرأة ، ولا يباشرها ، ولا يخرج لحاجة ، إلا لما لا بد منه ، فإذا كان لا بد له من عيادة مريض عاده مارًا عليه دون أن يعرج عليه ، وكان لا يدخل البيت إلا لحاجة الإنسان ، حتى إنه كان إذا أراد أن يمتشط أخرج رأسه من المعتكف إلى حجرة عائشة رضي الله عنها فمشطته ، ولا يُخرج بدنه .

لذلك نقل ابن المنذر وغيره إجماع العلماء على جواز خروج المعتكف للبول والغائط (وهي حاجة الإنسان) ، وفي حكمه الطعام والشراب ، إن لم يتمكن من أن يكلف غيره بذلك أو من اصطحابه في المسجد إن لم يؤذ المسجد أو المصلين بذلك .

إلا أن هذا العكوف المبارك لم يمنع النبي صلى الله عليه وسلم من بعض المباحات التي فعلها تشريعًا لأمته وبيانًا لجوازها ، مثل السمر مع ضيوفه ساعة بالنهار أو بالليل ، خصوصًا زوجاته ، فهو قد استقبل زوجه أم المؤمنين صفية بنت حيي ، فسمرا معًا ساعة ، ثم قال

لها : « لا تعجلي حتى أنصرف معك ، فمشى معها حتى بلغا باب المسجد » .

هذا على الأصح من الروايات ، وقد وهم جماعة فظنوا أنه خرج معها من المسجد ، وإنما توهموا ذلك ؛ لأن في الحديث : (.. وكان بيتها دار أسامة ، فخرج معها النبي صلى الله عليه وسلم ، فلقيهما رجل من الأنصار) ، ففهموا من السياق أنهما خرجا معا إلى دار أسامة بعيدا عن المسجد ، وأن الأنصاريين لقياهما خارج المسجد ، لكن قال الحافظ : (.. ولكن لا دلالة فيه ، لأنه لم يثبت أن منزل صفية كان بينه وبين المسجد فاصل زائد) .

والظاهر أن المراد بقوله : (دار أسامة) ، أنها الدار التي أصبحت بعد ذلك لأسامة بن زيد ؛ لأن أسامة لم يكن له في هذا الوقت دار مستقلة ، ثم وجدت الحافظ ابن خزيمة يترجم بابا من أبواب كتابه قائلا : (باب ذكر الدليل على أن النبي صلى الله عليه وسلم إنما بلغ مع صفية حين أراد قلبها إلى منزلها باب المسجد ، لا أنه خرج من المسجد فردها إلى منزلها) ، وذكر فيه حديثا - لفظه عن البخاري أيضا - وفيه : (حتى إذا بلغت باب المسجد الذي عند باب أم سلمة مر بهما رجلان من الأنصار) .

ولذلك ترجم البخاري لهذا الحديث بقوله : (باب هل يخرج المعتكف لحوائجه إلى باب المسجد ؟) .

قال الحافظ : وفي الحديث من الفوائد جواز اشتغال المعتكف بالأمور المباحة من تشييع زائره والقيام معه ، والحديث مع غيره ، وإباحة خلوة المعتكف بالزوجة ، وزيارة المرأة للمعتكف .

ولم يختلف أحد في جواز الاشتغال بالمباحات بعض الوقت ، لكن مع التأكيد على أن الاعتكاف - في أصله - خلوة بالله تعالى ، فينبغي أن يقلل المرء مما يشغله عن ربه ، وهذا كان دأب النبي صلى الله عليه وسلم .

ويستفاد من الأحاديث الصحيحة المروية في اعتكاف النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان صلى الله عليه وسلم كان يقود المعتكفين إلى الخير ، ولا يمنعه اعتكافه من أمرهم بالمعروف ، وتعريفهم بالصواب ، فقد روى الإمام أحمد وغيره أن الصحابة - وهم معتكفون مع النبي صلى الله عليه وسلم - قرءوا القرآن ، فكل منهم قرأه بصوت مرتفع ، فأخرج النبي صلى الله عليه وسلم رأسه من خبائه ، وقال لهم : « ألا إن كلكم مناج ربه ، فلا يؤذين بعضكم بعضا ، ولا يرفعن بعضكم على بعض في القراءة » [المسند ٣/٩٤] .

وهذا يدل على أن القائد لا يتخلى عن موضع القيادة ، والدأب في مصلحة أصحابه حتى في لحظات الخلوة بربه ؛ لأن أبواب الخير لا يدفع بعضها بعضا ، وإنما يشد بعضها بعضا .

نفحات أخرى :

ورسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يتابع أصحابه المعتكفين ، يتركهم يفعلون المباح ، ولا يحجر عليهم في ذلك ، فهم يضعون متاعهم في المسجد ما لم يؤذوا به المصلين ، وهو لا يكف عن تحميسهم على القيام والتهجد ، وتحبيب ذلك لهم ، ويعمل من الأعمال ما يبشرهم به ، فهو يصف لهم ليلة القدر نفسها ، فيما روي عنه بأنها : (ليلة طلقة بلجة ، لا حارة ولا باردة) ، ويخبرهم بشمس صبيحتها بأنها تطلع على شعاع لها - مثل الطست - حتى ترتفع .

بل ربما تحرى هو أن ينظر إلى القمر ، فيقول لهم : « خرجت حين بزغ القمر ، كأنه فلق جفنة » ، ثم يقول : « الليلة ليلة القدر » .

وقد يجد أن من واجبات التربية وضرورات التوجيه أن يلغي اعتكافه الذي شرعه ؛ ليكون لإلغاء اعتكافه أثر في نفوس من يريد الاعتبار ، فقد شرع في

اعتكافه عامًا ، فضرب قبتـــة ، فاســتأذنته عائشـــة رضي اللّه عنها ، فأذن لها ، فضربت لها قبة ، فما لبث نساؤه أن عرفن ذلك ، فتوافدن إلى المســجد ، كــل تضرب لها قبة ، فلما رأى النبي صلى اللّه عليه وسلم ذلك ، كأنه استشعر أن دافعهن هو الغيرة ، والمسابقة في القرب منه صلى اللّه عليه وسلم ، فقــال لهــن : « آلبر تردن ؟ » فنقض اعتكافه ذلك الشهر ، وأمرهن أن ينقضن أخبيتهن ، ثم اعتكف في شوال ، ولم يــرد أنهن اعتكفن معه .

قال النووي : وسبب إنكاره أنه كره أن يكن غير مخلصات في الاعتكاف ، بل أردن القرب منه لغــيرهن عليه .

أقول : وإنما لم يكتف بالتوجيــه ، أو بــأمرهن أن ينقضن اعتكافهن حسب ، لأهميــة هــذا التوجيــه ، وخطورة هذه الخطوة التي أقدمن عليها مــن حيــث دوافعها . فأراد أن يحدث مقابل ذلك حَدَثًا بَقِيَّ الأثر ، قوي الدلالة ، وهو نقضه هو نفسه الاعتكــاف ، وفي هذا مبالغة في التوجيه عند موقف يستحق هذه المبالغة ، لأنه يتعلق بإخلاص العبادة للّه تعالى ، وهو المحور الذي تدور حوله قلوب الموحدين .

قال الحافظ : وفيه – أي الحديث – شؤم الغيرة ؛ لأنها ناشئة عن الحسد المفضي إلى ترك الأفضل لأجله ، وفيه ترك الأفضل إذا كان فيه مصلحة ، وأن من خشي على عمله الرياء جاز له تركه وقطعه .

قضاء الاعتكاف ومضاعفته :

إلا أن سيرة النبي صلى اللّه عليه وسلم في الأعمال تظهر خُلُقًا واضحًا ، وسلوكًا دائمًا ، تجــاه العمــل الصالح ، وهو محبته صلى اللّه عليه وسلم المداومة على الصالحات ، ومواصلة القربات ، من ثمة رأيناه إذا عمل من الصالحات عملاً – وإن كان مستحبًّا لا واجبًــا – داوم عليه ، فإن تركه لعذر قضاه ، والاعتكاف أحــد الأمثلة الواضحة على هذا الهدي النبــوي الكــريم ؛ فالحديث السابق يذكر أنه صلى اللّه عليه وســلم لمــا نقض اعتكافه في العشر الأخيرة مِنْ رمضان قضــاه في شوال ، وقد صنع ذلــك كلمــا اضطــر إلى تــرك الاعتكاف ، فروى الترمذي عن أنس رضي اللّه عنه : أن النبي صلى اللّه عليه وســلم لم يعتكــف عامًــا في رمضان ، فلما كان في العام المقبل اعتكف عشرين .

والظاهر أن سبب تركه للاعتكاف هذا العام كان لعذر السفر ، فقد روى النسائي وابن حبــان روايــة واضحة في ذلك عن أبي بن كعب : أن رسول اللّــه صلى اللّه عليه وسلم كان يعتكف العشر الأواخر من رمضان ، فسافر عامًا فلم يعتكف ، فلما كان العــام المقبل اعتكف عشرين يومًا ، ومثله حديث أنــس – عنده – أنه صلى اللّه عليه وســلم إذا كــان مقيمًــا اعتكف العشر ، فإذا سافر اعتكف من العــام المقبــل عشرين .

هذا هو دأب النبي الكريم في كل العبادات ، وهو مشعر بمدى وده عليه السلام للعبادة ، وحرصه علــى اتصاله بها ، واتصالها به ، وتفانيه في العطاء من نفســه لرضا ربه ، وفيه ما فيه من الزاد لمن خلفه من المحبين ، وورثة علمه من العاملين المخلصين .

وآخر دعوانا أن الحمد للّه رب العالمين .

وكتبه محمد عبد الحكيم القاضي

نحو توثيق السيرة المباركة :

بقلم الشيخ / محمد عبد الحكيم القاضي

تكمن أهمية دراسة السيرة النبوية المباركة في تقديم صورة صادقة وأمينة عن حياة سيد الأنبياء صلى الله عليه وسلم ، وهذا الهدف ليس بالأمر السهل ؛ فمنذ بداية تدوين السيرة والعلماء يضعونه نصب أعينهم ، فيتوقفون أمام المدوّنات والأخبار التي تصل إليهم ، وينظرون إليها بعين التمحيص والنقد ، إلا أن هذا المجهود لم يكن ليقف أمام تسرب عناصر إخبارية غير مرضيّ عنها علميًا إلى كراسي الوعظ والقصص ، وهم الذين سموا باسم ((القُصّاص)) ، وتحمّلوا تبعة ترويج البضاعة الإخبارية التي رفضت - علميًا - بين طبقات الناس المختلفة .

ومن ثَم تحصّل محصول من الأخبار في السيرة والشمائل المحمدية تحتاج إلى إبراز الموقف الحديثي باعتباره الموقف النقدي المعتبر منها ، وهذا هو ما ستحاول هذه السطور بقديم نماذج منها ، تنبيهًا إلى أهمية توثيق السيرة المباركة والرجوع إلى المصادر الإخبارية والنقدية الموثوق بها حين دراستها .

قصة بَحيرا الراهب :

من أشهر القصص في كتب السيرة والدلائل قصة اصطحاب أبي طالب للنبي صلى الله عليه وسلم إلى الشام ، وتعرّف الراهب (بحيرا) عليه ، ومعرفته نبوته ، وذكره ذلك لأبي طالب في طفولة النبي صلى الله عليه وسلم ، وتحذيره إياه من استمرار اصطحابه إياه إلى الشام خوفًا عليه من اليهود ، الأمر الذي حدا بأبي طالب أن يرجع بمحمد صلى الله عليه وسلم إلى مكة ، في قصة طويلة مختلفة في سياقها وتفاصيلها بين أصحاب السير :

١- فقد ذكره ابن إسحاق في سيرته ، بدون إسناد .

٢- ورواه أحمد بن حنبل والترمذي والخرائطي وغيرهم ، من حديث قراد - أبي نوح - وزاد فيه : أن أبا بكر كان معهم في هذا السفر ، وأنه لما رجع أبو طالب به إلى مكة بعث معه بلالاً .

٣- ورواه معتمر بن سليمان والزهري بدون ذكر اسم الراهب ، وهذه الرواية اقتصر عليها المقريزي في ((إمتاع الأسماع)) .

وهذه الروايات أثارت مناقشة كبيرة بين علماء النقد من المحدّثين :

- فقد استغرب هذا الحديث جماعة من المحدّثين ؛ منهم الإمام الترمذي ، فقد قال بعد سياقته : (هذا حديث حسن غريب ، لا نعرفه إلاّ من هذا الوجه) . يقصد بذلك طريق قراد . المشار إليه .

- وضعّفه جماعة ، واستنكروه جدًا ، منهم الحافظ الذهبي ، الذي ذكره في ((تاريخ الإسلام)) تحت عنوان : (سفره مع عمه - إن صحّ) ، ثم قال : وهو حديث منكر جدًا ، بل لقد تعقّب الحاكم في تصحيحه إياه بقوله : أظنه موضوعًا ، وكذلك الظاهر من صنيع الحافظ ابن كثير أنه يستغربه جدًا .

- ومن النقاد من صحّحه بشواهده المختلفة ، ومنهم الحاكم في ((المستدرك)) ، والحافظ جلال الدين السيوطي في ((الخصائص الكبرى)) ، قال : (ولها شواهد عِدّة سأوردها تقضي بصحتها) . ومالَ الحافظ ابن حجر في ((الإصابة)) إلى قبولها جملة ، وإنكار الزيادة التي تروي وجود أبي بكر وبلال . قال : (الحديث رجاله ثقات ، وليس فيه منكر إلا هذه اللفظة) . بل قد قطع في ((الفتح)) بقبوله ، قال : (إسناده قوي) .

إلاّ أن المدقق في روايات الخبر ، وفي صنيع هؤلاء المحدّثين والنقاد يلاحظ مجموعة من الملاحظات :

اولها : أن الخبر قد جاء من طرق مختلفة ، وأوجه متباينة تؤكد أن له أصلاً صحيحًا :

أحداث ومواقف في السيرة النبوية بين القبول والرد

قسم خاص من الأساطير التي أحاطت بسيرة النبي محمد صلى اللّه عليه وسلم ، ولها نظائر كثيرة من نفس النوع ، وكلها ترمي إلى أنّ أهل الكتاب عرفوا من كتبهم من قبلُ بعثة النبي صلى اللّه عليه وسلم) .

وهذا الصنيع من (فنسنك) يحاول أن يسجّل حكمًا عامًّا على كل الأخبار التي تواترت بتعرّف الأحبار والرهبان والكهان على النبي صلوات اللّه عليه قبل مولده ، وقبل مبعثه ، وبعد مبعثه . وهو صنيع يضرب ببديهات المنهج العلمي عُرْضَ الحائط ، إذ لا يدخل في غمار البحث المنهجي حول رواية القصة ونقلتها ، والدراسات التي صيغت حولها ، وإنما يبادر إلى القول الفج غير المعلل بأنها أسطورة ، ويُلْحق هذا اللهاث الجريء

– فقد خرّجه ابن سعد من طريق أبي المليح عن عبد اللّه بن محمد بن عقيل – مرسلاً .

– وابن عساكر من طريق محمد بن سعد بإسناده إلى أبي مجلز .

– والواقدي بإسناده إلى داود بن الحصين .

– والطبري بإسناده عن هشام بن محمد ، مرسلاً ، أو مُعْضَلاً .

– وعبد الرزاق من حديث الزهري ، مرسلاً .

– وابن عائذ من حديث الوليد بن مسلم عن سليمان بن موسى ، مرسلاً هكذا .

– وغيرهم من طرق أخرى ، أضربنا عنها اكتفاءً بما ذكرنا .

والملاحظة الثانية : أن العلماء لا يختلفون في تقوية أمر الحديث الضعيف إذا جاء من طرق متعدّدة ، أو كانت له شواهد أخرى ، كما هو مشهور في مصطلح الحديث .

والملاحظة الثالثة : أنّ الحديث المرسل مقبول عند مالك والحنابلة ، وقد قبله الشافعي إذا جاء من طريقين مرسلين كلاهما مشتهر بأخذ الحديث عن غير الذي يأخذ عنه الآخر ، وهذا هو حال مرسلات هذه القصة .

أمّا الرابعة فهي : أنّ النكارة إنما جاءت لهذا الحديث من قبيل الزيادة التي زادها قراد أبو نوح ، وهي ذكر أبي بكر وبلال في الحديث ، مع أن عمر أبي بكر في هذا الوقت لم يكن يزيد على عشر سنوات ، وأنه لم يكن قد اشترى بلالاً بعد ، وهي زيادة منكرة حقًّا ، إلاّ أنها تدلّ على خطأ قراد – راوي الحديث – أو يونس بن أبي إسحاق ، الذي رواه قراد عنه ، لكنها لا تقدح في أصل الحديث الذي رواه جماعة كثيرة من الرواة .

من هنا نميل إلى صحة الرواية وقبولها ، على النحو الذي رواه أبو نعيم في « دلائل النبوة » من حديث علي ، وهي أخْصَر الروايات ، وقد ذكرها السيوطي في « الخصائص » ، ولم أجدها في نسختي من « دلائل النبوة » لأبي نعيم .

خيانة استشراقية :

فإذا ما قارنا هذا الجو العلمي ، الذي أشاعه البحث في خبر (بحيرا) الراهب ، بالنظرة الاستشراقية لهذا الخبر ، فسنشعر بغير قليل من رائحة التّدني المنهجي والزيف العلمي ؛ فَتَحتَ اسم (بحيرا) من دائرة المعارف الإسلامية ، كتب المستشرق (فنسنك) بحثًا لَخّصَ فيه القصة ، ثم قال : (وهذه القصص

بلهاثٍ آخر يُنهي فيه القضية من أساسها ؛ فيرى أن (نظائرها) من نفس هذا النوع الأسطوري ! ومن هنا يُقوض - بأمنيته - مبدأ أن أهل الكتاب قد تعرّفوا على بعثة محمد صلى اللّه عليه وسلم من خلال كتبهم ، على الرغم من أنه مبدأ موجود في القرآن الكريم أصلاً وليس مستقًى من هذه القصص ، وإن كانت هذه القصص تعد تأكيدًا وتطبيقًا لهذا المبدأ القرآني .

أمّا أنّ المجال مجال مناقشة هذه النتيجة فلا ، وإنما المراد هو إطلاع القارئ على صورة البحث العلمي عند المسلمين ، وصورة هذا البحث العلمي عند رءوس الاستشراق وطريقتهم في الاستنتاج ، ولكنّ مضرب المثل في الوقاحة الدراسية - إن صح التعبير - هو ما اكتشفه (فنسنك) حول شخصية (بحيرا) ، والذي حرص على ذكره ، وهو أنّ الروايات الإسلامية حول شخصية (بحيرا) قد جمعت كلها بالتفصيل في (سفر بحيرا) لكاتب مسيحي في حوالي القرن الحادي عشر أو الثاني عشر ، يدعى (إشوعَيَب) ، وقد ورد في الكتاب كيف لقن سرجيوس (وهو الاسم الحقيقي لبحيرا) ، محمدًا صلى اللّه عليه وسلم عقيدته وشرائعه وأجزاء من القرآن ، وذلك بقصد أن يجعل العرب يعترفون بإله واحد .

ولم يعلّق الأستاذ العالم المنهجي (فنسنك) بحرف واحد يدل على القيمة التاريخية لهذه المقولة ، وكأن الروايات إذا أريد بها إظهار معرفة أحبار أهل الكتاب برسول اللّه صلوات اللّه عليه قبل مبعثه فهي أساطير كلها ، وإذا أريد بواحدة منها أن : (محمدًا نبي كاذب كان يتلقى وحيه من راهب ملحد) . فهنا لا تعليق . وهذا هو نتاج المنهج العلمي والأمانة العلمية عند المستشرقين .

أول الخلق :

إلا أن قصة (بحيرا) لم تُسَجَّل في الضمير الشعبي للأمة مثلما سُجِّلَتْ مجموعة من التصوّرات والمواقف حول النبي المبارك الكريم ، وهذه التصورات والمواقف محتاجة إلى عرضها على ميزان النقد العلمي الذي رأيناه آنفًا عند المسلمين ؛ فكثير من المآذن في (مصر) مثلاً تردّد - بعد الأذان - الصلاة على (أوّلَ خلق اللّه) ، ومع ذلك لم يتبادر إلى ذهن أحد من المصلين أن المقصود هنا هو (آدم) ، عليه السلام ، وإنما المستقر في ضميرهم جميعًا ، سواء أقرّه بعضهم أو رفضه البعض الآخر ، هو أن أول خلق اللّه هو محمد صلى اللّه عليه وسلم ، وقد تضافرت على صُنع هذا التصور مجموعة من الأحاديث المشتهرة على الألسنة ، مثل :

- ((كنتُ أوّلَ الناس في الخَلْقِ وآخرَهم في البعث)) .

- ((كنتُ أوّلَ النبيين في الخلق وآخرهم في البعث)) .

وهذه الأحاديث وما في معناها ليس ممّا يُتوقف عنده ، لِوَهَاءِ أسانيدها .

فقد رواه أبو نعيم في ((دلائل النبوة)) ، وابن أبي حاتم في تفسيره ، وتمام في ((فوائده)) .

كل هؤلاء من طرق عن سعيد بن بشير عن قتادة عن الحسن عن أبي هريرة مرفوعًا .

وهذا إسناد ضعيف ، فيه شذوذ يزيده ضَعْفًا ، وسبب الضعف هو سعيد بن بشير ؛ ضعّفه ابن معين والبخاري والنسائي ، وحسبك بهؤلاء ، وضعّفه غيرهم ؛ قال ابن حبان في ((المجروحين)) : (وكان رديء الحفظ ، فاحِشَ الخطأ ، يروي عن قتادة ما لا يُتابع عليه) .

قُلْتُ : وهذا الحديث من طامّاته وغرائبه ، فقد أورده الذهبي في ((الميزان)) مثالاً على غرائبه .

والذي يدل على شذوذ هذا الإسناد أنّ غير سعيد بن بشير قد رواه عن قتادة مرسلاً ، ومنهم من رواه عنه موقوفًا .

فهذا اضطراب في الإسناد إلى جانب ضعف سعيد ، فإن صحّ المرسل كان ضعيفًا لإرساله ، ولأنّه مخالف لِلَفظ أصحّ منه ، وهو الحديث الذي رواه أحمد في ((السنة)) والطبراني في ((المعجم الكبير)) عن ميسرة الفجر ، رضي اللّه عنه ، قال : (كنتُ نبيًّا وآدمُ بين الرُّوح والجَسَد) .

وذكره الحافظ ابن حجر في ((الإصابة)) في ترجمة ميسرة الفجر ، قال : (وهذا سند قوي) .

ثم ذكر إسناد الإمام أحمد وقال : (وسنده صحيح) .

قُلتُ : وهذا اللفظ هو الذي رواه الأئمة ، وصحّحه من صحّحه منهم ، مثل ابن حبان والحاكم ، ورواه الترمذي عن أبي هريرة أنه قال للنبي صلى اللّه عليه وسلم : متى كُتِبْتَ نبيًّا ؟ قال : ((كُنتُ نبيًّا وآدمُ بين الروح والجسد)) .

واللفظ هنا يدل على أن النبي صلوات اللّه عليه كُتِبَتْ نبوّتُه قبل خلق آدم ، لا أنّه خُلِقَ قبل آدم ، وهو من شريف قضاء اللّه الذي قضاه في الأزل ، فوقع سوء الفهم من الناس ، ثم حمّلوا قتادة ، رحمه اللّه ، جريرة سوءِ فهمه ، أو هو ، رحمه اللّه ، احتملها ، ومن ثمة قال الشيخ الألباني بعد تضعيفه للحديث الأول ، وذكره لهذا اللفظ : (وسنده صحيح ، لكن لا دلالة فيه على أن النبي صلى اللّه عليه وسلم أول خلق اللّه تعالى - خلافًا لما يظن البعض - وهذا ظاهر بأدنى تأمل) .

هذا ولا بد من الإشارة إلى وَهم وقع فيه بعض جامعي الحديث أوْقَعَهم فيه عدم الدَّربة الكافية في نقد الأسانيد أو التعجل في الحكم أو التقليد ، فقد قال السخاوي في ((المقاصد الحسنة)) ، وتابعه العجلوني في ((كشف الخفا)) عن الحديث الأول :

وله شاهد من حديث الفجر .

وقال الشوكاني ، بعد أن ذكره في ((الفوائد المجموعة)) : وله شاهد صَحّحه الحاكم بلفظ : كنت نبيًّا وآدم بين الروح والجسد .

وهذا من الوهم ؛ لأن هذا اللفظ لا يصلح شاهدًا لِلَّفظ الأول ، فالأول يزعم أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم هو أوّلُ الناس في الخلق ، وهذا اللفظ معناه أن اللّه تعالى قضى نبوته قبل خلق آدم ، وشتان بين المعنيين ! فليس تشابه الحروف المتراصّة دليلاً على تشابه المعاني ، ومن هنا أرى أن تضعيف لفظ هذا الحديث - الذي نحن بصدده - فيه قدر من التسامح ، وقد حكم جماعة من العلماء بأنّه موضوع ، منهم الصغاني ، وابن تيمية ، وتابعهما الشيخ التليدي في مقدمته لكتابه ((تهذيب الخصائص الكبرى)) .

وعمومًا فمنزلة النبي صلوات اللّه عليه ، ومكانته عند ربّه ، سبحانه وتعالى ، أعلى من أن تحتاج إلى الأحاديث الواهية لإثباتها أو تأكيدها ، وقد صحّتْ الأحاديث الصريحة بأنّه سيد ولد آدم يوم القيامة ، وأنه له المقام المحمود - وهو الشفاعة العظمى التي لا يتعرض لها من الأنبياء أحد إلا هو - وأنه أول من يفتح باب الجنة ، وأنه أكثر الأنبياء تبيعًا يوم القيامة ، وأنه أوتي من الفضل في الدنيا ما لم يُؤته نبي قبله ، وأنه صاحب الشريعة الحاكمة المهيمنة على الشرائع السابقة ، والمبطلة للتشريعات اللاحقة ، إلى ما لا يحصى من الفضائل الصحيحة ، والمناقب الواضحة الصريحة ، التي لا مزيد بعدها بأحاديث ساقطة ، فيها غلو في قدره صلى اللّه عليه وسلم بما لا يحتاج قدره إليه ، وهو صلى اللّه عليه وسلم القائل : ((لا تُطْروني كما أطْرَت النصارى المسيح ابن مريم)) .

والإطراء : الزيادة في المدح ، والغلوّ في الوصف .

* * *

إلى مغرور

بقلم / محمد عبد الحكيم القاضي

يـا راجـي اللـذة الدنيـا ألـم تتـب ... ولـم تـزل بعـد عـن سـوءٍ وعـن كـذب

قضيـت مـاضيك المعقـلَّ فـي ثبتـةٍ ... أو واثـبٌ لدنـي العيـش مقـترب

أو واثِـبٌ لخصـال كـي تُحصِّلَهـا ... فـترتقي المرتقـى الأعلـى مـن السـبب

بـل ، إنمـا هـي للمسـجيِّ فـي ظلـمٍ ... وللمعـرى عـن التقـوى وعـن قـرب

فـلا تُنـادِ - لـذى ترحالـةٍ - عمـرًا ... أضعتـه فـى طُـلاَبِ العيـش والنشـب

بكيـت ؛ لا خائفـًا مـن يـوم تهلُكـةٍ ... لكـن لأنـك لـم يعطـوك فـي الذهـب

أَضَحِكْـتَ تغـررك السـماء مدكـرًا ... لذائـذ الـرّاح فـي دنٍّ وفـي نُخُـبٍ

أردت مـا أنـت فيـه اليـوم مـن تـرفٍ ... وكـان مـا فيـه أنـت اليـوم مـن حسـب

وليـس نـافع مـن أبطـا بـه عمـل ... طـرَّادةُ المـال أو نسـابَةُ العـرب

وإنمـا العزُّ - لـو أنصفتَ - فـي طلـبٍ ... لخـالد العيـش ، يـا نُعمـاه مـن طلـب !

وإنمـا السبقُ - لـو أنصفـت - مرتقـبٌ ... لحـامل المسـك ، لا حمَّالـةِ الحطـب

إذا تولـت بعيـس المـرء رفقتـه ... فـإنَّ خبرتـه فـي الصـحب لـم تطـب

موضوع العدد

هل كان الشوكاني زيديًا؟!

دراسة في المشرب العلمي للشوكاني

بقلم الشيخ / محمد عبد الحكيم القاضي

باحث إسلامي

ليس من اليسير أن يُنسب رجلٌ إلى اتجاه عقائدي معين لمجرد بعض الملاحظات على عصره وواقعه . وإلا لكان ذلك تجنيًا على الرجل وافتئاتًا على مبادئه ، فإذا تعلق الأمر بعالم من العلماء الذين وجّهوا حركة الدعوة . وأداروا دفة الحياة العلمية ردحًا من الزمان ، فإن نسبته إلى اتجاه معين بدون التعمق في تراثه العلمي وميراثه الفكري لا يُعتبر افتئاتًا على الرجل وحده ، ولكن افتئاتًا على التاريخ والفكر وموازين البحث العلمي .

ولعل كثيرًا من العلماء وقادة الفكر قد واجهوا شيئًا من التصنيف الفكري الخاطئ - إن صح التعبير - سواء من خصومهم السياسيين أو دسائس الوشاة ، أو نتيجة لسوء فهم قارئيهم بعد وفاتهم ؛ فقد اتهم الشافعي بالرفض ، وكان هذا في زمانه ، واتهم أبو حنيفة بالإرجاء ، وصُنِّف العلامة السني أبو الحسن الأشعري في عداد الجهمية الأشاعرة ، ونسب شيخ الإسلام ابن تيمية إلى مذهب التشبيه ، وبدون تمحيص ذَهب أقوام يسمون أصحابه وأتباعه بالحشوية ، ولم يكن لشيء مما سبق سند من الحق أو العلم ، إلا أثارات من أقوال مبتورة ، أو شواهد من وقائع ناقصة ، ولعله يكون لنا عودة إلى بعض ذلك إن شاء الله .

وممن حاولت أقلام الباحثين تصنيفهم فزجت بهم أحيانًا في اتجاه غير الذي تسنده الأدلة والبراهين : الإمام اليمني العلامة الفقيه المفسر الأصولي أبو علي محمد بن علي الشوكاني ، صاحب ((فتح القدير)) في التفسير ، و((إرشاد الفحول)) في الأصول ، و((نيل الأوطار)) ، و((السيل الجرار)) في الفقه ، وغيرها من الكتب التي تبين عن فَذَاذَة علمية ، وقيمة فكرية لا تكرر كثيرًا ، فقد نسبه بعض الباحثين إلى فرقة الزيدية من الشيعة[1] ، وهي الفرقة التي حُكم باسمها اليمن قرونًا متطاولة من الزمان ، ونسبهُ بعضهم إلى فرقة (المعتزلة) ،

وهي الفرقة التي لها علاقتها الوثيقة بالزيدية ، ولما كان بعض الباحثين - خصوصًا من أشرت إليه - ما يزال مُمارسًا للعلم ، وما يزال تؤخذ عنه نتائجه ، رأيت أن أتوقف مع إطلالة مركزة موجزة عن مشرب منهجه ، وتصحيح نسبته ، إنصافًا للتاريخ الذي هو شاهد على ما تكتب الأقلام .

وإذا كانت البيئة الزيدية التي نشأ فيها الشوكاني ، والجو العلمي المحيط به يُبْدي شيئًا من العُذْر لمن يظن بداية أن الرجل زيدي ، فإن هذا العذر يرفع - بل يذوب - حين ينظر في مصنفات الشيخ نظرة متأنية ، لقد جعلت هذه النظرة العجلى أستاذًا متخصصًا في التفسير يضع ((فتح القدير)) في مكتبته تحت لافتة (تفاسير الزيدية) ، وكتاب ((السيل الجرار)) تحت لافتة (فقه الزيدية) ، بينما يصرح د . أحمد صبحي أنه زيدي المذهب - قبل وبعد اجتهاده وحتى وفاته .

وبمنتهى السذاجة يقرر أحد الناشرين في مقدمة كتاب ((الدَّراري المضية)) للشوكاني أنه زيدي المذهب والعقيدة .

أقول : هذه البيئة الزيدية التي حفَّت الرجل لم تعد عذرًا لمن يطلع على تراثه العلمي ، وإنما هي عذر للجاهل بهذا التراث ؛ فالعقيدة السلفية والمشرب السلفي في الاجتهاد ، والطريقة السلفية في تلقي العلم ، والمنحى السلفي في فروع الفقه ، هذه جميعًا واضحة كلَّ الوضوح في هذا الميزان العلمي الضخم ، وهناك بعض الأمثلة منها :

١- نقول في كتاب ((فتح القدير)) - وهو تفسيره للقرآن -: تدل على أنه لم يهتم إلا بتفسيرات السلف في كل المواضع ، ونادرًا ما كان يعزو للعِترة على الرغم من تقديره لهم ، وخذ مثالاً واحدًا وهو قوله في الآية : ﴿ ثم استوى على العرش ﴾ [الأعراف : ٥٤] .

(قد اختلف العلماء في معنى هذا على أربعة عشر قولاً ، وأحقها وأولاها بالصواب مذهب السلف الصالح : أنه استوى سبحانه - بلا كيف - على الوجه الذي يليق به ، مع تنزهه عما لا يجوز عليه)[٢] .

٢- ما يدعو إليه من طريقته في التعلم ، هي طريقة سلفية بحتة ، لا يشير فيها أدنى إشارة إلى مذاهب الزيدية وكتبهم ؛ ففي كتاب ((أدب الطالب)) - الذي يُعَدُّ منهاجًا عمليًا لطلبة العلم - يدعو المبتدئ إلى قراءة ((جامع الأصول)) ، و((كنز العمال)) ، و((منتقى الأخبار)) ، و((بلوغ المرام)) .. إلخ .

وهي كتب سلفية سنية ، كما يدعو إلى سماع الكتب الستة في الحديث ، وأما الفقه فما أنفع الإطلاع على المؤلفات البسيطة في حكاية مذاهب السلف وأهل المذاهب ؛ كمؤلفات ابن المنذر ، وابن قدامة ، وابن حزم ، وابن تيمية .

ولا سيما مؤلفات أهل الإنصاف الذين لا يتعصبون لمذهب من المذاهب ، ولا يقصدون إلا تقرير الحق وتبيين الصواب .

٣- مخالفة الزيدية في أصولها وفروعها ؛ فلا يُقر من ذلك إلا النَّزر اليسير الذي يدل عليه الدليل ، فهو - على كثرة ما صنف في مسائل الاعتقاد - لم نعثر له على رسالة واحدة تشبه كلام الزيدية في اعتقاداتهم ، بل ضرب الذكر صفحًا عن ذلك كله ، حتى رسالته المسماة ((العقد الثمين في إثبات الوصية لأمير المؤمنين)) ، لم تكتب وصية لأمير المؤمنين ، بل هي وصايا عامة لا تتعرض للخلافة بشيء ، وكأنه يريد بذلك أن الوصية التي تثبتها الشيعة ، ومنهم الزيدية لعلي بن أبي طالب ، ليست ثابتة .

وأما بقية الأصول - الخاصة بالاعتقاد في اللّه تعالى ومسائل القدر ونحوها - فهي أصدق دليل على سلفية الإمام الشوكاني ، وردّه على الزيدية ، وسنتناول ذلك في أثناء مناقشتنا لاتهامة بالاعتزال .

٤- فأما قضايا الفروع الفقهية ؛ فيبدو أن شرح الشيخ لكتاب ((الأزهار)) الذي صنفه العالم الزيدي والزعيم السياسي أحمد بن يحيى الملقب بالمهدي ، يبدو أن شرحه لهذا الكتاب كان من أسباب الظن بزيديته ، وسبحان اللّه ، فهذا الشرح يدل على سلفيته ، وتعقبه لأراء الزيدية ، ويبدو أن سبب اهتمامه به هو أنه أول ما حفظ من كتب الفقه ، كما يقرر ذلك في كتابه ((البدر

الطالع)) ، وهو أول ما قرأ على والده أيضًا مع شرحه ، ثم كرر قراءة شرح ((الأزهار)) وحواشيه على العلامة الحرازي ، أما شرحه هو للكتاب فكان آخر ما عمل - على قدر علمي - لأنه يحيل فيه على كثير من مؤلفاته السابقة ، وعمومًا فهو بعد ((نيل الأوطار)) ، فقد ذكر ((نيل الأوطار)) في ((البحر الطالع)) أول ما ذكر من مؤلفاته ، وفي آخر القائمة قال : وهو الآن يشتغل بتصنيف الحاشية التي جعلها على ((الأزهار)) ، وسماها ((السيل الجرار)) قال : وهي مشتملة على ما دل عليه الدليل ودفع ما خالفه .

وقال صديق حسن خان : إنه في هذا الكتاب (زيف ما لم يكن عليه دليل) ، والدليل على مخالفته الشديدة لمذهب الزيدية في هذا الكتاب أنه أثار المقلدين لمذهب الزيدية ضده ، وأرسل إليه أهل جهته بسببه سهام اللوم والمقت ، وثارت من أجل ذلك فتنة في صنعاء ، توهمًا من المقلدين أنه ما أراد إلا هدم مذهب أهل البيت ؛ لأن ((الأزهار)) هو عمدتهم في هذه الأعصار .

وقد ذكرت أمثلة على مخالفة الشوكاني للزيدية في هذا الكتاب حين تقديمي لكتاب ((فتح القدير)) فلتراجع[٣] .

فإذا ما انتقلنا إلى كتابيه الآخرين في الفقه ، وهما ((نيل الأوطار)) ، و((الدراري المضية)) نلاحظ أنه خالف الزيدية في أشهر ما ذهبوا إليه في الفروع ؛ منها :

أ- إرسال الأيدي في الصلاة :

قال في ((نيل الأوطار)) : (... والحديث يدل على مشروعية وضع الكف على الكف ، وإليه ذهب الجمهور ، واحتج القائلون بالإرسال بحديث جابر بن سمرة ، وقد عرفناك أن حديث جابر وارد على سبب خاص)[٤] .

وقال في ((الدراري)) : وأما الضم لليدين - اليمنى على اليسرى - حال القيام ، فقد رواه عن النبي ﷺ نحو ثمانية عشر صحابيًا ، حتى قال ابن عبد البر : إنه لم يأت فيه عن النبي ﷺ خلاف .

ب- حي على خير العمل :

في ((نيل الأوطار)) ذكر هذه الزيادة ، ونسبها إلى العِتْرة ، وناقش القول بها ، ثم ذكر أدلة الجمهور على منعها ، ولم يرجح شيئًا ، بل إيراد ذلك بهذه الطريقة يدل على أنه لم يقبلها[٥] .

وفي ((الدراري)) لم يذكر الزيادة أصلاً في الأذان المشروع ، ولكن ظاهر صنيعه في الشرح التحفظ ، بل هو في ((السيل الجرار)) يؤكد رفضه لهذه الزيادة قائلاً : هذا اللفظ قد صار من المراكز العظيمة عند الشيعة ، ولكن الحكم بين المختلفين من العباد هو كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، ولم يثبت رفع هذا اللفظ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم في شيء من كتب الحديث على اختلاف أنواعها ، ثم شرع بعد ذلك في رد هذه الزيادة .

جـ- الجمع بين الصلاتين في الحضر :

صنف رسالة خاصة في الرد على الزيدية فيها هي : ((تشنيف السمع بإبطال أدلة الجمع)) .

د- المنع من الصلاة خلف الفاسق والفاجر :

قال في ((نيل الأوطار)) : والحق جواز الائتمام بالفاسق ؛ لأن الأحاديث الدالة على المنع ، ضعيفة ولا تقوم بها حجة ، قال : وقد جمعنا في هذا البحث رسالة مستقلة .

هـ- زكاة الخمس :

المقصود بها عند الشيعة - زيدية وجعفرية - إخراج الخُمُس ليس في الركاز ، أو خمس في الغنائم فقط ، وإنما إخراجه من كل ما يَفْضُل عن مُؤْنَةِ السنة من أرباح التجارات وسائر التكسبات ، ويدخل فيها عندهم الهبة والهدية والجائزة والوصية وغيرها من المكاسب .

والشوكاني يذكر كتاب الخمس في ((الدرر)) فيقول :

يجب فيما يغنم في القتال ، وفي الركاز ، ولا يجب فيما عدا ذلك ، ويؤيد هذا في ((الدراري)) فيقول : وأما كونها لا تجب فيما عدا ذلك فلعدم الإيجاب الشرعي والبقاء تحت البراءة الأصلية .

أين الشوكاني من الزيدية إذن ؟ بل أين الزيدية من الشوكاني ؟ إنه يخالفها في كل شيء ؛ لأنه لا يُقر إلا ما دل عليه الدليل ، وهذا هو المنهج السلفي الذي لا شَوْب فيه ، ولا شائبة عليه .

الشوكاني والمعتزلة :

ومن ثمة فإن القول بزيدية الشوكاني إنما يقوله الجاهل بعلوم الشيخ ومصنفاته ، لكنَّ المُغْربَ حقًا هو من زعم أنه ((معتزلي)) ، وما نظن الذي غمزه بهذا إلا أراد إمداد التيار العلماني في اليمن الحديث بشيء من اعتزالية (مفترضة) في شخصية تراثية يمنية ، تُمثل اتجاهًا تحرريًا واضحًا ، فهو في نظر التحرري الجديد معتزلي جديد ، قدَّم منهجًا جديدًا للاعتزال ، يقوم على إعلاء شأن العقل والاجتهاد ، والحرب ضد التقليد ، والتعصب ، والتزمت ، والشعوذة ، والدجل والاحتيال والنصب ، والانتصار للحق والعدل ، بشجاعة وجُرأة .

ونقول للمؤلف : رويدك ، فهذا الذي تتحدث عنه ليس هو الاعتزال ، وإنما هو الإسلام أصلاً ، لقد جعل الكاتب مهمَّته التغزُّلَ في الفكر الاعتزالي أكثر من أن يهمه موقع الشوكاني منه ، كأن مذاهب الإسلام كلها كانت تحقيرًا من شأن العقل ، ودعوة إلى التقليد والتعصب والشعوذة والدجل والنصب والاحتيال .

ومع ذلك فالشوكاني كان أبعدَ ما يكون عن الاعتزال ، وتبرئته من الزيدية هي في الحقيقة تبرئة له من الاعتزال ؛ لشدة التعاتق بين الفكرين .

فالمشهور أن الإمام زيد بن علي قد تتلمذ أولاً على واصل بن عطاء شيخ المعتزلة ، ونستطيع أن نقول - بناء على استقراء تام لمعظم ما وصلنا من عناوين كتب الزيدية في مسائل الاعتقاد ، وبعض ما فيها -: أن مذهب الزيدية لا يختلف عن المعتزلة إلا في مسألة الولاية .

فإذا ما جئنا إلى مؤلفات الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين - وهو فاتح اليمن ومؤسس الدولة الزيدية فيها - نجدها تنطق بالاعتزال ؛ ومنها كتاب ((المنزلة بين المنزلتين)) ، و((الرد على أهل الزيغ من المشبهين)) ، و((الرد على المجبرة)) .

وإن كان يهمنا هذا الأمر - وهو العلاقة بين الزيدية والمعتزلة - فإن الأهم لدينا الآن هو موقف الشوكاني من قضايا الاعتزال ، الذي يعتبره د . عبد العزيز المقالح صاحب منهج جديد في الاعتزال ، ولعل القارئ حين يقرأ هذه الفقرة من تفسير الشوكاني المسمى بـ ((فتح القدير)) يدرك الإجابة على هذا السؤال :

يقول الزمخشري - وهو المُعَبِّر عن فكر المعتزلة أدق تعبير - في تفسير قوله تعالى : ﴿ ونودوا أن تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون ﴾ [الأعراف : ٤٣] .

﴿ بما كنتم تعملون ﴾ : بسبب أعمالكم ، لا بالتفضل ، كما تقول المُبْطلة ؛ ويعني بالمبطلة أهل السنة .

قال الشوكاني معلقًا :

أقول : يا مسكين ، هذا ما قاله رسول الله ﷺ فيما صح عنه : ((سددوا ، وقاربوا ، واعلموا أنه لن يدخل أحد الجنة بعمله)) . قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : ((ولا أنا ، إلا أن يتغمدني الله برحمته)) .

ولولا التفضل من الله سبحانه وتعالى على العامل بقُدْرته على العمل لم يكن عمل أصلاً ، فلو لم يكن التفضل إلا بهذا الإقرار لكان القائلون به محقة لا مبطلة[٥] .

فهو هاهنا يدافع عن أهل السنة ضد المعتزلة ، ويرد عليهم ردًا صارمًا ينطق بسلفيته التي لا يشوبها شبهة ، كيف لا وهو الذي يقول في شعره :

أريد نَشْرَ السُّنَنِ
في كُل قُطْر اليَمَنِ
ومَحْوَ آثار البِدَعْ
وهتْكَ أستار الشَّنَعْ
وبعد هذا الجَنَّةْ
تَفَضُلاً ومِنَّةْ

وصلى الله على محمد وآله وصحبه .

(١) ((فتح القدير)) للشوكاني ط . دار التراث الإسلامي ، القاهرة .
(٢) مقدمتي لكتاب ((فتح القدير)) للشوكاني .
(٣) ((نيل الأوطار)) ، تحقيق عصام الدين الصبابطي ط . دار الحديث (٢١٧/٢) .
(٤) ((نيل الأوطار)) (٤٦/١) .
(٥) ((فتح القدير)) للشوكاني ، ط . دار الفكر (١٩٦/٢) .

صلاة التراويح .. بين السنة والبدعة

بقلم الشيخ / محمد عبد الحكيم القاضي

باحث إسلامي

الحمد للّه الذي بنوره تزول الظلمات ، ويشرق وجه الكائنات ، وبنعمته تتم الصالحات ، وتختم الطيبات ، والصلاة والسلام على نبي الرحمة ، ورسول الهداية والرشاد ، محمد إمام المتقين ، وخاتم النبيين ، وعلى آله وصحابته ، وأوليائه وقرابته ، ومن تبعهم بإحسان ، واجعل لنا في أثرهم متابعة ، وعلى طريقهم مشايعة . وبعد :

فليس الكيّس من يكثر العمل ، وإنما ذاك الذي يحسن العمل ويتقنه ، ويتحرّى صوابه ، ويتجافى عن خطئه ، وما أعظم هذا الكتاب الذي سُطر فيه : ﴿ ليبلوكم أيكم أحسن عملاً ﴾ [هود : ٧] ، ولم يقل : أكثر عملاً ، أو : أسرع عملاً ؛ ذلك أنَّ الإحسان هو مناط القبول ، وميزان الأخذ والعطاء ، ومن ثمة كانت هِمّة الكيس العاقل منصرفة إلى معرفة شرائط الصحة في كل عبادة ، واهتمامه متّجهًا إلى تعلم العلم المؤدّي إلى اتقاء مداخل الخلل والبدعة ، وهما من أسباب بطلان العمل ، لقول النبي ﷺ في الحديث المتفق عليه : ((من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو ردّ)) . يعني مردود على صاحبه .

قال الإمام النووي في شرحه لـ ((صحيح مسلم)) : (هذا الحديث قاعدة عظيمة من قواعد الإسلام ، وهو من جوامع كلمه ﷺ) ، وهذا الحديث مما ينبغي حفظه ، واستعماله في إبطال المنكرات ، وإشاعة الاستدلال به .

أهمية الدعوة إلى السنن :

أقول : صدق - واللّهِ - أبو زكريا ؛ خصوصًا في زمان اختلطت فيه السنن بالبدع ، عند الخاصة ، بَلْه العامَّة ، سواء كان ذلك في العبادات أو في العادات ، ومن ثمة كان من الخير للداعي إلى اللّه ، والذخر للآمر بالمعروف والناهي عن المنكر أن يتعقّب مواطن السنن فيحييها ويدعو إليها ، ومواضع البدع فيُميتُها ويحذر منها .

وعبادة التراويح التي يقيمها المسلمون في بقاع الأرض في شهر رمضان المبارك ، هي إحدى تلك القربات إلى اللّه تعالى ، والوسائل إلى رضاه ، وقبول دعوات الداعين فيها ، وإجابة حاجات المتوسلين من خلالها ، وهي أيضًا من العبادات التي داخلتها البدع ، وتسللت إليها التجاوزات ، حتى

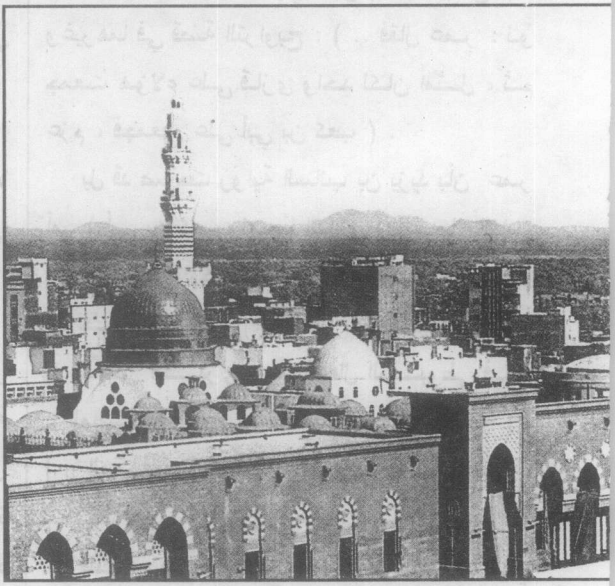

إننا لنراها في بعض المواضع غريبة عن الهدي الصحيح ، كأنها شريعة اشترعها القوم لأنفسهم ولم تُشرع لهم .

فلعله من الخير أن نتوقف بصورة عاجلة عند أهم السنن والمبتدعات المتعلقة بهذه الصلاة المباركة ، والعبادة الفاضلة ، عسى أن ينصلح بها القلب ، ويسعد بها الحال ، فلا شك أن الاتباع سبيل إلى كل خير ، والابتداع ذريعة كل شر .

الجماعة في التراويح :

وأول ما يلفت النظر في هذه العبادة المباركة هو اجتماع الناس لها ، وهي سنة من أحسن السُّنَن ، فقد فعلها نبي اللَّه ، صلوات اللَّه عليه ، كما ثبت من حديث عائشة المشهور في ((الصحيحين)) وغيرهما ؛ أنه ﷺ اجتمع خلفه في صلاة الليل في رمضان ناس كثير ، وحدث مثل ذلك في الليلة التالية ، ثم اجتمعوا في الليلة الثالثة ، فلم يخرج إليهم ، فلما أصبح ، قال : ((قد رأيت صنيعكم ، فلم يمنعني من الخروج إليكم إلا أني خشيت أن تُفرض عليكم)) .

قال الشوكاني في ((السيل الجرار)) (٣٢٩/١) :

(أما صلاة التراويح ، فقد ثبت عن النبي ﷺ أنه صلَّى في ليالٍ من رمضان ، وائتم به جماعة من الصحابة ، وعلم بهم ، فترك ذلك مخافة أن تُفرض عليهم ، وهذا ثابت في أحاديث صحيحة في ((الصحيحين)) ، وغيرهما، بهذا يتقرّر أن صلاة النوافل في ليالي رمضان جماعةً سنة لا بدعة ؛ لأن النبي ﷺ لم يتركها إلا لذلك العذر) .

ولعل هذا يقودنا إلى أن عمل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، رضي اللَّه عنه ، من جَمْعِ الناس على إمام واحد ما هو إلا رجوع للسُّنَّة الأولى بعد زوال المانع من ممارستها .

قال الإمام ابن عبد البر : (لم يسنَّ عمر من ذلك إلا ما سنّه رسول اللَّه ﷺ ، ويحبه ، ويرضاه ، ولم يمنع - النبي ﷺ - من المواظبة إلا خشية أن تُفرض على أمته ، فلما علم عمر ذلك منه ، وعلم أن الفرائض لا يزاد فيها ولا ينقص منها بعد موته ﷺ ، أقامها للناس وأحياها ، وأمر بها) . [((فتاوى السبكي)) : (١٦٨/١)] .

ولا شك أن هذا الصنيع قد أثلج صدور الصحابة ، ولعل أمير المؤمنين عليًّا ، رضي اللَّه عنه ، قد عبرّ عن هذا البِشر ، بقوله حين دخل المسجد فوجد القناديل مضاءة ، والصلاة مقامة في التراويح ، قال : (نوّر اللَّه لك يابن الخطاب في قبرك كما نوّرت مساجد اللَّه بالقرآن) . [((مختصر قيام الليل)) للمروزي (ص٩٤)] .

ومن ثمة ذهب جماهير السلف والخلف إلى استحباب الجماعة فيها ، وأنها أفضل من

الانفراد - حتى إن علي بن موسى القمي ادعى فيه الإجماع - على ما نقله النووي في ((المجموع)) .

وقال أبو جعفر الطحاوي في اختلاف العلماء : (كل من اختار التَّفرُّد ينبغي أن يكون ذلك على ألا يقطع معه القيام في المساجد ، فأمّا التفرّد الذي يُقطع معه القيام في المساجد فلا) .

عددها المؤقت :

والذي ثبت وصحّ ، من فعل المعصوم ﷺ هو أن قيام الليل في رمضان وغير رمضان ، جماعة ومنفردًا ، لم يزد فيه على إحدى عشرة ركعة ، فإن اعتبرنا ركعتي افتتاح القيام بلغ العدد ثلاث عشرة ركعة ، وهذا هو الذي يجمع بين الروايتين في هذه المسألة ؛ إلا أن النبي ، صلوات اللّه عليه ، كان يبلُغُ في إتقان هذه الركعات الإحدى عشرة ، ويبالغ في حُسْن أدائهن ، لما هو كائن من شدة قربه من اللّه تعالى ، وعميق تودّده له في هذه الأيام المباركة ، كان يصنع ذلك حتى قالت عائشة : كان رسول اللّه ﷺ يجتهد في رمضان ما لا يجتهد في غيره . وقد صرّح العيني في ((شرحه للبخاري)) بأن زيادة اجتهاد النبي ﷺ في رمضان (يُحمل على التطويل دون الزيادة في العدد) . [نقلاً عن ((تحفة الأحوذي)) : (٥٤٢/٣)] .

وهذا هو الذي عمل به عمر بن الخطاب يقينًا ؛ فليس هناك شك في أن الصحابة حتى عهد عمر كانوا يتبعون سنة النبي ، صلوات اللّه عليه ، في القيام ، بل كانوا يتنافسون على حسن اتباعها لعلمهم ما في ذلك من الخير ، وأن عمر ، رضي اللّه عنه ، لم يصنع شيئًا في عدد الركعات ، وإنما الذي صنعه هو جمع الناس على قارئ واحد ، وهذا هو الثابت في الروايات ، كما روى مالك في ((الموطأ)) ، والبخاري في ((الصحيح)) ، وغيرهما في قصة التراويح : (.. فقال عمر : لو جمعتُ هؤلاء على قارئ واحد لكان أمثَل ، ثم عزم ، فجمعهم على أبي بن كعب) .

بل قد صرّحت رواية السائب بن يزيد بأن عمر أمر (أبي بن كعب وتميمًا الداري أن يقوما بالناس بإحدى عشرة ركعة ..) ، وهذا حديث صحيح ، أخرجه مالك في ((الموطأ)) ، والبيهقي في ((السنن الكبرى)) ، وقال السيوطي في ((المصابيح)) : (سَنَدُه في غاية الصِّحَّة) . [((المصابيح في صلاة التراويح)) للسيوطي ، بتحقيقنا (ص١١)] .

قُلْتُ : وهذا هو اختيار مالك بن أنس ، الذي خالفه أصحاب مذهبه من بعد ، فقد صحّ عن مالك من رواية الجوزي عنه أنه قال : (الذي جمع عليه الناسَ عمرُ بن الخَطَّاب أَحَبُّ إليَّ ؛ وهو إحدى عشرة ركعة ، وهي صلاة النبي ﷺ) . قال : (ولا أدري من أين أُحْدِث هذا الركوع الكثير) . [((تحفة الأحوذي)) : (٥٢٣/٣)] .

ومن هنا ينبغي أن ينظر بعين الحذر إلى ما جزم به ابن الهمام بقوله : (ثبت العشرون في زمن عمر) . فهذا فيه نظر ومقال كثير ؛ فليس مالك فقط هو الذي روى رواية الإحدى عشرة ركعة في زمان عمر ، وإنما تابعه جماعة من المحدّثين ؛ كعبد العزيز بن محمد في ((سنن)) سعيد بن منصور ، ويحيى بن سعيد القطّان في ((مصنف)) ابن أبي شيبة ، وإسماعيل بن جعفر المدني عند ابن خزيمة - وكل هؤلاء مدنيون من العارفين بعمل صحابة النبي ﷺ في المدينة المنورة - إلى جانب متابعة جماعة من رواة الأمصار ، فدلَّ على ذلك أن هذه الرواية هي الصواب ، وأنَّ الحَمْلَ

عليها ، وعلى خطأ من خطَّأ مالكًا فيه - وقد كان أبو الوليد الباجي - وهو فقيه مالكي - من أوفى المالكية للسُّنَّةِ ؛ إذ قال في شرحه ((للموطأ)) : (فصل : وقوله إحدى عشرة ركعة ؛ أي قول مالك في حديث السائب بن يزيد . قال : لعل عمر ، رضي اللَّه عنه ، امتثل في ذلك صلاة النبي ﷺ على ما روته عائشة ، رضي اللَّه عنها ، أنه كان ﷺ يصلي من الليل إحدى عشرة ركعة) .

قُلْتُ : هذا أثبت ما رُوي في هذا الأمر ، وقد روي حديث العشرين عن عُمر ؛ يعني أنها صليت في عهده عشرين ، وضعفه جماعة من العلماء المتقدمين ؛ منهم الإمام أبو بكر بن العربي في ((عارضة الأحوذي)) ، والمباركفوري في ((التحفة)) ، والشيخ ناصر الدين الألباني في كتابه عن صلاة التراويح ، وقد قوّاه بعضهم واستنهَضَهُ ، فلم يأت بشيء .

ولعل أقوم ما يقال في حديث العشرين أنه لمَّا عارض حديث الإحدى عشرة ، وجب الترجيح بأصول أخرى ، منها أن اختيار مالك - فيما صحَّ عنه ، وروايته أيضًا هي على أنها إحدى عشرة ، ولا شك أن الرواية التي تعاضدها الفتوى خير من الرواية التي تخالفها الفتوى - إذا تساويتا في الصحة ، فكيف ورواية الإحدى عشرة أسْنَدُ - على الأقل .

وكذلك وجب حين الاختلاف على عمر ، رضي اللَّه عنه ، في اتباعه السنة الشريفة أو زيادته عليها ، وجب هنا أن يُرَدَّ هذا الاختلاف إلى سنة النبي ﷺ نفسها ، وبيان أن الأوْلى بعمر ، والظنّ به ، أن يكون قد اتبعها ولم يزد عليها ، وهذه السنة - بإجماع الرواة - هي عدم الزيادة على الإحدى عشرة .

وقد تتبع الإمام المباركفوري في ((تحفة الأحوذي)) هذه الروايات ، وحلَّلها من حيث السند والمتن ، ثم قال : (فالحاصل أن لفظ : إحدى عشرة - في أثر عمر بن الخطاب المذكور - صحيح ثابت محفوظ ، ولفظ : إحدى عشرون في هذا الأثر غير محفوظ ، والأغلب أنه وَهْم . واللَّه تعالى أعلم) .

قُلْتُ : وهذا هو الذي يتجه عند الناقد ، وهو الذي لا نختار غيره ، ومن ثمة كانت صلاة العشرين والثلاثين وفوق ذلك - مهما كانت التأوّلات التي دعت إليها - داخلةً في عداد المحدثات في العبادة ، والبدع الغريبة على طريقة النبي صلوات اللَّه وسلامه عليه .

والتخفيف بدعة :

ومن المبتدعات التي لحقت هذه الصلاة المباركة فأفسدت المقصود منها هو تخفيف الصلاة ؛ قراءة ، وركوعًا ، وسجودًا ؛ فالمعروف أن المقصود من صلاة الليل - خصوصًا في رمضان - هو الشعور بلذَّة المناجاة للَّهِ تعالى ، والتذلّل للجبار سبحانه ، وهذا لا يعينُ عليه إلا طول قيام وطول ركوع وسجود ، ومن ثمة كانت صلاة رسول اللَّه ﷺ بالليل ، ها هي أم المؤمنين عائشة ، رضي اللَّه عنها ، تروي أنه كان يصلي أربع ركعات ، فلا تسأل عن حُسْنهن وطولهن ، ثم يصلي أربعًا فلا تسأل عن حسنهن وطولهن .

وعلى هذا كانت صلاة السلف في رمضان ، وعلى هذه الهيئة من الحسن والطّول جمع عمر بن الخطاب الناس ، ففي حديث السائب بن يزيد المشهور في صلاة التراويح : (.. قال : وكان القارئ يقرأ بالمِئين ، حتى كنا نعتمد على العصي من طول القيام ، وما كنا ننصرف إلا في فروع

الفجر) ، وفروع الفجر : بزوغه ، وأول ما يبدو منه .

وكان أبو رجاء العطاردي - بعد عهد الراشدين - يقرأ بالمصلين في التراويح الثلاثين أو الأربعين آية في الركعة ، وقد كان يومئذ قد بلغ الثلاثين وماتة من عمره . وقال أبو الأشهب : (كان أبو رجاء العطاردي يختم بنا في قيام رمضان لكل عشرة أيام) .

ولما بدأ الناس يتخففون في قيام رمضان ، لم يرخَّصْ لهم فيما هو أقل من عشر آيات في الركعة من سورة ((البقرة)) ، أو ما يساويهن من غير ((البقرة)) ، وقد ختم إسحاق بن راهويه إجابته على رجل يسأله في ذلك بقوله : (.. لا تؤمَنَّهم إذا لم يرضوا بعشر آيات من سورة ((البقرة)) ، ثم إذا صرت إلى الآيات الخفاف فبقدر عشر آيات من ((البقرة)) في كل ركعة) .

قال المروزي : وكره مالك أن يقرأ دون عشرة آيات .

الذكر والتهليل بين التراويح :

ويشيع في بعض المساجد عادة لا يُدْرَى من أين جاءت ، وهي رفع صوت المصلين بأذكار وأدعية معينة ، غالبًا ما تكون مسجوعة غير واردة أصلاً ، يصنعون ذلك بين التسليمات ، وكل ذلك بدعة مذمومة ، مخالفة لهدي النبي الكريم ﷺ ، ومعارضة لمقاصد هذه الشعيرة الطيبة ؛ إذ تتحول الصلاة إلى (مولد) تكثر فيه الأصوات بهذه الأسجاع الغريبة ، وغالبًا ما يصاحب ذلك خفَّة في الصلاة ، فتجتمع البدع .

قال ابن الحاج في ((المدخل)) (٢/٢٩٣) :

(وينبغي له أن يجتنب ما أحدثوه من الذكر بعد كل تسليمتين من صلاة التراويح ، ومن رفع أصواتهم بذلك ، والمشي على صوت واحد ، فإن ذلك كله من البدع) .

وقال السيوطي : (ومن البدع قراءة سورة ((الأنعام)) في ركعة صلاة التراويح ، ويروون في ذلك حديثًا لا أصل له عن ابن عباس ..) .

قُلْتُ : وكذلك تخصيص أي سورة من سور القرآن في ركعة معينة أو صلاة معينة فذلك من البدع ، إلا ما صح من كثرة فعله ، صلوات اللَّه عليه ، من قراءة بعض السور في صلوات بعينها ؛ كسورتي ((الأعلى)) و((الغاشية)) ، أو ((الجمعة)) و((المنافقون)) في الجمعة ، وهذا أيضًا لا يداوم عليه .

وأخيرًا :

أخيرًا ؛ أقول لنفسي : ما رأيت مثلك من خامل يحمل راية الإنكار على الجادّين السالكين ، ومِنْ بَطَّالٍ يتعرض للعمَّال يقتضيهم صواب الصنعة .

إلا أنَّه لو كانت البطالة والخمول يشفعان لمثلي في ترك التوجيه إلى خير علمه أو النكير على شرٍّ ظهر له لكان الصمت أولى بي وأخزى لنفسي ، لكنا وجدنا السلف لا يجيزون لمثلي ترك الأمر والنهي ، مع ملازمة الأمل في إصلاح النفس والإزراء عليها ، وعمومًا فمهما كان الخمول والبطالة شرًّا ، فهما خير من الابتداع ؛ لقول ابن مسعود ، رضي اللَّه عنه : (اقتصاد في سنة ، خير من اجتهاد في بدعة) .

واللَّه ربنا المستعان .

وكتبه / محمد عبد الحكيم القاضي

الحلقة الأولى

نظرية الإباحة في الشريعة الإسلامية وتطبيقاتها المعاصرة

بقلم الشيخ / محمد عبد الحكيم القاضي

باحث إسلامي

من أهم عوامل النهضة الفكرية القائمة على الجذور الأصيلة للأمة وجود الوعي بالصلة بين مستحدثات التشريعات المعاصرة وأصول هذه القضايا في التراث التشريعي، وهذا هو ما يلمحه، بل يتحققه المتأمل في موروث الأمة الإسلامية الفقهي إذا ما قارن به المسميات التشريعية المعاصرة.

ولو أخذنا شريحة من شرائح هذا العطاء، وهي ما يمكن أن نطلق عليه «نظرية الإباحة في الشريعة الإسلامية» لشعرنا بمدى تغلغل هذا المفهوم وتطبيقاته في الحياة المعاصرة، ومدى إفادة القوانين الحديثة منه سواء قصدت ذلك أم لم تقصد.

معنى الإباحة:

فالأصل اللغوي للإباحة هو المادة (بوح)، يقول ابن فارس في «معجم مقاييس اللغة»[1]: (الباء والواو والحاء أصل واحد، وهو سعة الشيء وبروزه وظهوره). قال: (ومن هذا الباب إباحة الشيء وذلك أنه ليس بمحظور عليه فأمره واسع غير مضيق).

والمراجع لأي معجم من المعاجم اللغوية يلاحظ أن الأصل الواعب الذي استخلصه ابن فارس هو الأصل الذي ترجع إليه الاستخدامات اللغوية لهذه المادة باشتقاقاتها المختلفة، أما التوصيف الأصولي للإباحة فهو فرع على هذا المعنى اللغوي، فالإمام الشاطبي يعرفها بقوله: (إنها التخيير بين فعل الشيء وتركه من غير مدح ولا ذم لا على الفعل ولا على الترك)[2].

وحول هذا المعنى دندن الأصوليون عمومًا، فبعضهم يضع قيدًا صوريًا، وبعضهم يقرر تطبيقًا معينًا[3]، إلا أنها عمومًا ترجع إلى معنى (الإطلاق في مقابلة الخطر الذي هو المنع)[4]، ولعل لفظة «الإطلاق» أراحت صدر القائمين على موسوعة عبد الناصر في الفقه فاعتبروها دالة على (الإطلاق من جانب الله تعالى أم من جانب العباد، فهو أعم من تعريف الفقهاء الذين قصروا الإباحة على تخيير الله لعباده)[5].

وهكذا يمكن أن تكون الإباحة مرادفة لمعنى (الإذن) عمومًا، ومن ثمة أصاب الشريف الجرجاني به إذ قال: (الإباحة الإذن بإتيان الفعل كيف شاء الفاعل)[6].

وهذا المعنى - وهو الإذن - سيفيدنا كثيرًا حينما نرى تطبيقاته واضحة في بعض الممارسات القانونية المعاصرة المتعلقة ببعض جوانب استعمال الحق مثل إذن المريض أو وليه في تطبيبه بسائر أنواع التطبيب المختلفة.

صيغ الإباحة وأهميتها في التشريع:

وإذا كان الأصوليون - كعادتهم عمومًا - لم يتعرضوا في أثناء كلامهم على الإباحة لصلة مفهوم الإباحة بغيره من المصطلحات والمفاهيم الشرعية والأخرى وهي المفاهيم التي تعد تعميقًا لعطاء هذا المفهوم - في بعض الحالات، وقيودًا على

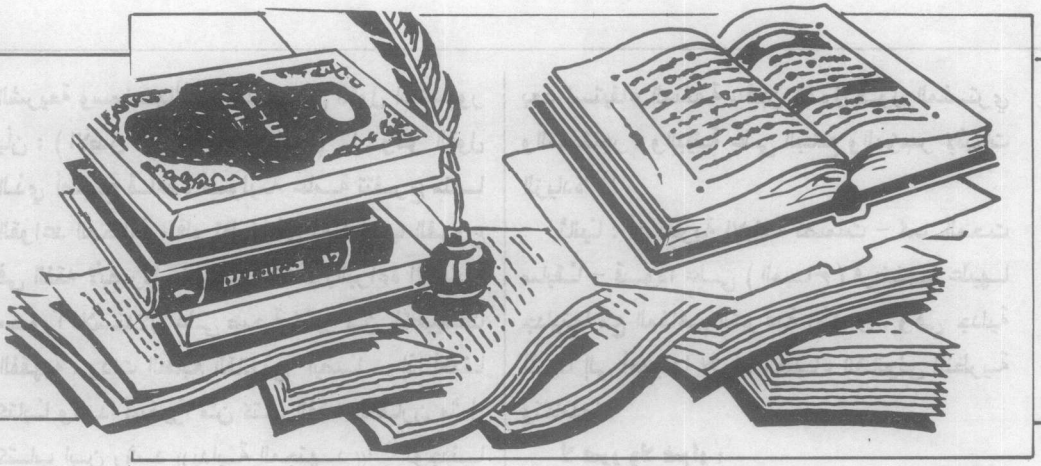

إجراءاته - في حالات أخرى ، إلا أننا إذا عرضنا لدلالات الإباحة في القرآن والسنة سنلاحظ هذا التزاوج بين مفهوم الإباحة وغيره من المفاهيم الأصولية ، وهو تزاوج يثري البحث الفقهي والقانوني بمزيد من الدلالات .

فإذا كان لفظ (إباحة) ، أو مشتقاته المختلفة لم يرد صريحًا في القرآن أو الحديث الصحيح ، فالملاحظ أن السياقات القرآنية والحديثية تعطي الدلالة الواضحة على هذا المفهوم :

١- هناك صيغ لا سبيل إلى حملها على غير الإباحة ، كنفي الحرج ، ونفي الجناح ، ونفي المؤاخذة .. إلخ ، وذلك في مثل قوله تعالى في حق المتوفى عنها زوجها : ﴿ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ [البقرة : ٢٣٤] .

وجاء رجل إلى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله ، إني لم أشعر فنحرت قبل أن أرمي ، فقال رسول الله ﷺ : ((ارْمِ ولا حَرَجَ))[٧] .

٢- هناك أساليب يترجح فيها معنى الإباحة مثل التعبير بأن هذا الأمر حلال ، أو أنه ليس بحرام ، كقوله تعالى : ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالْطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ﴾ [الأعراف : ٣٢] .

والحديث : ((أبغض الحلال إلى الله الطلاق))[٨] ، وهو دليل على أن الطلاق مباح .

٣- الأمر بعد النهي ، كقول النبي ﷺ : ((كنت نهيتكم عن زيارة القبور ، فزوروها ...)) الحديث[٩] .

وقد ذهب بعض الأصوليين إلى أن صيغة الأمر وضعت حقيقة للإباحة ، وأنها تفيد غيرها بالقرينة ، ولا شك أن هناك صيغ أمر من العسير أن تحمل في أصلها على غير الإباحة ، مثل قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ﴾ [البقرة : ١٧٢] .

٤- الاستثناء الضمني من التحريم : وهو واضح الدلالة على الإباحة ، كما في قوله تعالى : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [المائدة : ٣] .

قال القرطبي : (فاشترط في إباحة الميتة للضرورة ألا يكون باغيًا)[١٠] .

براءة الذمة :

ومما سبق تتحدد جملة من الملامح المهمة لنظرية الإباحة لا بد أن يصطحبها الباحث في تأصيل المباحث القانونية المتعلقة بجوانب متعددة من الحياة ، فمنها :

أولاً : أن كثرة ما ورد من دلالات الإباحة ، مع تعانق ذلك بما نلاحظه من معرفة الأصوليين بسعة

الشريعة وسماحتها[١١] ، حداهم إلى القول المشهور بأن : (الأصل في الأشياء الإباحة)[١٢] ، وهو القول الذي أصبح قاعدة أصولية عامة تتفرع منها القواعد المختلفة ، فلو نظرنا في أحد كتب الفروع في الفقه لأبصرنا ما يسمى عندهم بالبراءة الأصلية محورًا للاستدلال على صحة كثير من التطبيقات الفقهية ، وذات الطابع القانوني أيضًا ، وإذا أخذنا كتابًا واحدًا صغيرًا من كتب الفقه المقارن مثل كتاب ابن رشد « بداية المجتهد »[١٣] لوجدنا تفريعات هذه القاعدة وتطبيقاتها متنوعة على مدار الكتاب ، فمن ذلك :

١- بقاء الأمر على الإباحة (البراءة الأصلية) عند عدم وجود الدليل[١٤] .

٢- الرجوع إلى البراءة الأصلية إذا وقع التعارض بين الأدلة ، واستحال الجمع[١٥] .

٣- الأفعال المختلفة للنبي ﷺ أولى أن تحمل على التخيير من أن تحمل على التعارض[١٦] .

٤- الأصل هو براءة الذمة حتى يدفع هذا الأصل أمر لا مدفع له[١٧] .

وهذه القاعدة الكبيرة التي تفرعت عنها هذه القواعد وغيرها ، نجد لها جملة من التطبيقات في الحقوق المدنية المعاصرة ، فمن ذلك حق الناس في استخدام الشوارع في المرور والانتظار . واستخدام الشارع لأصحاب العقار المتصل به فيما يوسع عليهم من الحاجات ، كفتح النوافذ ، والأبواب وعمل (أكشاك) التجارة لمن له حاجة في ذلك ، كما أن منها حرية التملك وتنمية الموارد الموجودة بالسبل الصحيحة شرعًا[١٨] .

ومنه أيضًا في المنازعات ما لو اختلف البائع والمشتري في مقدار الثمن بعد هلاك السلعة ، أو إذا اختلف المستأجر والمؤجر في مقدار بدل الإجارة بعد استيفاء المنفعة ، فإن القول قول المشتري والمستأجر ، والبينة على البائع والمؤجر لإثبات الزيادة[١٩] .

ثانيًا : أن نظرية الإباحة تضمنت - كما ألمحت سابقًا - قيودًا على (المباح) فرضتها عليها جدليتها مع المفاهيم الشرعية الأخرى ، وهي جدلية أشرنا إلى أهميتها لإثراء العطاء القانوني للنظرية وتكاملها .

لا ضرر ولا ضرار :

فمثلاً يطرأ على (المباح) من القيود الشرعية ، أو العرفية ما يحدد من حجم التعامل به من زوايا متعددة .

فالأصل إباحة العمل للفرد - كائنًا ما كان هذا العمل وهذا الفرد - بشرط حل العمل وكون الفرد مؤهلاً له ، ومن ثم جاز تركه للعمل في أي وقت تحت قاعدة الإباحة (البراءة الأصلية) ، لكن تدخل قاعدة (لا ضرر ولا ضرر) ، لكي تشترط لهذه الإباحة عدم الإضرار بمصلحة الغير ، كصاحب العمل مثلاً ، أو المنتفعين بهذا العمل ، وهذا يجرنا إلى الإشارة إلى القوانين الحديثة التي تتحدث عن الإضراب ، وبعضها يبيحه ، إلا أن الشريعة الإسلامية التي اعتمدت الضوابط المنظمة لقاعدة الإباحة وجدت أن الإضراب عن العمل له ضرره البالغ ، فأعطت - فيما ينقل ويرى الإمام ابن القيم في ((الطرق الحكمية)) وليّ الأمر حق حمل أرباب الحرف والصناعات على العمل بأجرة المثل إذا امتنعوا عن العمل ، وكان في الناس حاجة لصناعتهم وحرفهم[٢٠] .

وهذه القاعدة أيضًا تتدخل في تحديد إباحة الانتفاع بالشوارع والطرق - التي أشرنا إليها آنفًا - وهو انتفاع ينبغي أن يكون نسبيًا ، يعني خاضعًا لتجاوب الحقوق المختلفة ، ولعل المصنفات في الحسبة على الشوارع والبيوت ترشد إلى

جوانب من هذه القيود ، فالشيرازي في ((نهاية الرتبة))[٢١] يرى أنه (لا يجوز لأحد إخراج داره ولا دكانه فيها إلى الممر المعهود ، وكذلك كل ما فيه أذية وأضرار على السالكين ، كالميازيب الظاهرة من الحيطان زمن الشتاء ، ومجاري الأوساخ الخارجة من الدور في زمن الصيف إلى وسط الطريق) .

يقول د. وليد المنيسي : (في هذا النص دليل على عظم شأن مهمة المحتسب في إحداث الضبط العام في الطرق ، فلا يتسبب أحد في أذية السالكين)[٢٢] .

بل تعدى الأمر مجرد الاحتساب إلى تضمين المتسبب في الأذى من هذه النواحي ، (فمن أوقف دابة في طريق ، ولو واسعًا ، أو ترك بها نحو طين ، أو خشبة ضمن ما تلف بهذا الفعل لتعديه به)[٢٣] .

وللحديث بقية إن شاء الله .

---

(١) معجم مقاييس اللغة لابن فارس ، ط الحلبي ، مصر ، ١٣٨٩: ٣١٥/١. (٢) الموافقات ، الشاطبي ، ط السلفية ١٣٤١: ٦٨/١، ٦٩.

(٣) راجع : جمع الجوامع لابن السبكي ، مرآة الأصول لملاخسرو ، إرشاد الفحول للشوكاني ، الإحكام للآمدي ، مختصر الأصول لابن الحاجب وغيرها . (٤) موسوعة عبد الناصر في الفقه ، ط المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ١٣٨٦: ١٥٧/١، وعزوه للعيني .

(٥) موسوعة عبد الناصر : ١٥٧/١ . (٦) التعريفات للشريف الجرجاني ، ط الخيرية ص ٢

(٧) الحديث رواه الشيخان وغيرهما : البخاري (كتاب الحج ، حديث رقم ١٧٣٦) ، ومسلم (كتاب الحج ، حديث رقم ٣٢٧) .

(٨) رواه أبو داود في المناسك ، والنسائي في الحج ، وغيرهم ، وأبو داود (٢٥٥/٢، ح٢١٧٨) ، وابن ماجه (٦٥٠/١، ح٢٠١٨) ، ورمز له السيوطي في الجامع الصغير بالصحة ، ونقل الحافظ ابن حجر عن الحاكم تصحيحه ، ولم أهتد لذلك في مستدرك الحاكم ، ويبدو أن الصحيح إرساله – كما رجح البيهقي – وسبقه أبو حاتم والدارقطني ، وإنما ضعفوا المرفوع من أجل عبد الله الرصافي أحد رواته ، فقد تركه يحيى بن معين والنسائي ، قال المناوي في فيض القدير : (وبه عرف أن رمز المؤلف لصحته غير صواب) .

(٩) أخرجه مسلم وغيره ، ومسلم كتاب الجنائز (حديث رقم ١٠٦) .

(١٠) تفسير القرطبي ط دار الفكر ١٤١٤: ٢١٩/١.

(١١) راجع : عوامل السعة والمرونة في الشريعة الإسلامية ، د. يوسف القرضاوي ، الإسلام شريعة الله الخالدة ، عبد العظيم منصور .

(١٢) هذا أصل مشهور متداول في كتب القواعد والأصول ، وأصله الحديث : ((وما سكت عنه فهو عفو)) ، وهو حديث حسن بشواهده وطرقه كما قرر العلماء .

(١٣) طبع الكتاب عدة طبعات ، والطبعة المعتمدة هنا هي ط دار الكتب الإسلامية ١٩٨٣م .

(١٤) بداية المجتهد ونهاية المقتصد ٥٨/١، ٧١، ٥٢٣. (١٥) بداية المجتهد ونهاية المقتصد ١١١/١.

(١٦) بداية المجتهد ونهاية المقتصد ١٦٥/١. (١٧) بداية المجتهد ونهاية المقتصد ٣٩٢/١، ١١/٢.

(١٨) راجع : الملكية الفردية في الإسلام ، د. عبد الله كنون ضمن بحوث مؤتمرات مجمع البحوث الإسلامية ١٣٩١هـ : ١٠٩/١، فما بعدها .

(١٩) راجع : بحوث أصولية تشريعية ، محمد عبد الحليم حامد ، ط دار التوزيع والنشر الإسلامية ص ١٠٢.

(٢٠) الطرق الحكمية في السياسة الشرعية لابن القيم ، ط الآداب مصر ١٣١٧هـ ص١٤، وراجع : مجموعة بحوث فقهية د. عبد الكريم زيدان ، ط مكتبة القدس ، مؤسسة الرسالة ١٤٠٧هـ : ص ١٢٦.

(٢١) نهاية الرتبة في طلب الحسبة ، للشيرازي ، ط دار الثقافة ، بيروت ١٩٦٢م ص ١٤.

(٢٢) الحسبة على المدن والعمران ، د. وليد عبد الله المنيسي ، مستلة من (حوليات كلية الآداب – الكويت) ، ط ١٤١٦– ١٤١٧ ص ٧٥.

(٢٣) منار السبيل ، لابن ضويان ، ط المكتب الإسلامي دمشق ١٤٠٢: ٤٣٨/١.

نظرية الإباحة في الشريعة

الحلقة الثانية

بقلم الشيخ / محمد عبد الحكيم القاضي
باحث إسلامي

الحمد لله والصلاة والسلام على رسوله الله وبعد ، فنكمل حديثنا عن :

قضايا المرور :

إن هذه الضوابط الماضية في حقوق الشوارع يسلمنا إلى ما عرف في التقاضي الحديث باسم (قضايا المرور) ، فإذا كان (اتخاذ مرابط الدواب في الطرق)[1] ، ونحوه يمكن أن يشبه ما يسمى الآن (أشغال الطريق) وهو لا يعدو - قانونًا - حجم (المخالفة) ، فقد تطرق النظام المروري في الشريعة إلى قضايا جنائية حينما يتسبب استعمال حق الطريق بالفعل في إتلاف حقوق الغير أو الاعتداء عليه في نفسه ، مثل ما يسمى في التقاضي المعاصر بحوادث السيارات .

وقد طرح الفقهاء القدامى علاقة مثل هذه الحوادث بمفهوم الإباحة ، في حديثهم عن اصطدام الفارس بصاحبه ، فهذا قاضي زاد - من الأحناف - يدافع عن إلزام عاقلة الفارسين المتصادمين بالدية إذا قُتِلا بقوله : (ولنا أن الموت يضاف إلى فعل صاحبه ؛ لأنه فعله في نفسه مباح ، وهو المشي في الطريق)[2] ، بينما يشير الإمام أبو إسحاق الشيرازي في « المهذب » إلى تتبع الأمارات والدلائل الدالة على إساءة أحد الفارسين في استعمال حق الطريق حينما ينقل عن المزني - تلميذ الشافعي -: (إن استلقى أحدهما فانكب الآخر على وجهه وجب على المنكب دية المستلقي وهدر دمه ؛ لأن الظاهر أن المنكب هو القاتل)[3] .

ومهما كان من بدائية هذا التعليل فهو نوع من السعي وراء تتبع الأمارات في قضية مرورية .

والملاحظ أن قضايا التصادم بين الفرسان والدواب والسفن في البحر قد احتلت اهتمامًا كبيرًا بين الفقهاء ، ومن الصحيح أن نزعم أن الهم الأول كان عندهم محاولة تلمُّح القاتل ، إلا أن هناك إشارات تدل على أن بعضهم كان يحاول دراسة الظروف العامة للفعل (الجريمة) ، وتبين - أي المجني عليه - هو المسيء لاستعمال حق الملاحة أو المرور ، فقد عقد الشربيني فصلاً في شرحه « للمنهاج » حول هذه القضايا من اصطدام الفرسان والدواب باختلاف أنواعها وأحجامها وقوتها ، والسفن ، إلا أنه قال[4] : تنبيه : يستثنى من كون الملاحين كالراكبين ما إذا قصد الملاحان الاصطدام بما يعده أهل الخبرة مهلكًا مغرقًا ، (ثم ذكر تنبيهًا آخر فيه فائدة أخرى بعد أن فصل كيفية ضمان الأموال التي في السفينتين) ، محل هذا التفصيل إن كان الاصطدام بفعلهما ، أو لم يكن وقصرا في الضبط أو سيرًا في ريح شديدة ، فإن حصل الاصطدام بغلبة الريح فلا ضمان على الأظهر .. فالقول قولهما بيمينهما عند التنازع في أنهما غُلِبا - يعني بالريح - لأن الأصل براءة ذمتهما) .

ثم قال : (وإن تعمد أحدهما أو فرط دون الآخر فلكل حكمه ، وإن كانت إحداهما مربوطة فالضمان على مجرى السائرة)[5] .

الإسلامية وتطبيقاتها المعاصرة

وفي شهر شعبان سنة ١٣٩٦ هـ انعقدت الدورة التاسعة لمجلس هيئة كبار العلماء بالسعودية ، ورأى إدراج موضوع حوادث السيارات من صدم ودهس وانقلاب ونحو ذلك ، وبيان ما يترتب على ذلك من حق الله وحق العباد ، رأى إدراج ذلك ضمن أعمال الدورة العاشرة ، ومن ثم أعدت اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء بحثًا في ذلك ضمنته ما يأتي :

١- تصادم سيارتين أو صدم إحداهما الأخرى .

٢- دهس سيارة لشيء وانقلابها .

٣- مخالفات المرور .

٤- توزيع الجزاء على من اشتركوا في وقوع الحادث[٦] .

وقد أفاد هذا البحث في موضوعاته المختلفة من الملاحظات الفقهية الكثيرة التي شغلت اهتمام الفقهاء بمذاهبهم المختلفة كما أشرنا .

وفي سنة ١٤٠٧ هـ حصل د. سليمان بن سعد الدخيل على درجة الدكتوراة من المعهد العالي للقضاء بجامعة الإمام محمد بن سعود في موضوع (أحكام الطريق في الفقه الإسلامي مقارنة مع نظام المرور بالمملكة) ، عنيت بدراسة الطرق وتسمياتها وخطط الشوارع ونحوها ، والمخالفات التي تقع في استعمال حق السير أو الانتظار فيها ، وكان عمدته الأولى هو المحصول العلمي المستمد من تراثنا الفقهي في هذه الجوانب .

الإباحة الطارئة وبعض صورها :

ولا تتوقف البحوث التشريعية ، سواء في القانون أو الفقه القانوني - المستمد من نظرية الإباحة في التشريع الإسلامي - عند هذا الحد ، وإنما تمتد لتشمل سائر القضايا التي تتفرع على استعمال الحق ؛ فباحتكاك مفهوم الإباحة مع قاعدة المصلحة - بفروعها المختلفة - تتبلور القوانين المتعلقة بحقوق وضوابط ممارسة مهنة الطب وما يتصل بها من إجراء العمليات الجراحية ، والمسئولية الجنائية للطبيب في حال خطئه أو تعديه ، وهو موضوع ينبغي عرضه مستقلاً في المستقبل ، إن شاء الله ، إلا أن المثال الذي نريد أن نختتم به هذه العجالة هو تطبيق على دور الإباحة الطارئة في بعض التصرفات ، فقد أشرنا في الصورة الرابعة من صيغ الإباحة إلى الإباحة الاستثنائية ، وهي المستثناة من المحظور في حالة بعينها تسمى من حيث العموم حالة الضرورة ، والمراد بها ارتكاب المحظور من حيث الأصل ، حفاظًا على ضرورة من ضرورات الحياة ، وهنا يتحول هذا المحظور إلى مباح ، وتطبيقاتها - في المجال الفردي - كثيرة منها إجازة تناول بعض الأدوية المحرمة أصلاً عند الظاهرية عمومًا[٧] ، وعند الحنفية إذا تيقن حصول الشفاء به[٨] بشرط ألا يوجد دواء مباح طاهر يقوم مقامه عند الشافعية[٩] ، ومنها الدفاع عن النفس ، حتى لو أدى إلى قتل الصائل إن تعين ذلك[١٠] ، إلا أن الذي سنتعرض له هنا بقدر التفصيل هو تطبيق يتعلق بالمجال الجماعي الدولي ، وهو موضوع التجسس .

فمن المعروف أن (التجسس) محظور شرعًا ، ومنصوص على منعه في القرآن الكريم والسنة في قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ﴾ [الحجرات : ١٢] .

وقوله ﷺ : ((ولا تجسسوا ، ولا تحسسوا ، ولا تناجشوا ...)) الحديث[١١] .

وهو كبيرة من الكبائر[١٢] ، إلا أن الدولة قد تضطر - بل هي تضطر فعلاً - إلى ألوان من التجسس لجلب مصالح لا غنى عنها للأمة ، أو دفع مضار لا يجوز التفريط في دفعها ، وفي هذا المجال يحسن ذكر الدراسة القيمة التي قام بها محمد راكان

الدغمي عن (التجسس وأحكامه في الشريعة الإسلامية) إذ ذكر مجالات ثلاثة لما أسماه بالتجسس المشروع هي :

١- التجسس على الأفراد والجماعات ومعرفة طاقاتهم والإفادة منها :

(ويحتاج الحاكم في معرفته للناس ، وتقصي أخبارهم إلى أجهزة مختصة ، فقد كان نظام البريد في عهد الدولة العياسية ينقل أخبار الأقاليم المختلفة إلى الخليفة ، وكان يقوم به قلم المخابرات في العصر الحديث)[١٣] .

٢- تجسس الدولة على أهل الريب والمجرمين :

فمن منطلق تأمين الدولة - سياسيًا وأخلاقيًا - ينبغي لها مراقبةُ أهل الريب ، وعصابات الفساد والإجرام ، ومعرفة خططهم الإفسادية لتوقيها ، (وإذا وقعت الجريمة ولم يظهر المجرم ، فعلى الدولة أن تتجسس وجوبًا حتى يظهر المجرم ، وإن ظن وقوع الجريمة - ولو بقرينة كإخبار الثقة - فإنه يجب التجسس خوفًا من فوات تداركها)[١٤] .

٣- التجسس على العدو :

وهذا ثابت في السنة وسيرة النبي ﷺ لا يحتاج إلى معاناة إستخراج ، فقد بعث النبي صلوات الله عليه عشرة من أصحابه عيونًا يتجسسوا على المشركين[١٥] ، وما من غزاة غزاها أو سرية ابتعثها إلا وصلتنا أنباء تؤكد وجود العيون لاستطلاع أخبار العدو . قال الحافظ ابن حجر بعد حديث صلح الحديبية[١٦] : (فيه استحباب تقديم الطلائع والعيون بين يدي الجيش) .

قال الأستاذ راكان - تعقيبًا على ذلك[١٧] : (فالتجسس على العدو عمل مشروع لحماية الدولة من الاعتداء ، ولتكون الدولة على اطلاع تام بتحركات الأعداء مخططاتهم) .

دعوة ونداء :

وبعد : فها قد رأيت ما تفتقت عنه نظرية الإباحة من عطاء تشريعي في مختلف شئون الحياة ، وهو موضوع يحتاج إلى دراسات عملية جادة ، تسعى نحو تأصيل الفكرة الإسلامية ، والقانون الرباني ، وليس ما ذكرت هذه السطور إلا أمثلة قصد بها التذكير بخطورة قاعدة الإباحة في الشريعة ومدى ملاءمتها لاستيعاب حركة الحياة في مجالات متعددة ، وتأثيرها في القوانين والتشريعات القضائية في مختلف درجات القضاء الحديث . وإنما دعاني إلى تسطير هذه السطور حفز الدارسين إلى تعقب ملامح التشريع الرباني وآثاره في حركة الحياة المعاصرة ، وبث هذه النتائج التي يتوصلون إليها بكل وسائل البث في أمتنا ، عسى أن يجدد الله تعالى لهذه الأمة دينها ، ويعيد إلى عروقها دماء شريعتها من جديد . والله من وراء القصد .

---

(١) تنبيه الحكام على مآخذ الأحكام ، ابن المناصف ، ط دار التركي ، تونس ١٤٠٨ هـ : ص٣٤١.

(٢) تكملة فتح القدير لابن الهمام ، ط بولاق ٨: ٣٤٨/١٣١٥. (٣) المهذب للشيرازي ، مصورة دار الفكر ، بيروت ١٩٨١: ١٩٥/٢.

(٤) حوادث السيارات وبيان ما يترتب عليها ، اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء ، نشر دار التقوى ، بلبيس ، مصر (د . ت) ص٨، ٩.

(٥) حوادث السيارات : ص ١٠ . (٦) حوادث السيارات بيان وما يترتب عليها ، اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء .

(٧) معجم فقه ابن حزم الظاهري ، لجنة موسوعة الفقه الإسلامي بجامعة دمشق ص ٣٤٥. (٨) بدائع الصنائع للكاساني ، ط الجمالية ، مصر ٦١/٥، ٦٢.

(٩) المجموع للنووي ، ط دار الفكر ، بيروت ٤٩/٩. (١٠) المغني لابن قدامة ، ط المنار ٣٣٠/٨.

(١١) أخرجه الشيخان وغيرهما ، البخاري ، كتاب النكاح ، كتاب الأدب ، ومسلم ، كتاب البر والصلة ، والمسند للإمام أحمد ٢٨٧/٢، ٣٤٢.

(١٢) الكبائر للذهبي ، ط مكتبة حميدو ص١٣٧، بعنوان : التسمع على الناس ما يسرون ، وكذلك عدها ابن القيم وابن النحاس كبيرة ، راجع معجم الكبائر ، رجاء بن محمد المصري ، ط الفاروق للطباعة ١٤٠٩هـ ص١١١.

(١٣) التجسس وأحكامه في الشريعة الإسلامية ، محمد راكان الدغمي ط دار السلام للطباعة والنشر ١٤٠٦هـ ، ص١١٩.

(١٤) المرجع السابق ١٢٩. (١٥) البخاري كتاب المغازي فتح الباري ، السلفية ٢٨٢/٨، والمسند للإمام أحمد ٣١٠/٢.

(١٦) البخاري ، كتاب المغازي ، باب صلح الحديبية . (١٧) فتح الباري ، الإحالة السابقة .

أسائل الدار

بقلم الشيخ / محمد عبد الحكيم القاضي

أسيرُ فوقَ جبال الشوك بالقَدَمِ ... وأستقي من بحار الشك ملءَ فمي
هذا يُقِضُّ منامي كلما هجعت ... إلى الرقاد جفوني أو هوت قدمي
وذاك يؤذي جبيني كلما انصرفت ... إلى الحياة همومي واستوت همَمي
تطوي بنا إبل الأوهام أودية ... من الضياع بلا رحل ولا خُطُم
تطوف حول مَراعٍ كلها وخمٌ ... لكنها من فراغ البطن في تخَمِ
مالت بنا وسوادُ البيد يحدجنا ... إلى ديار لسلمى عند ذي سَلَم
كانت لدى الأمس ملأى من تودهها ... منيرة بجبينٍ مشرقٍ وفمِ
ثريةً بغناء الطير ساحتُها ... طريةً من حديث طيبِ النغَمِ
فأصبحت وقد اربدَّت نضارتُها ... وضلَّ عنها الضيا في حالِكِ الظُّلَمِ
كأنما الشمس ما غدت تراودها ... ولا النهار ولا هطالة الدِّيَمِ
أمَسُّ بالكف أشلاءً مبعثرة ... وتنظر العين أطلالاً على أطُمِ
أسائلُ الدار عن خِلٍّ أقام بها ... غَضَّ الوفاءِ كريم غير متهمِ
أسائل الدار عن معنى الوداد إذا ... ضاع الوفاءُ وغالته يد التهمِ
أسائل الدار عن طعم السلام وقد ... غالت حمائمه هتاكة الحُرَمِ
أسائل الدار عن قول بلا عمل ... وعن فريق بلا رأس ولا حكمِ
وعن قطيع بطبع الذئب في دمه ... وعن رعاة بلا رأي ولا حلمِ
وعن ضياع فما في الأرض من أُمم ... إلا اشتكت من خراب القلب والذممِ
وعن جياع على أجسادهم رُفعت ... حضارة الزيف والأوهام والنقمِ
أسائل الدار من بالدار يسمعني ... إذا شكوت إليها قاطع الرَّحِمِ
يا دار يا ثرة الأرجاء صاخبة ... من ذا الذي قد رماك اليوم بالبكم
رأيت يا دار ما لم تعهدي أبدًا ... من الضلالات والآثام والغممِ
وراوحتك الرياح الهوج راغمة ... وطوحتك السفوح السودُ بالحممَ
وأنبتت فيك بيد الزور سوسنها ... فأمطرته السحاب الجوف بالعدم
يا دار ماذا رأت عيناك بعدهم ... غير اختلاط الزمان المرِّ بالظلم
وصولة الكذب المغرور حين رأى ... جحافل الحق غالتها يد السقم
وهل رأت عينك المظلوم في صفدٍ ... يسوده الظالم الأفاك في نعم
يا دار هل في حساب الدهر من نكدٍ ... فوق الذي نحن فيه اليوم أو ألم
مدامعي شرقت من أدمعي وغدت ... دفاتري حممًا من غضبة القلم
أسائل الدار عن سيف أذود به ... غوائل الزمن الأفاك عن حرمي
أسائل الدار عن شعر أريح به ... قوافل الهم في صدري وفي حلمي
أسائل الدار عن دار ألوذ بها ... مدافعًا غارة الأعداء عن شممي
أسائل الدار عن قبر أدس بها ... ما قد تبقى لنا من طيب الشيم
أسائل الدار عن دمع تسامحني ... أمي به إن رأتني خائر الهِمَمِ

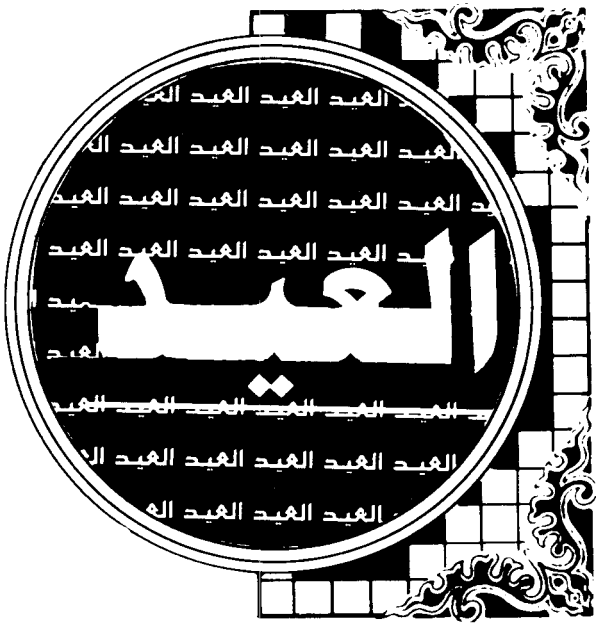

آداب وأحكام

بقلم الشيخ :

محمد عبد الحكيم القاضي
باحث إسلامي

اقتضت سنة الله تعالى في الكون أن يكون للناس أيام يخرجون فيها من أعمالهم وأعبائهم ، ويروّحون أنفسهم وأبدانهم ، ومن ثمة لا تجد أمة من الأمم إلا لها أعياد يمارسون فيها عادات استقروا عليها . (وتلك عادة لا ينفك عنها أحد من طوائف العرب والعجم) . [« الحجة البالغة » شاه ولي الله دهلوي (٢/٣٠)] .

وسنلاحظ كيف اهتمت الشريعة الغرّاء بهذه (العادة) لكي تسمو بها - عباديًا وتربويًا - لتحقق لمسلم خاصيّة التفرّد الخلقي الذي يتمثل في : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ [آل عمران: ١١٠] .

المفهوم الإسلامي للعيد :

فللعيد في الإسلام مفهومه الذي يتجاوز حدود (العادة) إلى نسيج طيب من العبادة والخلق والبرّ . ولعلّ نبي الله الكريم صلوات الله عليه لفت إلى هذا حين جاء المدينة فوجد الأنصار ولهم يومان يلعبون فيهما ، فقال : ما هذان اليومان ؟ قالوا : كنا نلعب فيهما في الجاهلية ، فقال رسول الله ﷺ : « إن الله قد أبدلنا بهما خيرًا منهما : يوم الأضحى ، ويوم الفطر » . حديث صحيح .

قال العلامة الدهلوي : (وإنما بُدّلا لأنه ما من عيد في الناس إلا وسبب وجوده تنويه بشعائر دين ، أو موافقة أئمة مذهب ، أو شيء مما يضاهي ذلك ، فخشي النبي ﷺ إن تركهم وعادتهم أن يكون هنالك تنويه بشعائر الجاهلية أو ترويح لسنة أسلافهم ، فأبدلهما بيومين فيهما تنويه بشعائر الملة الحنيفية ، وضمّ - مع التجمّل فيهما - ذكر الله ، وأبوابًا من الطاعة ، لئلا يكون اجتماع المسلمين بمحض اللعب ؛ ولئلا يخلو اجتماع منهم من إعلاء كلمة الله) . [« حجة الله البالغة » : ٢/٣٠] .

لا بأس بالترويح بشروطه :

وكلام الدهلوي يُفهم منه أن اللعب واللهو من العادات المستحسنة في العيد ، إذا قُصد بهما الترويح ، وإظهار البشر ، وليس الانصراف عن

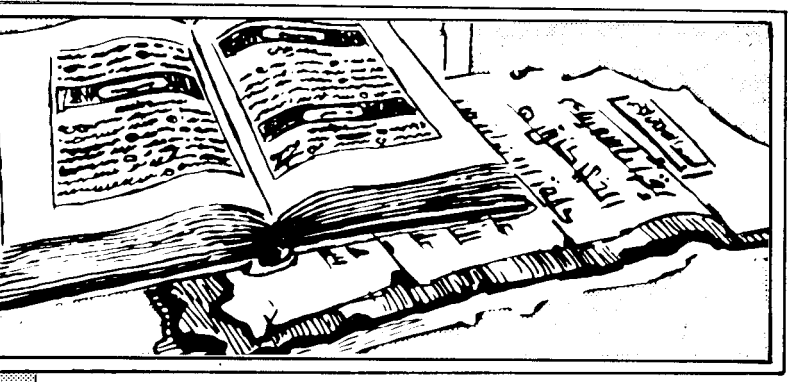

الذكر والتحلل من الحق ؛ وقد أقرّ النبي صلوات اللّه عليه الحبشة وهم يمارسون لونًا من اللهو ، بل أذن لعائشة أن تنظر إليهم ، وهو يسترها بردائه ، قالت عائشة رضي اللّه عنها معلّقة على هذا الموقف : (فاقدروا قدر الجارية الحديثة السن الحريصة على اللهو) . « صحيح مسلم » .

ولا شك أن عائشة لم تكن تنظر إلى أبدانهم ، وإنما تنظر إلى حرابهم وهم يلعبون بها ، كما قالت : (فجعلت أنظر إلى لعبهم) . قال النووي : (ليس فيه أنها نظرت إلى وجوههم وأبدانهم ، وإنما نظرت إلى لعبهم وحرابهم ، ولا يلزم من ذلك تعمّد النظر إلى البدن ، وإن وقع النظر بلا قصد صرفته في الحال) .

ومن الترويح في العيد سماع الأناشيد والأغاني الراقية المعنى من الجواري الصغيرات السّن ، بحيث يؤمَن الوقوع في الفتنة ، فقد صحّ عند الشيخين وغيرهما أن رسول اللّه صلوات اللّه عليه أذن لعائشة في استقبال جاريتين يوم العيد في بيت رسول اللّه ﷺ ، تضربان بالدُّفّ ، وتغنيان ، ولم يستجب لإنكار أبي بكر عليهما بقوله : (مزمارة الشيطان في بيت رسول اللّه ﷺ) ، وإنما قال له : « يا أبا بكر ؛ إن لكل قوم عيدًا ، وهذا عيدنا » . متفق عليه .

قال الحافظ في « الفتح » : (وفي هذا الحديث من الفوائد : مشروعية التوسعة على العيال في العيد بأنواع ما يحصّل بسط النفس وترويح البدن من كُلَف العبادة ، وفيه أن إظهار السرور في الأعياد من شعار الدين) . [« فتح الباري » : (٢/٤٤٣)] .

إلا أن هذا الترويح الجائز له شروطه ؛ فيجب أن يكون الغناء مشروع المعنى والطريقة ؛ فاستحضار المغنيات أو أشرطة الغناء المشهورة ، ومصاحبة الأغاني بالمعازف ، كل هذا ممنوع بالشرع ، والواضح من عبارة الحديث أنّ الجاريتين لم تحترفا الغناء أصلاً ، وإنما كان ذلك عَرَضًا منهما في هذه المناسبة ، ويدل على ذلك وصف عائشة رضي اللّه عنها لهما بأنهما (ليستا بمغنيتين) .

قال النووي : (أي ليستا ممن يتغنى بعادة المغنيات من التشويق والهوى ، والتعريض بالفواحش ، والتشبيب بأهل الجمال ، وما يحرّك النفوس ويبعث الهوى والغزل ، كما قيل : الغناء رقية الزنا .. ولا ممّن اتخذ الغناء صنعة وكسبًا) . [« شرح النووي » (٦/٢٦٠)] .

وقال القاضي عياض في « المُعْلِم » : (إنما كان غناؤهما بما هو من أشعار الحرب والمفاخرة بالشجاعة والظهور والغلبة ، وهذا لا يهيج الجواري على شرّ) . (المصدر السابق) .

التجمل والطِّيب في العيدين :

ولعلّ من صور الاحتفال بالعيد الإعداد بجميل الثياب ، وطيّب الريح ، قال ابن القيم في بيان هديه ﷺ في العيدين : (وكان يلبس للخروج إليهما أجمل ثيابه ، فكان له حُلّة يلبسها للعيدين

والجمعة ، ومرة كان يلبس بُردين أخضرين) . [« زاد المعاد » : (١/٤٤١)] .

قال ابن قدامة في « المغني » بعد أن ساق أحاديث وآثارًا : (وهذا يدل على أن التجمل عندهم في هذه المواضع كان مشهورًا) . [« المغني » ٢/٢٢٨] .

إلا أنَّ هذا التجمل ينبغي أن يعرى عن العُجب والكبر والشهرة والخيلاء ؛ فما في خلق المرء أبغض إلى الله من هذه الصفات ؛ قال رسول الله ﷺ : « بينما رجل يتبختر في بُردَين ، وقد أعجبته نفسه ، خسف به الأرض ، فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة » . متفق عليه .

كما ينبغي أن يعرى التجمل عن الإسراف والتبذير ؛ لأن المبذرين ﴿ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا ﴾ [الإسراء : ٢٧] .

أحكام صلاة العيد :

أمَّا صلاة العيد فهي أجلُّ شعائره ؛ لأنها أعظم تعبير عن اجتماع أهل الإسلام وشوكتهم ، وهو من مقاصد الشريعة ؛ (إنَّ كل ملة لا بد لها من عرضة يجتمع فيها أهلها لتظهر شوكتهم ، وتظهر كثرتهم ، ولذلك استحبَّ خروج الجميع حتى الصبيان والنساء ، وذوات الخدور والحُيَّض ، ويعتزلن المصلَّى ، ويشهدن دعوى المسلمين) . [« حجة الله البالغة » (٢/٣١)] .

ومن ثمة فالقلب إلى الفتوى بوجوب صلاة العيد على الأعيان أميَل ، وهو مذهب أبي حنيفة ، وذهب الحنابلة إلى أنها واجب على الكفاية ، أمَّا مالك والشافعي فذهبا إلى أنها سنة مؤكدة .

قال أبو العباس ابن تيمية - بعد أن ساق جملة من الأدلة : (.. ولهذا رجَحنا أن صلاة العيد واجبة على الأعيان - كقول أبي حنيفة وغيره - وهو أحد أقوال الشافعي ، وأحد القولين في مذهب أحمد ، وقول من قال : لا تجب ، في غاية البُعد ؛ فإنها من أعظم شعائر الإسلام ، والناس يجتمعون لها أعظم من الجمعة ..) [« مجموع الفتاوى » لابن تيمية : (٢٣/١٦١)] .

وقال الشوكاني : (ومن الأدلة على وجوبها أنها مسقطة للجمعة إذا اتفقتا في يوم واحد ، وما ليس بواجب لا يسقط ما كان واجبًا) . [« السيل الجرَّار » : (١/٣١٥)] .

قُلْتُ : ما ذكره الشوكاني من إسقاط صلاة العيد للجمعة ثابت من حديث أبي هريرة عند أبي داود أنه اجتمع العيد والجمعة في يوم واحد ، فقال النبي ﷺ : « اجتمع في يومكم هذا عيدان ، فمن شاء أجزأه من الجمعة ، وإنا لمجمعون » . [« سنن أبي داود » كتاب الجمعة ، برقم (١٠٧٣)] .

والحديث في إسناده مقال من أجل بقية بن الوليد ، لكن يشهد له حديث زيد بن أرقم عند النسائي أنه لما اجتمعت الجمعة والعيد في يوم « صلى العيد ثم رخص في الجمعة ، وقال : من شاء أن يصلي فليُصَلِّ » . وقد رواه أبو داود وابن ماجه أيضًا . وهو عمل كثير من الصحابة منهم عبد الله بن الزبير .

أما أشهر أحكام هذه الصلاة فهي :

١- أن وقتها يكون بعد ارتفاع الشمس قدر رمح إلى الزوال ، وثمة أحاديث في هذا المعنى ضعاف ، لكن وقع الإجماع على معناها .

قال الشوكاني : (وقد وقع الإجماع على ما أفادته الأحاديث ، وإن كانت لا تقوم بمثلها الحجة) . [« الدراري المُضيَّة » : (١/١٦١)] .

٢- أنه يستحب الخروج لها إلى مُصلَّى خارج البلد ، بل هذا هو السنة ، وهو ثابت من أحاديث « الصحيحين » وغيرهما ، قال ابن الحجاج في « المدخل » : (والسُّنَّة الماضية في صلاة العيدين أن تكون في المصلَّى) .

ولأستاذنا العلامة الشيخ محمد ناصر الدين

الألباني - رحمه الله - رسالة مفردة سمّاها : ((صلاة العيدين في المصلى خارج البلد هي السُنّة)) حشد فيها الأدلة على ذلك .

قُلتُ : والغاية من هذا هي اجتماع المسلمين في كل بلد على إمام واحد ، في موضع واحد ، أما ما يحدث الآن من تعدّد المصلّيات في البلد الواحد لغير حاجة فهو مخالف لمقاصد الشريعة الغرّاء .

٣- ومن سُننها التكبير فيها قبل القراءة ، وإن اختلفت الآراء في عدد التكبيرات . قال البغوي في ((شرح السنة)) بعد أن ذكر حديث عائشة الذي رواه أبو داود وغيره في صفة تكبير النبي ﷺ : (وهذا قول أكثر أهل العلم من الصحابة فمن بعدهم ، أنه يكبّر في الأولى سبعًا سوى تكبيرة الافتتاح ، وفي الثانية خمسًا سوى تكبيرة القيام قبل القراءة) . [((شرح السنة)) (٤/٤٠٩)] .

وراجع في هذه المسألة ما بحثه العلاّمة المباركفوري في شرحه لسنن الترمذي (٣/٨٠-٨٨) ، وقد ختم هذا البحث بقوله : (قال الإمام محمد - رحمه الله - في ((موطئه)) : قد اختلف الناس في التكبير في العيدين ، فما أخذت به فهو حسن . وأفضل ذلك عندنا ما رُوي عن ابن مسعود أنه كان يكبر في كل عيد تِسعًا ؛ خمسًا وأربعًا فيهن تكبيرة الافتتاح ، وتكبيرتا الركوع ، ويوالي بين القراءتين ، ويؤخرها في الأولى ، ويقدمها في الثانية ، وهو قول أبي حنيفة . انتهى كلامه . قلت : بل أفضل ذلك ما رُوي عن أبي هريرة للوجهين اللذين ذكرتهما آنفًا ، ولا وجه لأفضلية ما روي عن ابن مسعود . هذا ما عندي ، والله أعلم) . اهـ .

قُلتُ : ولم يُحفظ عن المعصوم صلوات الله عليه ذكر مُعَيّن بين كل تكبيرتين ، كما نصّ على ذلك ابن القيم في ((الزّاد)) ، لكن روي عن ابن مسعود أنه قال : (بين كل تكبيرتين حَمْدٌ لله عزّ وجلّ ، وثناء على الله) . [((سنن البيهقي)) (٣/٢٩١)] .

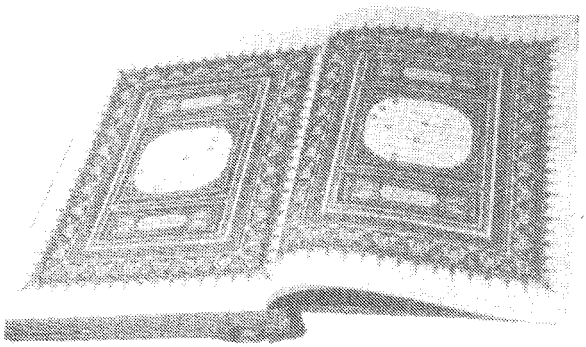

٤- القراءة في صلاة العيد كالقراءة في غيرها ، لكنْ صَحَّ عن النبي ﷺ أنه كان يقرأ في الأولى بسورة ((ق)) ، وفي الثانية بسورة ((القمر)) ، وربما قرأ بسورتي ((الأعلى)) و((الغاشية)) . قال ابن القيم : (ولم يصحَّ عنه ﷺ غير ذلك) . [((زاد المعاد)) (١/٤٤٣)] .

قال النووي في ((شرح مسلم)) : (والحكمة في قراءتهما - أي سورتي ((ق)) و((القمر)) - لما اشتملتا عليه من الإخبار بالبعث ، والإخبار عن القرون الماضية ، وإهلاك المكذّبين ، وتشبيه بروز الناس للعيد ببروزهم للبعث ، وخروجهم من الأجداث كأنهم جراد منتشر ، والله أعلم) .

٥- صلاة العيد بلا أذان ولا إقامة ، وهو عمل النبي ﷺ المستقر برواية صحابته الكرام ، وهو ما ترجم به أصحاب الحديث أبواب سُننهم . قال شيخ المحدثين الإمام البخاري : (باب المشي والركوب إلى العيد - بلا أذانٍ ولا إقامة) . وقال مالك في ((الموطأ)) : (سمعت غير واحدٍ من علمائنا يقول : لم يكن في الفطر ولا في الأضحى نداء ولا إقامة ، منذ زمن رسول الله ﷺ إلى اليوم . وتلك السنة التي لا اختلاف فيها عندنا) .

قُلتُ : وكذلك لا يقال : الصلاة جامعة ، ولا نحوها من الألفاظ ، فهذا كله من البدع ، وإنما يأمر

الإمام الناس بالقيام للصلاة ، أو يتوجه إلى موضع الصلاة فيقوم الناس لذلك .

٦- لا صلاة قبل العيد ولا بعدها في المُصلَّى : بذلك ترجم الترمذي في « جامعه » - دون عبارة « في المُصلَّى » ، وسيأتي سبب هذه الزيادة - وأورد الترمذي وغيره حديث ابن عباس : (أن النبي ﷺ خرج يوم الفطر فصلَّى ركعتين ، ثم لم يصلِّ قبلها ولا بعدها) . قال الترمذي : حديث ابن عباس حديث حسن صحيح ، وقد ذهب جماعة من الصحابة والسلف إلى جوازهما ، لكن عمل رسول الله ﷺ أحبُّ إليَّ .

أقول : وهذا كله خاصٌ بالمصلَّى ، أمَّا في البيت فيُسَنّ صلاة ركعتين بعد دخوله البيت منصرفًا من العيد . قال المباركفوري : (قوله : (ولم يُصَلِّ قبلها ولا بعدها) أي قبل صلاة العيد ولا بعدها . قال الشيخ ابن الهمام : هذا النفي محمول على المُصلَّى لخبر أبي سعيد : كان رسول الله ﷺ لا يصلي قبل العيد شيئًا ، فإذا رجع إلى منزله صلَّى ركعتين) . [« تحفة الأحوذي » (٣/٨٨)] .

أقول : حديث أبي سعيد المشار إليه - على كلام للعلماء فيه - لا ينزل عن رُتْبَةِ الحَسَن ، وقد جزم الحافظ في « الفتح » بتحسينه ، وصححه الحاكم ، والله أعلم .

وهذه السنة من السنن التي تهاون الناس فيها ، فلا تكاد تجد من يفعلها .

٧- من فاتته صلاة العيد صلَّى ركعتين ، وهذا الحكم قلَّ من نبَّه عليه ، على الرغم من ترجمة البخاري في « الصحيح » ، قال : (إذا فاته العيد يصلي ركعتين ، وكذلك النساء ، ومن كان في البيوت والقرى ، لقول النبي ﷺ : « هذا عيدنا أهل الإسلام » . [« فتح الباري » : (٢/٤٧٤)] .

قال الحافظ : (وأهل الإسلام شامل لجميعهم أفرادًا وجَمْعًا) . وقال : (في هذه الترجمة حكمان : مشروعية استدراك صلاة العيد إذا فاتت مع الجماعة سواء كانت بالاضطرار أو بالاختيار ، وكونها تُقْضى ركعتين كأصلها) .

◎ خطبة العيد وأحكامها :

أما خطبة العيد فهي في مجموع أحكامها رسالة تربوية بالغة الدلالة ، ومن خلال هذا العرض الموجز لأهم أحكامها سنلمس بعض دلالاتها التربوية :

١- فالأصل في الخطبة أنها بعد الصلاة - لا قبلها - وهي سنة النبي ﷺ ، قال ابن عمر : (كان النبي ﷺ ، وأبو بكر ، وعمر ، يصلُّون العيدين قبل الخطبة) . متفق عليه .

وأورد المُلاَّ علي قاري في « المرقاة » عدة أوجه لتأخير الخطبة في العيدين . [« مرقاة المفاتيح » (٢/٢٤٧)] .

ولعل مما يعجبني منها أن وقت العيد أوسع من وقت الجمعة ، فقُدِّمت في الجمعة وأُخِّرت في العيد ، أو لأن شهود خطبة الجمعة فرض فقُدِّمت لئلا يذهبوا بعد الصلاة فيتركوها فيأثموا) .

٢- السُّنَّةُ أن يُخيَّر الناسُ بين شهود الخطبة أو الانصراف ، وهو صنيع رسول الله صلوات الله عليه ، وهو مسلك تربويّ راقٍ ؛ إذ يقول : « إنَّا نخطب ؛ فمن أحبَّ أن يجلس للخطبة فليجلس ، ومن أحبَّ أن يذهب فليذهب » . [رواه أبو داود والنسائي والحاكم ، وصححه الحاكم] .

وهذا غاية في التلطُّف ومراعاة حاجات الناس ، لا ما يفعله الكثير من خُطباء اليوم من استحراص الناس على الجلوس ، وإحراجهم في هذا الأمر ؛ ولا والله : لا يبارك الله إلا في السنة والعمل الذي يوافقها ؛ قال ابن القيم : (ورخَّص ﷺ لمن شهد العيد أن يجلس للخطبة أو أن يذهب) . [« زاد المعاد » : (١/٤٤٨)] .

٣- ويُستحب للخطيب أن يُذكِّر الرجال والنساء

ويعظهم جميعًا ، فلا يترك نصيب النساء من الموعظة في هذا اليوم ، قال ابن عباس : (.. خرج رسول اللَّه ﷺ - يعني إلى العيد - فصلَّى ثم خطب ... ثم أتى النساء ، فوعظهن ، وذكَّرهن ، وأمرهن بالصدقة) . متفق عليه .

وفي حديث جابر عند البخاري ، سئل عطاء : (أترى حقًا على الإمام ذلك) ، فقال : إنه لَحَقٌّ عليهم ، وما لهم لا يفعلونه) . [« صحيح البخاري » (كتاب العيدين : ٩٧٩)] . قال الحافظ في « الفتح » : (ظاهرُه أنّ عطاء كان يرى وجوب ذلك) . [« فتح الباري » : (٢/٤١٧)] .

قُلْتُ : وإن لم يُقل به غيره - كما ذهب القاضي عياض - فقد جوَّز النووي القول به ، ووجهه قويّ لما تحتاجه النساء من مداومة التذكير ، وتكرار الموعظة لما يغلب عليهن من النسيان ، وما يعتريهن من الضعف في الدين .

٤- ويستحب أن يتخلَّل الخطبةَ التكبير ، يُكثر منه ؛ لاستحباب التكبير عمومًا يوم العيد ، ولورود ذلك مرفوعًا من حديث سعد القرظ : (أنه صلوات اللَّه عليه كان يكثر التكبير بين أضعاف الخطبة) . [« سنن ابن ماجه » (١٢٨٧)] .

وهو حديث ضعيفٌ ؛ لضعف عبد الرحمن بن سعد ، وجهالة أبيه وجدّه ، إلا أنه موافق لعموم السنة في الإكثار من التكبير . واللَّه أعلم .

غير أنه لا يفهم منه ما يصنع الخطباء اليوم من البدء بالتكبير في الخطبة ، فلم يرد ذلك بأي طريق عن رسول اللَّه صلوات اللَّه عليه ، بل قال الإمام ابن القيم : (وكان النبي ﷺ يفتتح خُطَبَهُ كلها بالحمد للَّه ، ولم يحفظ عنه في حديث واحد أنه كان يفتتح خطبتي العيد بالتكبير) . [« زاد المعاد » : (١/٤٤٧)] .

أحكام أخرى للعيد :

وهذا التكبير عمومًا ليس قاصرًا على الخطبة ، ولا على المصلَّى قبل العيد ، أو المسجد بعد المفروضات ، وإنما هو سلوكٌ عامٌ مسنون للمسلم في العيد ؛ ومن نماذج ذلك أن النبي ﷺ كان يُكبر إذا خرج من بيته يوم الفطر حتى يأتي المُصلَّى ، وكان أصحاب عبد اللَّه يكبرون في الطُرق وفي تجمعات الناس . ولهذا التكبير طرق وصيغ متعدّدة ؛ منها :

١- اللَّه أكبر ، اللَّه أكبر ، اللَّه أكبر كبيرًا .

٢- اللَّه أكبر وأجَلّ ، اللَّه أكبر على ما هدانا .

٣- اللَّه أكبر ، اللَّه أكبر لا إله إلا اللَّه ، واللَّه أكبر ، اللَّه أكبر ، وللَّه الحمد .

ولا يُندب الاقتصار على صورة واحدة أو الزيادة عليها ، وإنما يحسُن الذكر بهذه الصِّيَغ الواردة الثابتة عن النبي ﷺ وصحبه .

ومن أهم ما تجب معرفته من هذه الأحكام أن يتأدب المسلم بآداب الإسلام في زيارة أقاربه هذه الأيام ؛ فلا يدخل على المغيَبات اللاتي سافر أزواجهن في حاجاتهم ، ولا تتزيَّن المسلمة بما يُغضِب ربَها في الوقت الذي تفتقر إلى مرضاته سبحانه ، ولا يُخصَّص يوم العيد لزيارة المقابر ، وإنما يُكتفى بالمشروع ، والمشروع طيِّب وكثير ، وأعلاه مواساة الفقراء والتودُّدِ إليهم ، وإغناؤهم عن ذُلّ السؤال في ذلك اليوم ، وإنما الذي يفعله الناس هو إعطاء السائلين ، والمطلوب هو إغناؤهم عن المسألة أصْلاً ، بحيث لا يحتاجون إلى الطواف على البيوتِ والمجالس .

فنسأل اللَّه قبول أعمالنا ، والصفح عن خطيئاتنا ، إنه ولي كريم .

والحمد للَّه أوّلاً وآخرًا .

وكتب
محمد عبد الحكيم القاضي
مصر - المنيا - صفط الخمَّار

قيم تربوية في حياة المبشرين بالجنة

بقلم/ محمد عبد الحكيم القاضي

على رأس الصحابة، والأمة كلها، يذكر عشرة من صحابة رسول الله ﷺ، جمعوا في جملتهم عناصر من الخير متعددة، وروافد من البر متنوعة، بحيث يصلح أن يكونوا معا نموذجًا لأمة فريدة متميزة. وقد أطلق على هؤلاء اسم «العشرة المبشرون بالجنة» وذلك للحديث الصحيح المشهور عن رسول الله ﷺ، الذى بشرهم بالجنة واحدًا واحدًا حين قال:

«أبو بكر فى الجنة، وعمر في الجنة، وعثمان في الجنة، وعلي في الجنة... الحديث»[١].

وقد شاع هذا الاسم حتى أصبح اصطلاحًا عند العامة والخاصة، وحسبنا أن يبدأ الإمام أحمد ابن حنبل مسنده الضخم في الحديث بذكر رواية «العشرة»، ويقصد العشرة المبشرين؛ لأن مصطلح العشرة أصبح ينطلق بداهة على هؤلاء العشرة، فهناك الذى يصنف «مسند العشرة» والذي يصنف «مناقب العشرة» وهم يعنون هؤلاء العشرة الصحابة المميزين على الأمة ببشارة النبي صلوات الله عليه ﷺ إياهم.

مبشرون آخرون

وعلى الرغم مما في ذيوع هذا (المصطلح) من دلالات تاريخية وتربوية ينبغي أن يفرد لها بحث يستكشف أعماقها، أقول: على الرغم من ذلك فقد غطى ذيوعه على بعض الأحاديث المفردة الأخرى التي تصرح بالبشارة بالجنة لآخرين من الصحابة، لهم ميزات خلقية خاصة جعلتهم حقيقين بهذه البشارة.

ولو ذهبنا نعد هؤلاء المبشرين ومناقبهم، لأعيانا الاستقصاء، فلعل في الإشارة إلى بعضهم هنا إيحاءً بما كانوا عليه من عظيم البر، وكبير القدر، وإيماءً إلى بعض الدروس العملية من القدوة للكبير والصغير، والشيخ والشاب، والرجل والمرأة، والغني والفقير من أمتنا في ظروفها الحضارية المليئة بالتحدي والمجابهة.

أم المؤمنين خديجة

فتبرز السيدة خديجة بنت خويلد[٢] رضي الله عنها أقدم أمهات المؤمنين، وأول الناس إسلامًا على الإطلاق[٣]، ومثال الزوجة الصالحة الأنيسة الودود، التى تقف عند الشدائد موقف الساعد والظهير، قال لها النبى ﷺ يوم حراء: «قد خشيت على نفسي» فأجابته بتأييد الوامق، وتأكيد الواثق: «كلا، فوالله لن يخزيك الله أبدًا؛ إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق»[٤].

إن مواقف خديجة من الدعوة لتحتاج إليها كل مسلمة، خصوصًا صاحبات الشرف والمنصب والحظوة، والمثقفات، وأزواج الدعاة إلى الله تعالى؛ فهى مع زوجها النبي ﷺ خطوة بخطوة، لا تراعيه وحده، وإنما تحمل هم الدعوة إلى الله في مراحلها وأفرادها ووسائلها، حتى كانت وفاتها سببا من أسباب طمع المشركين فى تشديد الأذى على رسول الله ﷺ ومن معه، قال ابن

إسحاق: «تتابعت على رسول الله ﷺ المصائب بهلاك أبي طالب وخديجة، وكانت وزيرة صدق» ولم يكتم النبي صلوات الله عليه إحساسه بفقدها، إذ قال لعائشة رضي الله عنها: «لا والله ما بدلني الله خيرًا منها؛ آمنت بي إذ كفر الناس، وصدقتني إذ كذبني الناس، وواستني بمالها إذ حرمني الناس، ورزقني الله منها الولد»[٥]. وقال الذهبي: «ومناقبها جمة، وهي ممن كمل من النساء، كانت عاقلة جليلة دينة، مصونة، كريمة من أهل الجنة»[٦].

ولقد كانت بشارتها بالجنة بشارة خاصة من رب العزة سبحانه، قال أبو هريرة رضي الله عنه: «أتى جبريل النبي ﷺ، فقال: هذه خديمة أتتك، معها إناء فيه إدام أو طعام أو شراب، فإذا هي أتتك فاقرأ عليها السلام من ربها ومني، وبشرها ببيت في الجنة من قصب، لا صخب فيه ولا نصب[٧].

والقصب، بفتحتين اللؤلؤ المجوف.

بلال بن رباح[٨]

«بم سبقتني إلى الجنة؟ دخلت الجنة فسمعت خشخشتك بين يدي!»[٩]. قالها رسول الله ﷺ لبلال، وحاشا لبلال أن يسبق رسول الله إلى الجنة، ولكنها مواصلة البر بالنبي ﷺ، ومداومة الوفاء له، فهو يمشي بين يدي النبي في الجنة كما كان يمشي بين يديه في الدنيا، حفاظًا عليه وصونا لنفسه الشريفة من الأذى، قال الحافظ ابن حجر: «وكأنه أشار إلى بقاء بلال على ما كان عليه في حال حياته واستمراره على قرب منزلته، وفيه منقبة عظيمة لبلال»[١٠].

ووفاء بلال لرسول الله صلوات الله عليه يفوق الوصف، فضلا من وفائه لله ولدعوة الحق، التي كانت سببًا في شدة أذاه، حتي احتمل مالا يحتمله أحد، من التنكيل، والضرب، والتفنن في صنوف العذاب، قال محمد بن إسحاق: «... وكان صادق الإسلام، طاهر القلب، وكان أمية يخرجه إذا حميت الظهيرة، فيطرحه على ظهره في بطحاء مكة، ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على ظهره...»[١١] قال عبد الله بن مسعود: «... وأما سائرهم (يعني باقي السابقين للإسلام) فأخذهم المشركون، وألبسوهم أدرع الحديد، ثم صهروهم في الشمس، فما منهم أحد إلا واتاهم على ما أرادوا إلا بلالا، فإنه هانت عليه نفسه في الله، وهان على قومه، فأعطوه الولدان (يعني: وهو مقيد يزحف) فجعلوا يطوفون به في شعاب مكة، وهو يقول: أحد أحد[١٢].

وقد أعتقه أبو بكر رضي الله عنه، كان لله وللإسلام أكثر وفاءً، فقد شهد بدرًا والمواقع، وفتح مكة، وأذن فوق الكعبة يوم الفتح، وكان عابدًا مجاهدًا، قال لأبي بكر الصديق رضي الله عنه بعد وفاة النبي ﷺ: «إن كنت إنما اشتريتني لنفسك فأمسكني، وإن كنت إنما اشتريتني لله فدعني وعمل الله». ويبدو أن أبا بكر تركه للعبادة والجهاد في سبيل الله على اختلاف بين الروايات في ذلك.

نعم: كان بلال سيدًا، كما قال عمر بن الخطاب: «أبو بكر سيدنا، وأعتق سيدنا»، فالسيادة والنُّبل ليسا بالنسب، وإنما بالانتماء للشرف والمجد وعلو الدرجات، ومن ثم فقد أنصف الحافظ الذهبي حين أدرجه في «سير أعلام النبلاء»، وقال: «من السابقين الأولين الذين عذبوا في الله، شهد بدرًا، وشهد له النبي ﷺ على التعيين بالجنة، وحديثه في الكتب»[١٣].

سعد بن معاذ[١٤]

وهو رجل الشدائد والمواقف والناصر في ساعات العسرة، عرف مصعب بن عمير والصحابة الإسلام في وجهه قبل أن يتكلم، لإشراقه وتسهله، وكان إسلامه فتحًا للإسلام ولقومه من الأوس، فأسلموا جميعا، قال ابن هشام «قالوا: فوالله ما أمسى في دار بني عبد الأشهل رجل ولا امرأة إلا مسلمًا أو مسلمة»[١٥].

وأول ما تلمح في سيرة سعد رضي الله عنه في الإسلام، هو مدى إفادته من مكانته وموقفه الاجتماعي في توسيع إمكانات الدعوة، وتمديد عطاءاتها. وهو ملمح يحتاجه كل صاحب منصب، أو رئاسة، أو زعامة؛ ها هو ذا في إبان غزوة بدر، والنبي يريد اهتبال الفرصة ليشفي صدر المهاجرين من عدوهم من الكفار، الذي أخرجوهم من ديارهم وأموالهم لأنهم قالوا: ربنا الله.

وكان الأنصار قد بايعوا رسول الله في العقبة على منعه وحمايته في ديارهم، فلما عزم النبي صلوات الله عليه على الخروج استشارهم في جماعة من أصحابه ليتحسس ما عندهم، فتكلم المهاجرون فأحسنوا، إلا أن رسول الله ﷺ استشارهم ثانية، فأدرك سعد بن معاذ بحسه الصادق، وذكائه الصافي أنه إنما يريد الأنصار، وهنا ينطق الوفاء والولاء والمسئولية الرفيعة على لسان سعد «يا رسول الله: كأنك تعرض بنا؛ لعلك تخشى أن تكون الأنصار ترى حقا عليها ألا ينصروك إلا في ديارهم، وإني أقول عن الأنصار وأجيب عنهم؛ فاظعن حيث شئت، وصل حبل من شئت، واقطع حبل من شئت، وخذ من أموالنا ما شئت، وأعطنا ما شئت، وما أخذت منا أحب إلينا مما تركت، فوالله لئن سرت حتى تبلغ البرك من غمدان لنسيرن معك، ووالله لئن استعرضت بنا هذا البحر خضناه معك»[16].

أخلاق السيادة وتبعاتها

إن الذي يهزك في هذه الكلمات الناطقة بالرجولة الحقة، والولاء الخالص، ليس هو النبض الحماسي الذي ينطوي على إيمان عميق، وتضحية صادقة فقط، وإنما هو أن سعد بن معاذ لم يفكر أن ينتظر حتى يستشير الأوس بله الأنصار جميعا ليرى ما رأيهم في هذه القضية المصيرية بالنسبة لهم، خصوصًا وأن بنود العهد مع النبي الكريم لا تشمل وجوب الدفاع عنه خارج حدود المدينة، وذلك أن منطق اللحظة فرض نفسه على سيد القوم، والعقل المؤمن هنا لا يرى من المروءة ومكارم الأخلاق أن يتبصر في حقوقه النظرية حول شمولية الدفاع أو محدوديته، وإنما يراها في حق المصطفى صلوات الله عليه واقعًا في تمديد العهد وتوسيع نطاق الدفاع عنه ومنعه، بفاعلية قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ﴾ [التوبة: ١٢٠].

وما كان قرارًا للسيد فهو قرار للقوم بطريق التبعية إن لم يكن بطريق الاتباع، وإلا ففيم السيادة؟

ومواقف سعد بن معاذ التي تتسم بعبقرية السيادة كثيرة، إلا أننا تجتزيء منها هذا الموقف الذي أثنى عليه رسول الله ﷺ، وهو موقفه من يهود بني قريظة وحكمه عليهم[17]؛ وكان سعد رضي الله عنه يدعو الله. بعد جرحه في غزوة الخندق ألا يميته حتى يقر عينه من بني قريظة»[18]. فلما كثرت خيانات اليهود لله ورسوله بالمدينة، وتقرر إنهاء جرائمهم وفسادهم، حاصرهم رسول الله ﷺ خمسا وعشرين ليلة حتى نزلوا على حكمه ﷺ.

وهنا يقع اختيار القائد الملهم من ربه على النائب المناسب لإصدار الحكم، وهو سعد بن معاذ، وهو يعلم أن بني قريظة هم موالي الأوس عشيرة سعد رضي الله عنه، ومن ثَم فإن حكمه سيرضى عنه الأنصار خصوصًا الأوس ولن تستنكره اليهود. ثم هو يعرف من يكون سعد بن معاذ، الذي لا يحتاج إلى توصية إذا تعلق الأمر بنصرة الله رسوله.

وجاء سعد بن معاذ إلى رسول الله ﷺ على حمار والأوس من حوله يستحثونه أن يحسن إلى بني قريظة في حكمه لأنهم مواليهم، وهو صامت، فلما أكثروا عليه، قال: «لقد آن لسعد ألا تأخذه في الله لومة لائم». حتى بلغوا رسول الله، فأخبره أن القوم قد نزلوا على حكمه، قال سعد للأوس

مستوثقًا: عليكم بذلك عهد الله وميثاقه أن الحكم فيهم لما حكمت؟ قالوا: نعم. قال سعد: فإني أحكم فهم أن تقتل الرجال، وتقسم الأموال، وتسبى الذراري والنساء[19]. أقول: بخ بخ!! هكذا تكون السيادة، تلك السيادة التي تتجافى ساعة نداء الحق عن كل علائق التحالفات والمعاهدات المؤقتة، التي ينبغي أن تنتهي عند حلول ساعة (الصفر)، وهذا الدرس موجه خصيصًا للسادة في كل زمان، خصوصًا هذا الزمان الذي دأبوا فيه على احترام مواثيق وتعاهدات نبذها أطرافها، ومسحوا بها أحذيتهم، مع الأذى الشديد منهم لله ولرسوله وللمؤمنين. أفلا كان موقف سعد بن معاذ منارة رشد وسراج اهتداء؟

ولكي يتأكد الأوس والأنصار والمسلمون القادمون أيضًا أن حكم سعد لم يكن به شبهة إجحاف، أو ذرة هوى، ينطق الصادق المصدوق ﷺ بقوله، مؤيدًا هذا الحكم: «لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبع سماوات»[20].

من أجل هذا وكثير على شاكلته من سيرة هذا السيد الفقيه الواعي لم يكن مستغربًا أن يخبر النبي أصحابه ومن بعدهم أن عرش الرحمن قد اهتز لموت سعد بن معاذ، ولا هو مستغرب أن يرى القائد الكريم أصحابه يتعجبون لحلة الحرير الرقيق فيقول لهم: «أتعجبون من لين هذه؟ لمناديل سعد بن معاذ في الجنة خير منها وألين»[21].

وتبقى القيم

نعم.. تذهب الرجال من حيث كونها لحومًا وعظامًا وجوارح، لكن يبقى الرجال أنفسهم باعتبارهم قيما ومبادئ وقيادات تربوية للأمة، وزادًا فكريا وحضاريًا لها في محنها وتحدياتها مع أعدائها،، ونبعًا فياضًا بالعطاء لها فى إدارة واقعها واستشراف مستقبلها.

وهذا هو جل ما قصدناه من وراء هذه الدراسة. والله من وراء القصد

﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ [ق:٣٧].

الهوامش

(١) أخرجه أحمد والترمذي وغيرهما:

المسند: ١٩٣/١

سنن الترمذي: كتاب المناقب، باب عبد الرحمن بن عوف ح٣٧٤٧،

(٢) ترجمتها في: (أسد الغابة: ٧٨/٧، الإصابة: ٢٨١/٤، سير أعلام النبلاء: ١٠٩/٢، السمط الثمين للمحب الطبري ط/ القيمة ص ٣٣:٥٥).

(٣) قال ابن الأثير في أسد الغابة ٧٨/٧: «خديجة أول خلق الله أسلم، بإجماع المسلمين».

(٤) الحديث رواه الجماعة:

وانظر: البخاري (كتاب بدء الوحي، باب كيف بدأ الوحي ح٣)، ومسلم

(٥) سيرة ابن هشام: ٤٢٦/١ .

(٦) سير أعلام النبلاء للذهبي: ١ / ١٠٩، ١١٠ .

(٧) متفق عليه:

(٨) ترجمته في: الطبقات: ١٧٤/٣، الاستيعاب ١٧٨/١، الإصابة: ١٦٥/١، سير أعلام النبلاء: ٣٤٧/١).

(٩) البخاري ومسلم وغيرهما بألفاظ مختلفة.

(١٠) الفتح: ٣٥/٣ .

(١١) سيرة ابن هشام (دار الحديث : ٢٦٢/١).

(١٢) حلية الأولياء أبي نعيم: ١٤٩/١ .

(١٣) سير أعلام النبلاء: ٣٤٧/١ .

(١٤) ترجمته في:

(الطبقات: ٦٧/٣، أسد الغابة: ٤/ ٦٨،٦٧، الإصابة: ٨٧/٣).

(١٥) سيرة ابن هشام: ٤٣/٢ .

(١٦) البداية والنهاية: ٣٩٥/٢ .

(١٧) الحديث حسن الإسناد:

وقد رواه أحمد في المسند ١٤١/٦ .

وراجع: سيرة ابن هشام ٢٢٦/٢، الإصابة ١٧١/٤ .

(١٨) ابن هشام: ٢٢٦/٢، المسند ١٤١/٦ .

الإصابة: ١٧١/٤.

(١٩) راجع الحاشية التالية.

(٢٠) البخاري ومسلم وغيرهما.

(٢١) متفق عليه: